شعاع من المحراب

الجزء العاشر

إعداد

سليمان بن حمد العودة



الأخوّة الإسلامية[1]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله.

اللهم صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

أيها المسلمون: مظهرٌ عظيمٌ من مظاهرِ قوتِنا، وسِمةٌ جليلةٌ من سماتِ وحدتِنا، وتعبيرٌ صادقٌ لتكافُلِنَا ومودَّتِنَا .. لا يتوفرُ مثلُها عندَ غيرِنا منَ الأمم، ولم تحفلْ بها الشرائعُ والأديان كما احتفل بها الإسلامُ .. إنها الأُخوَّةُ الإسلاميةُ، نزلَ تشريعُها منْ فوقِ سبعِ سماوات ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]، وتمثَّلها المسلمونَ واقعًا علميًا، بل ضربوا بها أروعَ الأمثلةِ محبةً وإيثارًا حتى خلّدَ القرآنُ ذكرَهم، وأثنى على صنيعِهم، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3].

كَمْ للأخوّةِ منْ فضائلَ ومزايا حَرِيةٌ أن نعيَها ونعملَ بها، وكَمْ لها منْ مقاصدَ نبيلةٍ وآدابٍ راقيةٍ، وحقوقٍ مشروعةٍ، وكم لها من مفاسدَ وآفاتٍ. . وحَريٌ بنا أن نعلم هذا أو ذاك، فهي موثقةٌ لعُرى الإيمان «**أوثقُ عُرَى الإيمانِ الحبُّ في اللهِ والبغضُ في الله**».

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢٤/ ٤/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٩.

وهيَ منْ كمالِ الإيمانِ قالَ ﷺ: «**من أحبَّ للهِ وأبغضَ للهِ، وأعطى للهِ ومنعَ للهِ فقد استكملَ الإيمانَ**»[١].

بالأخوةِ تُستجلبُ محبةُ الله «**وجَبَتْ محبَّتي للمتحابين فيَّ والمتجالسينَ فيَّ والمتزاورينَ فيَّ، والتباذلين فيَّ**» حديث قدسي[٢]، وبالأخوة يُظلُّ المتآخونَ المتحابونَ تحت ظلِّ الرحمن يوم لا ظل إلا ظلُّه، فأحدُ السبعةِ منْ هؤلاء، رجلانِ تحابَّا في اللهِ، اجتمعا عليهِ وتفرَّقا عليه.

وبهذهِ الأخوَّةِ ولوازمِها تُحَتُّ الخطايا وتُغفرُ الذنوبُ؛ قالَ ﷺ: «**ما مِنْ مسلِمَيْن يلتقِيانِ فيتصافَحان إلا غَفَرَ اللهُ لهما قبلَ أنْ يفْتَرْقا**»[٣].

والأخوَّةُ -لمنْ وُفِّقَ لأداءِ حقوقِها- طريقٌ إلى الجنَّة، ففي الحديث الصحيح: «**من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله ناداه منادٍ: أن طبتَ وطاب مَمْشاك وتبوَّأتَ من الجنةِ منزلًا**»[٤].

معاشرَ المسلمين: كمْ نُفرِّط في هذه المعاني واللوازم للأخوَّة، وفضلُها وآثارُها كما علِمْتم! وكَمْ نحن سعداء بهذه الأخوِّة، في الدنيا والآخرة! فهل نَسْتشعِرها، هلْ نُدْرك مقاصِدها؟

إنَّ منْ مقاصدِ الأخوَّة الإسلاميةِ التعاونَ على الإيمانِ والبرِّ والتقوى والتواصي بالحق والصّبر، وإذا خَسِرَ بنو الإنسانِ، فأُولئكَ هُم الفائزون.

وثَمَّةَ مقصدٌ آخرُ للإخوة، ألا وهو الاستعانةُ بالأخوَّةِ على نوائب الدّهر

(١) رواهُ أبو داود (٤٦٨١) وصحَّحهُ الألباني، صحيح الجامع ح ٥٩٦٥.

(٢) رواه أحمد في المسند ٥/ ٢٢٣.

(٣) أخرجه أبو داود (ح٥١١٢) وأحمد (٤/ ٢٨٩) وصحَّحه الألباني في الصحيحة (ح٥٢٥).

(٤) صحيح الجامع ح ٦٣٨٧.

وحاجاتِ الزمَان، وأوقات الشدائد، ومنْ مأثورِ قولِ العارفين: «إنَّا نَحْتاج إلى إخوانِ العُشرةِ لوقتِ العُسْرة»[١].

فهل نُثمِّنُ هذه المقاصد للأخوة، ويكونُ الأخُ إنما صادقًا في زمنِ الرخاء والشِّدة، ناصِحًا ومشيرًا، وفازِعًا ومُنقِذًا؟ وإذا كانَ إخوانُ الرَّخاءِ كَثْرةً، فهُمْ أقلُّ في زمنِ الشدائد.

على أنَّ مقاصدَ الأخوَّة تتجاوزُ الفردَ إلى الجماعةِ، بلْ وتصلُ إلى الأمةِ المسلِمَة بأسرِها، وتلكَ التي عبرَّ عنها الرسولُ ﷺ بقوله: «**مثلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، كَمَثل الجسدِ الواحدِ إذا اشتَكى منه عُضْوٌ تَدَاعى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهرِ والحُمَّى**» رواه البخاري.

إنَّ هذا المقصدَ للأخوةِ مظهرٌ منْ مظاهرِ قوَّتِنا وترابُطِنا وتعاونِنا.

معشرَ المسلمين: وتلكَ إذا حقَّقْناها مُغيظةٌ لأعدائِنا مرهْبةٌ لِقُوى الكفرِ المتربِّصين بنا.. إنَّ المسلمَ حينَ ينصرُ أخاه المسلمَ، ويشعرُ بآلامه يُقوّي أخاهُ ويُضعفُ منْ هَيْبةِ أعدائه، ويستجيب لدعوةِ نبيهِ ﷺ: «**انصُرْ أخاكَ ظالِمًا أو مظلومًا**».

أيها الأخوةُ المؤمنون: وحينَ نعلَمُ فضائل الأخوةِ وشيئًا منْ مقاصِدِها لا بدَّ أنْ نعلمَ شيئًا من حقوقِ الأخوَّةِ، ولا بدَّ أَنْ نُساءِل أنفُسنا: هلْ قُمنا بها أو بمُعْظَمِها، أم فرَّطْنا فيها أو بمعظمها؟

إنَّ منْ حقوقِ الأخوّةِ إفشاءَ السلام.. وكَمْ لإفشاءِ السلامِ مِنْ أثرٍ في مجتمعِ المسلمين؛ عنْ عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اعبُدوا الرحمن، وأطعِموا الطعامَ، وأفشوا السلامَ، تدخلوا الجنانَ**»[٢].

---

(١) الصعلوكي، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٠٨).

(٢) رواهُ البخاريُّ في «الأدب المفرد» وصحَّحهُ الألباني، صحيح الأدب المفرد/ ٣٧٧.

إن خير المتهاجرين من بدأ صاحبه بالسلام وأبخل الناس من يبخل بالسلام[١].

ومِنْ حقوقِ الأخوّة: عيادة المريض- وليس يَخْفى ما فيها من الأجرِ والمغنم، فَضْلًا عن إيناسِ المريضِ والتسْرِية عنه.

واتباعُ جنازة المسلم حقٌ من حقوقِهِ، وكذا تشميتُهُ إذا عَطَسَ وحَمَدَ اللهَ. ونصرة المظلوم، وإجابةُ الدعوةِ، وبذلُ النصيحةِ له، وقبولُها منه.. كلُ ذلك من حقوقِ الأخوَّة الإسلاميةِ.

إنها حقوقٌ تُشيعُ المحبةَ وتنشرُ التكافلَ، وتُعَمِّمُ الخيرَ، وتوسِّعُ دائرةَ النُّصْحِ، تُسرِّي وترفعُ الضَّيْمَ.. وما أروعَ خُلُقَ المسلمِ وهو يشاركُ أخاه في أفراحِهِ ومسرَّاتِهِ، ويشاركُهُ في أَتْراحِهِ ويخفِّفُ مِنْ آلامِهِ وأَحْزانِهِ..

نَعَم، إنَّ دينًا يَجْزي على الابتِسامةِ في وجهِ المسلمِ ويعتبرُها صدقةً من الصدقاتِ لَدِينٌ عظيم، فكيفَ إذا فرّجَ عنهُ كربةً أو شاركَهُ في نازِلةٍ، أو نَصَرهُ في مَظْلَمةٍ ظُلِمَها؟!

يا أخا الإسلام، لا تَحقِرنَّ مِنَ المعروف شيئًا، ولا تَقْصُرْه على القريب -وإنْ كانَ أَوْلى- ولا على الحبيبِ -وإنْ كانتِ النفسُ تميلُ إليهِ ميلًا- ولكنِ احرصْ على نشرِ الخيرِ والإحسانِ جهدَك، ومَنْ لَمْ تستَطِعْ أن تُقدِّمَ له عَوْنًا بمالِكَ فبِجاهِك، أو بِحُسنِ خطابكَ ولطفِ استقبالِكَ ولا تَنْسَ الدعاءَ لإخوانِكَ المسلمين فهوَ لا يكلِّفُك شيئًا، بل يُجيبُك مَلَكٌ: ولَكَ بِمِثْلِ ما دَعوتَ به، فلا تحرِمْ نفسَك وإخوانَكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ، واقصِدْ من وراءِ ذلكَ كلِّه وجْهَ اللهِ!

أيها المسلمون: وهناكَ آدابٌ للأخوّة لا بدَّ كذلكَ مِنْ مُراعاتِها فاعْلَمْها واحرصْ على التأَدُّبِ بها، ومِنْ هذه الآداب:

---

(١) صحيح الأدب المفرد/ ٣٩٧.

الحرصُ على أدب الحديثِ؛ وذلكَ بجميلِ العبارةِ، فاللهُ يقول: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(١).

والاستماعُ بأدبِ الحديث دونَ مقاطعةٍ أو تسفيهٍ أو ازدِراء.

ومِنْ آدابِ الأخوةِ الصفحُ عنِ العثرةِ والتجاوزُ عن الزَّلَّةِ، فَمَنْ حاسَب إخوانَه عندَ كلِّ زلَّةٍ أمسى وأصبحَ ولا إخوان له، فكلُّ ابن آدم خطَّاءٌ، ومَنْ ذا الذي تُرْضى سَجَاياه كلها- كفى المرءَ نُبْلًا أن تُعدَّ معايبهُ، ومنْ آدابِ الأخوّةِ إحسانُ الظنِّ بالأخِ، وحمْلُه على المحاملِ الطَّيِّبةِ، فتلك تضيِّقُ مسالِكَ الشيطانِ وتُديمُ حبْلَ الودِّ.

ومِنْ هذه الآدابِ: إخبارُكَ لأخيكَ أنَّكَ تُحبُّهُ في الله، فذلك يُعمِّقُ الأخوَّة ويشيعُ المحبَّةَ ويزيدُ في الأُلفَةِ، وفي الهَدْي النبويِّ: «**إذا أحبَّ أحدُكُمْ أخاه في الله، فَلْيُعْلِمْهُ، فإنَّه أبْقى في الأُلفَةِ، وأَثْبتُ في المودّةِ**»(٢).

وفي لفظ: «**إذا أحبَّ أحدُكُمْ صاحِبَه فَلْيأتِهِ في منزِلِه، فليُخْبِرْه أنهُ يحِبُّهُ في الله**»(٣).

ومنْ آداب الأخوةِ: موافقة الصاحب لصاحبه في غير محرم - ولو كان ذلك مما لا يراه الأخ - فذلك سببٌ لبقاء الصحبة وتأكدها، وعكسه بعكسه.

ومن آداب الأخوةِ: المشاورُ والمناصَحة، والانبساط وحُسْنُ العشرةِ، والهديَّةُ والدعوةُ الصادقة، وحسن الطَّوِيَّة، والبعدُ عنْ كل ما يُنَغِّصُ المودةَ أو يقطعُ حبل الأخوة؛ تعفو إذا أخطأ عليك، وتَعْتذرُ حينَ يقعُ الخطأُ منكَ، وإياكَ

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٣.

(٢) صحيح الجامع (١/ ١٣٧).

(٣) صحيح الجامع (١/ ١٣٧).

أَنْ تبلُغَ في طلبك لهُ مبلغَ الإحراجِ، فلا يستطيعُ تلبيةَ طلبكَ ويستحي منْ مصارحَتِك، كُنْ أبِيًّا شَهْمًا، لَمَّاحًا أريبًا، تبذلُ حين تسأل، وتشكرُ حينَ تُعطي.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيم: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].



(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، كما ينبغي لجلالِ وجهِهِ وعظمةِ سلطانِهِ، وأشكرهُ على نعمِه وآلائه، وقدْ تأذَّنَ بالمزيدِ لمنْ شَكَره ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في ربوبيَّتِهِ وألوهِيَّته وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وأشهدُ أنْ محمدًا عبدُه ورسولُه الداعي إلى رضوانِه- اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليهِ وعلى آله وصَحْبه..

إخوةَ الإسلام: ولعِظَم حقوقِ المسلمِ على أخيهِ المسلم قالَ ﷺ: «**كلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِم حرامٌ؛ دمُه؛ ومالُه، وعِرْضُه**» وكانَ يتحدثُ للمسلمينَ بهذا ويخطبُ مذكرًا بهذه الحقوقِ في المجامعِ العظيمةِ كيومِ عرفةَ والنَّحْر.

أيها المسلمُ: وإذا عرفتَ فضائلَ الأخوّةِ، ومقاصِدَها، وحقوقَها وآدابَها، فبقيَ أنْ تعلمَ آفاتِ الأخوةِ وما يُفسدَها.

١- ومِنْ أوائلِ هذه الآفاتِ والمفسِداتِ للأخوةِ: الإخلالُ بحقوقِ الأخوةِ وعدمُ الاهتمامِ بآدابها؛ فحينَ لا تَنْصرُ أخاكَ ولا تَنصحُه ولا تحترمُه ولا تهتمُّ بشئونهِ، وتسيءُ التعامل معهُ بشكلٍ عام- فذلكَ مفسدٌ للأخوةِ قاطعٌ لحبل المودَّة.

٢- ومنْ مُفسداتِ الأخوةِ أنْ تكون شحيحًا بوقتكَ فلا تصلُه، وبخيلًا بمالِك فلا تساعِدُه، وكمْ تعجبُ حينَ تقرأ في «صحيحِ الأدبِ المُفْرِدِ» للبخاري: أن سَلْمانَ الفارسيَّ ﷺ زار أخاهُ في اللهِ أبا الدرداءِ، وجاءَ إليهِ منَ المدائِن إلى الشام ماشيًا[2]، وربما عجزَ أو تكاسلَ أحدُنا في زيارةِ أخيهِ

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) صحيح الأدب المفرد/ ١٣٩.

في البلدةِ الواحدة، ومعَ توفرِ السيارةِ الفاخرة.

٣- ومِنْ مُفسداتِ الأخوّةِ: الإفراطُ في المعاتَبةِ وكثرةُ اللَّوْم، والنظرُ إلى السلْبياتِ فيهِ دونَ الإيجابيات، وعدمُ الاعتذار عنه والتسامحِ معه، قالَ رجاءُ بنُ حَيْوَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (من لم يُؤاخِ إلا مَنْ لا عَيْبَ فيه قلَّ صديقُه، ومنْ لمْ يرضَ مِنْ صديقِه إلا بالإخلاصِ لَهُ دام سُخْطُه، ومنْ عاتبَ إخوانَهُ على كلِّ ذَنْبٍ كثُرَ عدوُّه)[1] وكَمْ نحتاجُ إلى مثلِ هذهِ الكلماتِ في التعاملِ معَ إخوانِنا.

٤- وسوءُ الظنِّ بالأخِ المسلمِ مفسدٌ للمودَّة، وكَمْ نسجَ الشيطانُ في عقلِ الإنسان أوهامًا عن أخيهِ المسلم، فهَجَرَهُ فترةً من الزمن أو وقعَ بَيْنه وبَيْنه من الخصومةِ ما اللهُ بهِ عليم، ثمَّ تبيَّنَ بعدَ حينٍ أنَّ هذا الظنَّ كاذبٌ، وأَنَّ هذا الهجرَ لا مُبرِّر له، فاحذَرْ أخي المسلم سوءَ الظنِّ- واحملْ إخوانَكَ على المحامِلِ الطيِّبة ما وجدتَ لذلكَ سبيلًا.

٥- ومنْ مفسداتِ الأخوةِ اقترافُ المعاصي والذنوب، ومِنْ هديِ النبوة: «**ما توادَّ اثنانِ في الله فيُفرَّقَ بينهما إلا بذنبٍ يحدِثُهُ أحدُهما**»[2].

٦- ومنْ مفسداتِ الأخوةِ: الحسدُ؛ فذاك داءُ الأمم، ومنْ باب أولى أن يكونَ داءَ الأفراد، وكمْ قطع الحسدُ مودة، وكَمْ نَغَّصَ مِنْ عيش، فتَعوَّذوا باللهِ مِنَ الحَسَد، واقرءوا معَ وِرْدِ الصباح والمساء: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[3].

٧- ومِنْ مفسداتِها الإفراطُ والغلوُّ في المحبَّةِ وكثرةُ المِزاحِ المفضيَةُ إلى

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٥٨).
(٢) رواهُ البخاريُّ في الأدب المفرد وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع الصغير ٥/١٣٩ ح٥٤٧٩.
(٣) سورة الفلق، الآية: ٥.

القَطيعةِ، وما زادَ عنِ الحدِّ انقلبَ إلى الضِّدِّ، وفي الحديث: «**أَحْبِبْ حبيبَكَ هَوْنًا ما، عَسَى أَنْ يكونَ بغيضَك يومًا ما، وابغِضْ بغيضَك هَوْنًا ما، عسى أَنْ يكون حبيبَك يومًا ما**»[(١)].

إلى غيرِ ذلكَ منْ مفسداتٍ للأخوةِ قدْ تعرفُها أيها الأخ، وتجدُها على صعيدِ الواقع.. والمقصودُ اجتنابُ كلِّ خُلُقٍ وعملٍ يؤدي إلى فسادِ ذات البَيْن بينَ الأخَويْن.. ذلكَ أنَّ قطيعةَ الأخويْنِ المسلمَيْن عظيمةٌ عندَ اللهِ وعندَ رسولهِ ﷺ، ويكفي تحذيرًا لذلكَ قولَهُ ﷺ: «**تُعرَضُ أعْمالُ الناسِ في كلِّ جمعةٍ مرتين؛ يومَ الاثنينِ ويومَ الخميس، فيُغفرُ لكلِّ عبدٍ مؤمنٍ إلا عَبْدًا بينَهُ وبينَ أخيهِ شَحْناءُ، فيُقال: اترُكوا هذينِ حتى يَفِيئا**»[(٢)].

وإياكَ -أخي المسلم- أنْ يغرَّكَ الشيطانُ فيقولَ لك: صاحبكَ هوَ المخطِئُ وهوَ الذي يتحملُ الإثمَ وحدَه الإثمَ وحدَه -فإنَّ صاحبَكَ يقولُ في نفسهِ كما تقولُ أنتَ- والرسولُ ﷺ حَكمٌ بينكما، وقدْ قال: «**وخيرُهما الذي يبدأ بالسلام**» فهلْ تكونُ الخيِّرُ أنتَ؟

إخوةَ الإسلام: إنَّ الأخوةَ الصادقة تحتاجُ- بشكلٍ عامٍ- إلى رحابةِ صَدْرِ وسعةِ عَطْفٍ، وبذلِ مالٍ وجاهٍ ووقتٍ، كما تحتاجُ قبلَ ذلكَ وبعدهُ إلى احتساب الأجر عندَ الله.. وحينَ يعي المسلمونَ حقوقَ الأخوةِ ويتمَثَّلوها في واقعهِمْ تنقلبُ مجتمعاتُهمْ إلى ميادينَ للحبِّ والوفاء، يُعانُ الضعيفُ ويُنصرُ المظلومُ، وتُكفكَفُ دموعُ اليتامى، ويُزار المرضى، ويُترَحَّمُ على الموتى، ويُواسَى المحزون.

---

(١) رواه الترمذيُّ وهو في «صحيح الجامع» ١٧٨.

(٢) رواه مسلمٌ عن أبي هريرة انظر: صحيح الجامع ٣/ ٢٩٥٥.

إن الحياةَ كَبَدٌ، فاسقوها بسلسبيلِ الأخوةِ .. والحياةُ غرورٌ زائلٌ فمدُّوها بحبالِ الأخوةِ إلى رحابِ الآخرة، نعم، إن رعاية حقوق الأخوة تحقق السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة .. فهلْ بعدَ هذا منْ جزاءٍ، ألا كمْ تغيبُ هذهِ المعاني الحاصلةُ من الأخوةِ الإسلاميةِ عن المجتمعاتِ الأخرى التي لا تسْتظلُّ بظلِّ الإسلامِ ولا تهتدي بنور القرآنِ والإيمان..

فلنكنْ -معاشرَ المسلمينَ- نماذجَ تضيءُ في هذا الكونِ بأخوتنا الصادقة..

بدلَ أنْ تغْدو الحياةُ تهاوُشًا وظلمًا وعُدوانًا، وقطيعةً وشحناءَ.



عظمةُ الخالقِ في خَلْقِه[١]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، لهُ الكبرياءُ في السماواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم، وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾[٢]، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣].

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه وخِيرَتُه منْ خلقِه، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

أيها المسلمون: الكونُ كلُّه بمخلوقاتِه العظمى، وبأحيائه مِنَ الإنسِ والجنِّ والحيوانِ والطيرِ، وبجَماداتِهِ مِنَ الشَّجرِ والحجَرِ والماءِ والزروعِ والثمار، وعالَمُ السماءِ بما فيها منْ ملائكةٍ غلاظٍ أشداءَ، وأحياءَ أخرى كلُّ ذلك برهانٌ على عظمةِ الخالقِ، فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين.

إخوةَ الإيمان: والقرآنُ الكريمُ -لمَنْ تأمَّلَ- يأخُذُنا في جولاتٍ تُعمِّقُ الإيمانَ وتزيدُ في اليقين، نرتادُ آفاقَ السماءَ، ونجولُ في جنَباتِ الأرض، تَقِفُ بنا آياتُ القرآنِ الكريمِ عندَ زهراتِ الحقولِ وجنانِ الأرض، ثم تصعدُ بنا إلى النجومِ في مداراتها وتَسْبحُ بنا عالمِ البحارِ بأعماقِها ومخلوقَاتها، ثمَّ تطوفُ بنا حولَ أنفسِنا وعظيمِ خلْقِها ودقَّةِ تكوينها؛ مشعرةً إيانا بعظمةِ الله وعبوديةِ الكون له.

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢/ ٥/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

إنهُ حديثٌ طويلٌ في كتابِ اللهِ يُطالِعُكَ في طِوال السُّوَرِ وقصارِها حديثٌ تنْصِتُ له النفوسُ وتخشَعُ له القلوب، يستثيرُ المشاعرَ الحيَّةَ وتستجيبُ له الأحاسيسُ المؤمنة.

كيفَ لا، وفَلْقُ الحبَّةِ والنَّوى، وإخراج الميِّتِ مِنَ الحيِّ وعكسُه، وفَلْقُ الإصباحِ وسكنُ الليل، وحُسْبانُ الشمسِ والقَمَر.. كلُّ ذلكَ يَردُ في أقْصرِ عبارةٍ وأبلغِها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(١).

يا أهلَ القرآنِ: وإذا تفاخرتِ الأممُ بأبحاثِها في الفَضاء، وتوصَّلَ باحثوها إلى نتائجَ تَحْتملُ الصحةَ والخطأ، فَدونكُم القُرآنَ يُحدِّثُكُم العليمُ الحكيمُ عن مشهدِ السحابِ كيفَ يصنعه الله، وعن المطر كيفَ يؤلفه الله، وعن البَرَدِ كيفَ يكوِّنُهُ الله، ومَنْ يُصابُ به ومن يُصرَفُ عنه، وعَنْ سَنَا بَرْقِهِ وأثرِهِ في الأبْصَار.. استمعْ إلى ذلكَ متأمِّلًا خاشعًا لله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾(٢)، ومِنْ سحابِ السماءِ إلى سحابِ البحار، ومنْ برْقِ السماءِ الخاطفِ، إلى ظلماتِ البحارِ ولُجِّها ومَوْجِها يأخُذُكَ القرآنُ مُذكِّرًا وهادِيًا: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٩٥- ٩٦.

(٢) سورة النور، الآية: ٤٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٤٠.

يا أخا الإسلام: وهلْ رفعتَ بصَرَكَ إلى السماء فتتفكَّرَ في خلق الله، فمَنْ رفَعَ السماءَ بلا عَمَدٍ؟ وكَمْ فيها مِنْ مَلَكٍ راكعٍ لله أو ساجد؟

روى ابنُ مردويه عَنْ أنسٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «**أَطَّتِ السَّماءُ ويحقُّ لها أَنْ تَئِطَّ، والذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ ما فيها مَوْضعُ شِبْرٍ إلا وفيه جَبْهَةُ مَلَكٍ ساجدٍ يُسبِّحُ اللهَ بحَمْدِه**»(١).

والأَطيطُ: صَوْتُ الأَقْتابِ، وأَطِيطُ الإبلِ: أصواتُها وحَنِينُها، والمعنى: إنَّ كثْرَةَ ما في السماءِ منَ الملائكةِ أثقَلَها حتى أطَّت، والمرادُ: تقريرُ عظمةِ اللهِ تعالى(٢).

فكيفَ إذا تصورتَ عِظَمَ خلْقِ السماواتِ والأرْض، واللهُ يقول: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾(٣)

وكيفَ إذا تصورتَ أبعادَ السماواتِ عنْ بعضِها، وفي الحديثِ الذي رواهُ ابنُ خزيمةَ والبيهقيُّ وصحَّحُه ابنُ القيِّم، عنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**بَيْنَ السماءِ الدنيا والتي تَلِيها خَمْسُ مائة عامٍ، وبَيْنَ كلِّ سَماءٍ وسماءٍ خَمْسُ مائة عامٍ، وبينَ السماءِ السابِعَةِ والكرسيِّ خَمْسُ مائة عام، وبَيْنَ الكرسيِّ والماءِ خَمْسُ مائة عام، والعرشُ فوق الماءِ، واللهُ فوقَ العَرْش، لا يَخْفى عليه شيءٌ من أَعْمالِكم**»(٤).

يا عبدَ الله: والملائكةُ- في السماءِ- خَلْقٌ عَجيبٌ، ومنهمُ الموَكَّلُ بحَمْلِ

(١) صحيح الجامع الصغير ١/ ٣٤٠.
(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث ١/ ٥٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥٧.
(٤) الهاملي، الإيمان بالخالق وأثره في سعادة الخلائق/ ٨.

العَرْشِ، ومنهمْ خَزنَةُ النَّار، ومِنْهُم الموَكَّلُ بقبض الأرواح، ومنهمْ الموَكَّل بالعذاب، ومِنهمْ ومِنهم. . وكلُّهم لا يَعْصونَ اللهَ ما أمَرَهُم ويفعَلون ما يُؤمرون، وحينَ تَسْمعُ عَنْ حَمَلةِ العَرْش، قولَهُ تَعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[1].

فاسمعْ إلى عظمةِ خَلْقِ هؤلاءِ في خَبَر الذي لا يَنْطِقُ عن الهَوى، إذ يقولُ ﷺ: «**أُذِنَ لي أَنْ أُحدِّثَ عن مَلَكٍ مِنْ ملائِكَةِ اللهِ تعالى مِنْ حملةِ العرْش، إنَّ ما بَيْنَ شَحْمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه سبْعُ مئةِ سنةٍ**»[2].

أيها الناسُ: وهناكَ مشاهدُ كونيةٌ يراها الناسُ بأعينهمْ تتكررُ في الصباحِ والمساء، وهيَ جزءٌ منْ عظمةِ اللهِ في كونه- وآيةٌ على وحدانيتهِ وداعيةٌ إلى العبوديةِ والشكرِ له سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

نعم، إنَّ الحياةَ معجزةٌ لا تملكُ يدُ البشرِ أنْ تُجريَها، إنما هيَ يدُ اللهِ تُجري المعجزاتِ، وتبثُّ روحَ الحياةِ في المواتِ، فإذا الجنانُ الوارفةُ، والثمرُ اليانع -يُسقى بماءٍ واحد ويختلفُ في أكلِهِ وطعمِه-، الخالقُ واحدٌ، والمخلوقُ متنوعٌ؛ ذكرٌ وأنثى، حلوٌ وحامضٌ، رطبٌ ويابسٌ، أبيضُ، وأحمرُ، وغرابيبُ سود، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[4]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[5]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

(٢) رواه أبو داود، عون المعبود ٤٧١٢، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٥١.

(٣) سورة يس، الآيات: ٣٣- ٣٦.

(٤) سورة يس، الآية: ٣٦.

(٥) سورة الملك، الآية: ١٤.

ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).

عبادَ الله: أمَّا مشهد قدومِ الليل، والنورُ يختفي والظلمةُ تغشى فمشهدٌ مكررٌ يراه الناسُ كلَّ يومٍ وفي كل بقعةٍ- ما عدا مناطقَ قطبيةٍ قد يدومُ فيها الليلُ أسابيعَ وأشهرًا- أو يدومُ فيها النهارُ كذلك.

إنها آيةٌ ما أكثرَ منْ يراها وما أقلَّ منْ يتأمل عظمةَ اللهِ من خلالها!

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٢).

يا أخا الإيمانِ: وحينَ تتصورُ حجمَ الشمسِ ثمَّ تدركُ كيف تجري، تدركُ بعدَ ذلك عظمةَ اللهِ في تيسيرِ هذه الكُتلةِ العظيمةِ التي قيلِ أنها تبلغُ نحوَ مليون ضعفٍ لحجمِ الأرضِ التي نعيشُ عليها، وهذه الشمسُ بضخامتها تسيرُ بسرعةٍ حسبَها الفلكيونَ فقدَّروها باثني عشرَ ميلًا في الثانية، وهذا يعني أنها تقطعُ في الدقيقةِ الواحدةِ سبعَ مئةٍ وعشرين ميلًا..

فكمْ تسيرُ في الساعةِ، وكمْ تقطعُ في اليومِ والليلة؟!

فمنْ يسيِّرُها ومنْ يضبطُ حركَتَها؟ إنهُ اللهُ العليمُ القدير.

إننا حينَ ندركُ هذا الخلقَ العظيمَ للشمس، وهذه الحركةَ المنضبطةَ في الكونِ وتصريفَ الليلِ والنهارِ، ندركُ طرفًا من قدرةِ اللهِ فيما خلق، وندركُ ضعفَنا وعجزَنا من خلقِ الله، ومن ثَمَّ نعلمُ حاجَتنا إلى عبوديةِ ربنا وشكره ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦.

(٢) سورة يس، الآيات: ٣٧- ٤٠.

تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

اللهمَّ اجعلْنا لكَ ذاكرينَ شاكرين، ولا تجعلْنا منَ الغافلين.



(١) سورة القصص، الآيات ٧١- ٧٣.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[١].

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، جاعلُ الملائكةِ رسلًا أولي أجنحةٍ مثنى وثلاثَ ورباعَ، يزيدُ في الخلقِ ما يشاءُ إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، كان أكثرَ الناس علْمًا وأحسنَهم عملًا وأكثرَهم لله خشيةً وعليهِ نزَّل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٢].

أمةَ القرآنِ: وعجائبُ القرآنِ لا تنقضي في عرْضِ دلائلِ الإيمانِ في الكونِ والأنفسِ والآفاق، والدعوةُ قائمةٌ للتأملِ والتفكيرِ في السماءِ والأرض: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

وفي الأنفس وخلقِها وتقويمِها: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[٤].

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٥].

وفي الحيواناتِ وعظيمِ خَلْقِها: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[٦].

وفي الطيرِ وكيفَ يسبحُ في جوِّ السماء ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ

---

(١) سورة الملك، الآيات: ٢- ٤.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٤) سورة الطور، الآية: ٣٥.

(٥) سورة الذاريات، الآية: ٢١.

(٦) سورة الغاشية، الآية: ١٧.

﴿ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ﴾[١]، وإلى الأنعام وكيفَ تُستخرجُ ألبانها: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةٗۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[٢].

أما النحلُ فآيةٌ في خلقِها وتدبيرِها وما يخرجُ منْ بطونِها: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

وفي «شفاءِ العليل» (ص١٠١) لابن القيم رحمه الله كلامٌ طويلٌ وتفصيلٌ في هدايةِ اللهِ للنحل، وعالمِ النحل، ومملكةِ النحل وأعاجيبها!

ومنْ أمةِ النحلِ إلى أمةِ النمل؛ حيثُ كشفَ اللهُ سرًا من أسرارِهِ وهدايته للنملِ في خبرِ سليمانَ عليه السلام، يكفي منها آيةٌ، قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٤].

وبالجملةِ فربُّنا تباركَ وتعالى ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٥]، وفوقَ ذلكَ ألهَمَ مخلوقاتهِ العبوديةَ له والتسبيحَ بحمدِه وإنْ كنا لا نفقَهُ تسبيحَهم.

أجل، ما أجهلَكَ يا ابنَ آدم، وما أظلَمَك حينَ تشذُّ عنِ العبوديةِ لله، وغيرُك يُسبحُ بحمدِ الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾[٦].

يا ابنَ آدم، اصطفاكَ ربُّك وأكرَمَك، وعلَّمكَ ما لم يُعلِّمْ غيرك، أفلا تشكرُ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٦٩.

(٤) سورة النمل، الآية: ١٨.

(٥) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

وتذكرُ وتُنيبُ وتُسلِمُ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾(١).

لقدْ عُرضتِ الأمانةُ على السماواتِ والأرضِ فأبيْنَ أنْ يحملْنَها وأشفقْنَ منها.. وحملتَها أنتَ.. أفلا تفي بعهدِك مع الله؟ أفنيستَ الميثاقَ؟ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(٢).

عجبًا لكَ يا ابنَ آدم حين تعصي ربَّكَ وغيرُكَ يطيعه، وتفجرُ وتفسقُ وغيرُك يركعُ ويسجد.

يا ابنَ آدم، خلقك اللهُ في أحسنِ تقويم، ضمِنَ رزقَك، وأحصى أجلَك وما يريدُ منك إلا عبادتهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾(٣) أفتستنكِفُ وتستكبرُ عن العبوديةِ لله.. وكلُّ منْ في الكونِ عبدٌ لله؟

إنكَ بينَ خياريْن؛ فإما أنْ تكونَ عبدًا لله- وهو يستحقُ العبوديةَ ويجزي عليها- وإما أن تكونَ عبدًا لغيرِه منَ الأهواءِ والشهواتِ والمعبوداتِ، فتلكَ الشِّقْوةُ في الدنيا والخسرانُ المبينُ في الآخرة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٣) سورة الذاريات، الآيات: ٥٦- ٥٨.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

يا أخا الإسلام: إنكَ تستطيعُ تحقيقَ العبوديةِ للهِ على كل حالٍ من أحوالِك وفي كلِّ شأنٍ من شئونك، تحققُّ العبوديةَ للهِ في المسجدِ وفي بيتِك، وتحققُّ العبوديةَ للهِ في متجرك أو وظيفتك، تحققُّ العبوديةَ للهِ في حضَرِكَ وسفرِكَ، وتحققُّ العبوديةَ في علاقتكَ مع ربكَ وحُسنِ خُلُقكَ مع الناسِ منْ حولِكَ.

إنكَ خُلقتَ وهُيِّئتَ منْ أجلِ أن تكونَ خليفةً في الأرضِ تعمُرُها بذكرِ الله، وتحرثُ الأرضَ فيكونُ المحصولُ غذاءً للناسِ لِيَتَقوَّوْا به على طاعةِ الله، وتتخذُ مصانعَ لتنتجَ من الآلياتِ والسلاحِ ما يُستعانُ به على تحقيقِ الدَّنيوية لله، لا من أجلِ أن يكونَ سلاحًا يُدمرَ البشريةَ ويهلكَ الحرثَ والنسل، تتعلمُ العلمَ ليكونَ دليلَكَ إلى اللهِ وليقودَكَ إلى الإيمانِ بالله.. فالعلمُ الحقُّ يدعو للإيمان..

إنَّ البشريةَ حينَ تضلُّ في مسارها عنِ العبوديةِ للهِ تغدو الحياةُ مسرحًا تتهارشُ فيها الذئاب، وتتصارعُ فيها القوى، فلا ينتصرُ الأقوى حتى يدمرَ مَنْ دونَهُ من الضعفاء.. أفبهذا يُعمَّرُ الكونُ.. وهل تُحقَّقُ العبوديةُ للهِ بهذا اللونِ من الظلم؟

إنَّ على المسلمينَ الذينَ يقرأونَ القرآنَ فيجدونَ فيه تسبيحَ الكونِ بأحيائهِ وجماداتهِ للهِ.. عليهم أنْ يدركوا هذه الحقائقَ وأنْ يصلحوا ذواتِ أنفسِهم، ثم ينتقلوا بالإصلاحِ والدعوةِ إلى أممٍ أخرى بلغَتْ من العلمِ الماديِّ والحضارةِ والتقنيةِ مبلغًا عظيمًا.. لكنها أميةٌ في تحقيقِ العبوديةِ لله، وضالةٌ أو مغضوبٌ عليها بسببِ تجاهلِها لرسالاتِ السماء، ألا فابدأ بنفسِك أيها المسلم، وتأملْ هذا الكونَ ومنْ خَلقَهُ ولماذا خَلَقَه؟ وستجدُ الجوابَ في مثلِ قولهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات ١٦- ١٨.

وفي مثلِ قولهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾(١).

وفي مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(٢).

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾(٣).

أخي المسلم: وبقيتْ همسةٌ في أذنِك.. هل تقرأُ القرآنَ، وما وِرْدُكَ فيه؟ وإذا قرأتَ، هل تتأملُ هذه المعانيَ وأمثالَها في القرآن، إني أعظُكَ ونفسي أنْ تكونَ ممنْ قالَ الرسولُ ﷺ عنهم، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾(٤).. فإياكَ وهجرَ القرآنِ.. تلاوةً أو تدبرًا أو علْمًا أو عمَلًا؟



(١) سورة الحجر، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الملك، الآية: ٢.

(٣) سورة ص، الآيتان: ٢٧- ٢٨.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

مظاهرُ صيفية[1]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه ونعوذ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومَنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولهُ، اللهمَّ صلِّ وسلم عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عنْ الصحابةِ أجمعين، والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدين وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

أيها الناسُ: في مواسمِ الإجازات تنشأُ ظواهرُ، وتطرأُ عوائدُ حريةٌ بالتنبيهِ والبيان، فالفراغُ نعمةٌ ولكنْ له ضريبة، والصحةُ نعمةٌ ولكن لها ضريبةٌ لمنْ لم يُقدرها حقَّ قدرِها.. ولهذا قالَ عليهِ الصلاةُ والسلام: «**نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ الناس: الصحةُ والفراغ**»[2].

وحينَ أتحدثُ إليكمْ عن بعضِ هذهِ الظواهرِ أخاطب نفسي وإياكُم وأتحدثُ إلى الوليِّ والشاب، والرجلِ والمرأة، إنهُ حديثٌ إلينا جميعًا ليصلِحَ كلٌّ واحدٍ منا ما يوجد عنده من أخطاء.

عباد الله: وأولُ هذه الظواهرِ الصيفيةِ ظاهرةُ السهر إلى ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل، وحين تسألُ عنِ الوقتِ الذي يُقضى فيه السهرُ لا ترى فائدةً تُذكر، بلْ غالبًا على القيلِ والقال، والأكلِ والشربِ والضحك.. وأسوءُ منْ ذلكَ إن كانَ السهرُ على مسلسلاتٍ هابطة، أو جولاتٍ في زُبالاتِ القنواتِ الفضائية، ومِنَ

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٩/ ٥/ ١٤٢٣هـ.

(٢) رواه البخاري والترمذي وغيرُهما. صحيح الجامع الصغير ٦/ ٣٢.

الناسِ مَنْ يقضي ليلَهُ كلَّه متنقلًا بين الحدائق، أو متسكِّعًا في الشوارعِ أو عابثًا في السيارةِ على الخطوطِ الدائريةِ والطرقِ السريعة!

إنَّ استدامةَ السهرِ ليلًا ضارٌّ بالصحةِ كما يعرفُ الأطباءُ، وقبلَ ذلكَ مقررٌ في شرعِ اللهِ أنَّ الليلَ سَكَنٌ، بلْ منْ رحمةِ اللهِ أنْ جعلَ لكمُ الليلَ لتسكنوا فيه، والنهارَ معاشًا، لتبتغوا مِنْ فضله، فهلْ تُعكسُ الصورة؟ ومهما طالَ نومُ النهارِ فلا يُعَوِّضُ عنْ نومِ الليل، وكمْ يفوّتُ النائمُ نهارًا على نفسِهِ من المصالح.. وكمْ يخسرُ المجتمعُ من طاقةٍ كان لها أن تعملَ وتنتِجَ في سحابةِ النهار.. أمّا إنْ فوَّت النائمُ نهارًا شيئًا من الصلواتِ المفروضةِ فتلك خسارةُ الدينِ والدنيا..

أما السهرُ ليلًا فهوَ كذلكَ سببٌ لكثيرٍ مِنَ الحوادثِ والبلايا، إذْ إنَّ نفرًا مِنْ ضِعافِ النفوسِ ربما استغلوا سوادَ الليل وغفلة الناسِ فأفسدوا وجَنَوْا على أنفسهم وعلى مجتمعهم.. وسلُوا رجالَ الأمنِ والهيئاتِ عن نِسَب الجرائمِ ليلًا.. أما إنْ كان السهرُ سببًا في تركِ صلاةِ الفجرِ فالطامّةُ كبرى وأولئك أقوامٌ بالَ الشيطانُ في أفواهِهم وآذانهم.

عبادَ الله: ظاهرةُ السهر -دون فائدة- مسئوليتُنا جميعًا، وتحتاجُ منا إلى تعاونٍ يقضي، أو على الأقلِّ يُخففُ من آثارِ هذهِ الظاهرةِ، فالجهاتُ الرسميةُ يمكنُ أن تنظمَ أوقاتَ فتحِ المحلاتِ في ساعةٍ معينةٍ مِنَ الليل، وإذا كانَ هذا معمولًا به في بلادٍ لا تقيمُ للشرعِ وزْنًا، فهو أحرى وأولى بأهلِ الشريعةِ ومن يَرعون الأمنَ، ويوفِّرون العيشَ الهنيَّ، والأولياءُ لا بدَّ أنْ يُسهِموا- بحكم ولايَتِهم على بيوتهم بالقضاءِ على هذهِ العادةِ السيئة، والمربُّون والمعلمونَ لا بدَّ أنْ يتحدثوا عن مخاطرِ السهرِ، ووسائلُ الإعلامِ لا بدَّ أنْ تُعنى في برامجِها وزواياها ومقابلاتها بدراسةِ هذه الظاهرةِ وعلاجِها.

والشبابُ والفتياتُ لا بد أنْ يَسألوا أنفسَهم عن حصادِ السهرِ، ماذا حققَّ

لهم، بل وماذا فوتّ عليهم... إنْ في مصالحِ الدينِ أو الدنيا، أو كليهما؟

إنها ظاهرةٌ تستشري وتؤذي، وتشكلُ خطرًا أمنيًا، وتخلِّفُ آثارًا في الصحةِ والأخلاق، والاقتصاد، والعوائدِ الاجتماعية، وهي سبيلٌ لفناءِ الأوقاتِ وإضاعةِ الزمن ومنْ وراء ذلك ضياعُ الشباب.. فهل ننتبهُ ونسارعُ للعلاج؟

أيها المسلمون: وثاني هذهِ المظاهرِ ما ابتُليتْ به بعضُ العوائلِ من كثرةِ الترددِ على الحدائق، وبعضُ الأولياءِ يبلغُ بِهِ التغفيلُ أو اللامبالاةُ بمصير عائلتِهِ، بحيثُ يرميهمْ في هذهِ الحديقةِ ويذهبُ لشأنه، وربما قَضى شطرًا من الليلِ ساهرًا مع شِلَلِه، أو نائمًا في فراشِه موكَّلًا لأحدِ أبنائه أو السائقِ بالمرور عليهم في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، وهناكَ في الحدائقِ تتجول الفتياتُ المراهقاتُ في طولِ الحديقة وعرضِها، وربما تعرَّضَ لها شبابٌ مستهترون فآذوهنَّ أو عقدوا صلاتٍ معهنَّ، وربما رموا بأرقامٍ هاتفيةٍ عليهنَّ فكانت البدايةُ لصلاتٍ مشبوهة، وعلى أقلِّ تقديرٍ ربما كانتِ الحديقةُ سببًا لعقدِ صِلاتٍ مع فتياتٍ مستهتراتٍ.. فكانت البداية للانحرافِ عبرَ هدايا للصورِ الخليعةِ، أو الأشرطةِ الماجنةِ أو التعريفِ على أصدقاءِ سوءٍ، أو نحوِ ذلك من أمورٍ لا تُحمدُ عقباها.. فأينَ أنتَ أيها الولي.. أبلَغَ بكَ الاهتمامُ بأسرتِكَ هذا المبلَغ؟ أم بلَغَ بك التغفيلُ والبساطةُ هذا المستوى؟ إنَّ الأسرةَ أمانةٌ في عنقِكَ، وكمْ تتحملُ منْ عارٍ- لا قدَّرَ الله- لو حصلَتْ في بيتك أو لأحدِ أفرادِ أسرتكَ كارثةٌ.. وأنتَ سببٌ فيها.. ألا إنَّ الوقايةَ خيرٌ من العلاج، والسلامةُ لا يعدِلُها شيءٌ، وكنْ فطِنًا حذِرًا، ومن يتقِ اللهَ يجعلْ لهُ مخرجًا.

أيها الناس: أما الظاهرةُ الثالثةُ فهيَ كثرةُ ترددِ النساءِ على الخياطينَ، سواءً كانت وحدَها، أو بصحبةِ وليِّها- الذي يكتفي أحيانًا بإيصالها، ثم يمكثُ في سيارتِهِ تاركًا المرأةَ تتحدثُ وتتفاوضُ معَ الرجلِ، دونَ أنْ يُشاركَها في الوقوفِ

والحديث.. وبحجةِ أنَّ هذهِ أمورٌ تخصُّ المرأة، وينسى هذا الرجلُ أنَّ وقوفَهُ مع زوجتِهِ شرفٌ له وكرامة، وحفظٌ لمحرَمِهِ، لا سيما أنَّ بعضَ النساءِ تتسامحُ في المزاحِ معَ الخياط.. ولربما أظهرتْ مِنْ مفاتِنِها عندَه ما يكفي لشيوعِ المنكرِ وإثارةِ الغرائز! فكيفَ الحالُ إذا أعطتهُ المرأةُ رقمًا خاصًا- هاتفًا أو جوالًا- يُكلمُها عليهِ للاستفسارِ عنْ أيِّ شيء! أو أعطاها هو رقمًا خاصًا تكلمُهُ عليهِ للاستفسارِ عنْ أيِّ شيء! أو أعطاها «البُردات» والصورَ الخاصةَ بالموديلات لتطلعَ عليها ثم تُكلمهُ وحدَها منْ بيتها.. إنها وسائلُ تفضي للفساد وتدعو للفتنةِ، ومهما كانت الثقةُ بالمرأة- وهي أهلٌ لذلك- فقطْعُ دابرِ الفتنةِ أولى، والتحوّطُ لحمايةِ الفضيلةِ وحراستِها أحرى، وإذا قيلَ هذا عنْ مشاغلِ الرجالِ قيلَ كذلكَ في الاحتياطِ منْ مشاغلِ النساء، لا سيما تلكَ التي تتوفرُ بها نساءٌ كافراتٌ.. أو مسلماتٌ مستهترات.

إنها أمورٌ بُلينا بها جميعًا.. فلا أقلَّ مِنْ أنْ نحتاطَ وننتبهَ ونفعلَ الأسبابَ.

أيها المسلمون: أما الظاهرةُ الرابعةُ فهي ترددُ بعضِ النساءِ- هداهنَّ اللهُ- على الأسواقِ والمحلات، وفي ساعاتِ الليلِ والنهار، وهناكَ لا تسألْ عن ابتزازِ الأموال، وعنِ التسامحِ بالحجاب، وتبادل الضحكاتِ والمزاحِ، ولربما انفردَ البائعُ بالمرأةِ وحدَها في المعرض؟ وما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلا كانَ الشيطانُ ثالثهُما، وثمَّةَ ذئابٌ تتسلقُ وبمهارةٍ أبوابَ الفضيلة، وتهتكُ الحياءَ، وتتطاولُ على القِيَم، فهلْ ترضي أيها الوليُّ لأحدٍ منْ أهلِك أن تُسرق أخلاقُه معَ سرقةِ ماله؟ هلْ يكفيكَ أنْ تُوصلَ أهلَكَ إلى السوقِ ثم تتفقُ معهمْ على موعدٍ للعودة؟ وهلْ تدري ما يجري لهم؟ ومهما بلغتْ مشاغلُك وحرصُك على وقتِكَ، أفيكونُ ذلك عندكَ أهمَّ منْ حرصكَ على جاهِكَ وشرفِك؟

إنَّ أمورًا نسمعُها منْ بعضِ النساءِ وبعضِ الباعةِ في الأسواق، تُدمي القلبَ

فهلِ اتعظتَ بغيرك؟ وهلْ أشعرتَ أهلكَ بمخاطرِ الترددِ على الأسواقِ بشكلٍ عام، وضرورةِ مصاحبتكَ أو أحدِ أبنائِكَ لهم عندَ الاقتضاء؟ إنّ بعضَ الأولياء- هداهمُ الله- يُعطي المرأةَ مِنَ المالِ ما تحتاجُهُ وما لا تحتاجه، وبالتالي فهيَ تشتري مِنَ السوقِ ما تحتاجُ وما لا تحتاج، وهذهِ الأموالُ الواردةُ للمرأةِ دونَ تعب، يستغلها بعضُ الباعةِ أبشعَ استغلالٍ؛ فيزيدُ في ثمنِ السلعةِ، ولكن الأسوءَ منْ ذلكَ حينَ يُدغدغُ باعةٌ مستهترون مشاعرَ المرأةِ، فتنشأُ علاقاتٌ ربما تطورتْ إلى الأسوءِ مستقبلًا، والوليُّ عنْ كلٍّ هذا غافلٌ حتى تحصلَ فواجعُ ومشاكلُ، وحينها يكونُ الندمُ والتحسُّر.



الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ أهلِ المجد والثناء ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[١] وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريك له، أمرَنا بالبرِّ والإحسانِ والوقايةِ للنفسِ والأهلِ منْ مكايدِ الشيطان، ونهانا عن الفُحشِ والبذاءِ وهتكِ حدودِ الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢]، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، دعا الأمةَ إلى كلِّ خيرٍ وحذَّرها منْ كلِّ شر، وأخبرَ- وهو الصادقُ المصدوقُ- أنَّ أولَ فتنةِ بني إسرائيل كانتْ في النساء، وأخبرَ- وخبرهُ الصدقُ واليقين- فقال: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ منَ النساء**».

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليهِ وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين.

إخوة الإسلام: وخامسُ المخاطرِ: السفرُ بلا ضوابط، ولا سيما إلى بلادِ الكفرِ والعهر، وبصحبةِ النساءِ والذرية، وهناكَ لا تسألْ عنْ وأدِ الفضيلةِ واختزالِ الحياء، وإضاعةِ الأوقاتِ والتفريطِ بالواجبات، ولئنْ كان ثمةَ ابتزازٌ بشعٌ للأموالِ فأعظمُ من ذلكَ ابتزازُ القيمِ والأخلاق، والتعرضُ لمخاطرَ أمنيةٍ لا مسوّغَ لها، وفي طولِ بلادِنا وعرضِها تتوفرُ الجبالُ والسهولُ والبرُ والبحرُ والأجواءُ الباردةُ والمعتدلة، وأعظمُ منْ ذلكَ توفرُ الأجواءِ الإيمانيةِ حيثُ البقاعُ المقدسةُ والحرمان الشريفان، مهوى الأفئدة، ومنيةُ المسلمين للزيارةِ في كلِّ مكان..

إنَّ نفرًا منَ الناسِ باتَ السفرُ عندَهم- لعوائِلهم- للخارجِ وسيلةً للفخرِ والمباهاة، وآخرينَ أصبحَ السفرُ عندهمْ فرصةً للانطلاقِ دون رقيبٍ أو حسيب،

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

فيقَعون في الشهواتِ ما شائوا، وما ربُّكَ بغافلٍ عما يعملون.

وآخرونَ يترخَّصون بكلِّ رخصةٍ، وربما تزوَّجوا وطلَّقوا دونما حاجةٍ، وربما خلَّفَ الزواجُ مشاكلَ لا يأبهونَ بها، وربما شوَّهوا صورةَ الإسلامِ منْ حيْثُ يشعرون أو لا يشعرون!

وفئةٌ من الخيِّرين ربما سافروا بهدفِ الدعوةِ، لكنهم حين وَصَلوا شُغلوا بالمظاهرِ السياحيةِ الأخرى، فلمْ يكنْ للدعوةِ نصيبٌ إلا في نواياهم الأولى.

أيها المسلمون: وحين نُعدِّدُ مظاهرَ سلبيةً تحصلُ بشكلٍ أوضحَ في الإجازةِ ونهدفُ إلى التحذيرِ مِنْ مخاطِرها.. وحمايةِ البيوتِ والمجتمعِ مِنْ آثارِها وويلاتِها.. فلا ينبغي أن نغفلَ عنْ ذكرِ مظاهرَ حسنةٍ- تحدثُ بشكلٍ أوضحَ في الإجازةِ أيضًا- وهذهِ المظاهرُ الحسنةُ نذكرُها لنتحدثَ بنعمةِ اللهِ من جانب ولنشجعَ على كثرتِها منْ جانبٍ آخر.

وثمة سفريات محترمة، ومسافرون ملتزمون بإسلامهم أينما حلوا أو ارتحلوا، ولوحة صادقة لبلادهم أينما اتجهوا، ما أجمل السفر لأداء العمرة أو لأحد مصايفنا الجميلة أو حيث نستنشق عليل البحر، مع استشعار عظمة الله فيما خلق والمحافظة على الخلق الإسلامي حيثما حلّ المسافر وارتحل.

ومنْ هذهِ المظاهرِ الحسنةِ الدوراتُ العلميةُ وفي مختلفِ التخصصات، فدوراتٌ متقدمةٌ، وأخرى مُركَّزة، وثالثةٌ للمبتدئينَ وهكذا.. وفي كلِّ دورةٍ تجدُ بحمدِ الله أعدادًا من طلبةِ العلمِ يتنافسون في الحضورِ والتحضيرِ والحفظِ والتسميع.

بلْ بِتْنا نسمعُ مؤخرًا عنْ دوراتٍ لحفظِ القرآنِ الكريمِ كاملًا وفي مدةٍ لا تتجاوزُ الشهرين، ومهما كانَ الأمرُ صعبًا في هذهِ المدةِ لحفظِ القرآنِ كاملًا فهيَ

مؤشرةٌ للهممِ العاليةِ والتوفرِ لحفظِ كتاب الله، وبإمكانِ أصحابِ الدورةِ أنْ يقوِّموا نتائجَ الدورةِ ومدى تحقيقِ الهدفِ منها.

ونسمعُ كذلك- عنْ حفظِ «الصحيحين» في دوراتٍ لا تزيدُ مدتُها عنْ سبعينَ يومًا، وهي في هذا العامِ تطبقُ لعامِها الثاني، وهذه كذلكَ مهما كانتْ مكلِفةً للطلابِ فهيَ الأخرى نموذجٌ لعلوِّ الهِمَمِ والعنايةِ بحفظِ السُّنةِ، وعلى القائمينَ عليها أنْ يقوِّموا التجربةَ ويستفيدوا مِنْ ذلكَ لمستقبلِ الأيام، وأجرُهمْ على الله.

ومنَ المظاهرِ الحسنةِ انتشارُ المراكزِ الصيفيةِ هنا وهناك، تلكَ التي تضمُّ مجموعاتٍ مِنَ الشباب، تصقلُ مواهبَهم وتحفظُ أوقاتَهم، وتعلِّمُهم وتُرَبِّيهم، وجزى اللهُ الجهاتِ المسئولةَ والعاملينَ عليها- كلَّ خير.

ومن المظاهرِ الحسنةِ للفتيات الدورُ النسائيةُ، تلكَ التي يمتدُّ نشاطُها في الصيف، وتُعني بكتابِ الله وما يخدمُهُ من علمٍ وآدابٍ وسلوكياتٍ حسنةٍ أحوجُ ما تكونُ إليها بناتُنا- وجزى الله الجهاتِ المشرفةَ والعاملاتِ فيها كلَّ خير.

وإذا كانتْ تلكَ مظاهرَ حسنةً ومعلنةً فلا شكَّ أنَّ هناكَ مظاهرُ حسنةٌ وغيرُ معلنةٍ يقوم بها أفرادٌ لأنفسهم، فيحفظونَ منْ كتابِ اللهِ أو يقرأونَ في كتبِ العلم ما يستثمرونَ بهِ وقتَ فراغهم، وقدْ حدثني شابٌّ في مقتبلِ عمرِهِ أنهُ يقضي ما يقربُ من خمسةَ عشرَ ساعةً في اليومِ للقراءةِ في الكتبِ النافعة، ومعَ ذلكَ فوِردُهُ اليوميُّ مِنَ القرآنِ ثلاثةُ أجزاءٍ، زادَنا اللهُ وإياهُ والمسلمين منْ فضلِهِ، ورزَقَنا العلمَ النافعَ والعملَ الصالحَ، وهلْ تعلمْ أنَّ الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكرُ الله؟



سنة الله في تدمير الظالمين[١]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإيمان: يرى الناظرُ اليومَ على مسرحِ الحياةِ قتلًا وعدوانًا، وتشريدًا وإرهابًا، ويسمعُ الناسُ بينَ الفينةِ والأخرى طبولَ الحربِ تُدقُّ، والمؤامراتُ تُحاكُ في الخفاء، والمستهدفُ الأولُ والأخيرُ هم المسلمون بدينِهم وأنفسِهم ومقدراتِهم، فما أنْ توشكَ عاصفةٌ على النهايةِ حتى يبدأَ الاستعدادُ لأخرى.. وهكذا..

فماذا أعدَّ المسلمونَ لهذهِ النوازل، وما هوَ موقعُهمْ في خِضَمِّ الصراعِ المُحتدمِ.. وقبلَ ذلكَ هلْ عقلوا سُننَ اللهِ في الكون، وحركةَ التاريخِ في التغيير، ونهايةَ الظلمِ والظالمين، وسننَ اللهِ في النصرِ والتمكين؟

أيها المسلمون: المتأملُ في سننِ اللهِ الكونيةِ يرى أنها جاريةٌ لا تتبدلُ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[٢].

والمتأملُ في حركةِ التاريخ يرى أنها لا تتوقف، فثمة أممٌ تفنى وأخرى تنشأ

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٧/ ٦/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

وتحيا، وأفرادٌ يولدون وآخرون يموتون، نصرٌ وهزيمة، وعِزٌّ وذُل، غنىً وفقرٌ، رخاءٌ وشدائدُ، أحزانٌ ومسراتٌ.. وهكذا يقلبُ اللهُ الليلَ والنهار، ويتقلبُ الخلقُ -بأمرِ الله- منْ حالٍ إلى حال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(١).

عبادَ الله: ومنذُ قتلَ أحدُ ابني آدمَ أخاه وقطارُ البغيِ والفسادِ في الأرضِ جارٍ بقدرِ اللهِ وإرادتهِ وحكمهِ، لا يتوقفُ الأمرُ عندَ حدودِ اعتداءِ شخصٍ على آخرَ بغيرِ حقٍّ- بل قامت أممٌ على الاعتداءِ وسحق الآخرين ظلمًا وعدوانًا، ونشأتْ شعوبٌ مكَّنَ اللهُ لها في الأرضِ فأصابها مِنَ الغرورِ والاستكبار حدًا قالوا معه: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(٢).

هذهِ القوةُ الغاشمةُ الظالمةُ، انظروا كيفَ كانتْ نهايتُها في الدنيا، ومصيرُها في الآخرة، يقولُ تعالى عن عاد ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾(٣).

نعمْ إنَّ القوةَ -مهما بلغت- لا تمنعُ انتقامَ اللهِ وبأسَه، والكبرياءُ -مهما تعاظَمَ أصحابُها- لا تدفعُ أمرَ اللهِ إذا حلَّ بساحةِ قومٍ.. وإلا فـ (عادٌ) هذه ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾(٤). كما أخبرَ اللهُ عنهم.

وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾(٥).

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٥.
(٣) سورة فصلت، الآية: ١٦.
(٤) سورة الفجر، الآية: ٨.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما في وصفِهم: كان أطولُهم مئةَ ذراع، وأقصرُهم ستين ذراعًا، وهذه الزيادةُ كانت على خلقِ آبائهم.

وقالَ وهْب: كانَ رأسُ أحدِهم مثلَ قبةٍ عظيمة، وكانَت عينُ الرجلِ يُفرِّخُ فيها السباع، وكذلك مناخرُهم.

وروى شهرُ بنُ حوشبٍ، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: إنْ كانَ الرجلُ من قومِ عادٍ يتخذُ المِصْراعيْن من حجارة، لو اجتمعَ عليها خمسُ مئة رجلٍ من هذه الأمةِ لم يُطيقوه، وإنْ كان أحدُهم ليغمزُ برجلِهِ الأرضَ فتدخلُ فيها[1].

وهنا يرِد السؤالُ: أينَ هذه القوةُ؟ وماذا بقيَ من أخبارِها؟ لقد بادَتْ وانتهتْ من الوجودِ وبقيَ خبرُها عبرةً للمعتبرين ودروسًا للمكذِّبين والمتطاولين: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[2].

أيها المؤمنون: وحركةُ التاريخِ وبأسُ اللهِ لمْ يتوقفا عندَ قومِ عاد، فثمةَ (ثمود) الذينَ جابوا الصخرَ بالواد، وبوَّأهم اللهُ في الأرضِ يتخذونَ من سهولِها قصورًا وينحتونَ من الجبالِ بيوتًا، آتاهمْ الناقةَ آيةً مبصرةً على صدقِ صالحٍ عليه السلام فظلموا بها، وانبعثَ أشقاهمْ فعقرَ الناقة، وعتوْا عنْ أمرِ ربهم، ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3].

فكانتْ نهايتُهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[4] وفي آية

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) سورة القمر، الآيات: ١٨-٢١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧٨.

أخرى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾[(١)].

وبقيتِ العبرةُ ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[(٢)].

ومنْ عادٍ وثمودَ -ورغمَ فاصلِ الزمان- إلى فرعونَ وقارونَ، حيثُ يتكررُ الطغيانُ والاستكبار.. ثم تتجددُ معهُ سُنةُ اللهِ في تدميرِ الطغاةِ والمستكبرين.

أجل؛ لقدْ بلغَ فرعونُ منَ الطغيانِ حدًا قالَ معه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾[(٣)].

وبلغَ منَ السخريةِ بموسى وربِّه أنْ قال: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾[(٤)].

وتسلطَ فرعونُ على المؤمنين، وجيَّشَ جنودَه لمطاردتهم ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ وسخِرَ بموسى ومنْ معهُ منَ المؤمنين قائلًا ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾[(٥)]. ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وتطاولَ فرعونُ وجنودُه، فطاردوا المؤمنينَ حتى وهم يجاوِزون البحرَ ﴿بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾[(٦)].

واتخذوا لمنْ لمْ يستطعِ الفرارَ حبالًا وأوتادًا، ومنْ عجبٍ أنَّ هؤلاءِ الطغاةَ لا

---

(١) سورة القمر، الآية: ٣١.

(٢) سورة القمر، الآية: ٣٢،

(٣) سورة القصص، الآية: ٣٨.

(٤) سورة غافر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٥) سورة الشعراء، الآيات: ٥٣- ٥٦.

(٦) سورة يونس، الآية: ٩٠.

صاحبَ لهم إذا خالفَ توجُّهَهم، ولا حرمةَ ولا رحمةَ لحبيبٍ أو صديقٍ إذا لمْ يستجبْ لكلِّ مطالبهم.

ألا ترونَ فرعونَ شملَ بالعذابِ زوجتَه وأقربَ الناسِ إليه، ولمْ تسلمْ منَ الأذى كذلكَ ماشطةُ ابنتهِ حينَ انضمَّتا إلى قافلةِ المؤمنين، وإنْ كانوا قلةً ومطاردين. وتوجهتْ امرأةُ فرعونَ إلى اللهِ بالدعاءِ متحديةً فرعون وأوتادَه ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١). ونجتْ المرأةُ المؤمنةُ الصابرةُ وخلّدَ القرآنُ ذكرَها مثالًا للإيمانِ ونموذجًا للمؤمنين.

أيها المسلمون: وبعدَ مسلسلِ الظلمِ والجبروتِ الذي مارسَهُ فرعونُ وجندُه، تحققتْ فيهم سُنةُ اللهِ في هلاكِ الظالمين ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾(٢) ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(٣). ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤).

وبقِيتِ الآيةُ، لكنْ لمن؟ لمنْ يعقلونَ ويتفكرون، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾(٥).

عبادَ الله: أما قارونُ ببغيهِ وجحودهِ فجاءَ في معرضِ الحديثِ عن قصتهِ قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً

---

(١) سورة التحريم، الآية: ١١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٦.

(٣) سورة القمر، الآية: ٤٢.

(٤) سورة القصص، الآيتان: ٣٩- ٤٠.

(٥) سورة يونس، الآية: ٩٢.

وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(١).

وكانتِ النهايةُ المؤلمةُ والعبرةُ الموقِظةُ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾. وكانَ ختامُ القصة، يقولُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

اللهمَّ انفعْنا بمواعظِ القرآنِ، واهدِنا بهديِ القرآن، أقولُ ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم.



---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

الخطبة الثانية:

أمةَ القرآنِ: وبعدَ قرونٍ متطاولةٍ وبعدَ أحاديثَ وقصصٍ عنْ مصارعِ الغابرينَ المستكبرين، يعرضُ القرآنُ على مشارفِ بعثةِ محمدٍ ﷺ قصةَ أصحابِ الفيل، الذينَ انساحوا في الأرضِ يسفكونَ الدماءَ ويذِّلونَ الأعزاءَ وينهبون الأموالَ ويسيطرونَ على المقدَّرات.. والهدفُ في النهاية قريشٌ وبيتُ اللهِ الحرام.. ولئنْ تحققَّ لأبرهة وجيشِهِ جزءٌ من النصرِ على تجمعاتِ سحقوها وشعوبٍ أذلوُها، فقد كانَ موعدُ قدر اللهِ فيهم عندَ بيتِهِ المحرَّم، وكانت سنةُ اللهِ في إهلاكهم بجندٍ من السماءِ حَصَبتْهم حتى هلَكَ منْ هلَكَ منهم، وعادَ خاسئًا منْ عادَ منهم، وماتَ في الطريق منْ ماتَ منهم، وخُلِّدت الحادثةُ في كتابِ اللهِ، تشهدُ على سحْقِ الباطلِ وتدميرِ المجرمين، وإبطالِ كيدِ الكائدين ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾[1].

أيها المسلمون: وبعُثَ محمدٌ ﷺ بالهدى ودينِ الحقِ وشعَّ نورُ الإسلام، فما فتئ الأعداء يتربصونَ بالمسلمينَ الدوائرَ؛ أوذيَ النبيُّ ﷺ والمؤمنونَ في مكة، فهاجرَ منْ هاجرَ منهمْ إلى الحبشة، ومَاتَ تحتَ التعذيبِ منْ مات، وأخيرًا ارتحلَ المسلمونَ عن مكةَ مهاجرينَ إلى المدينةِ على إثرِ مطاردةِ قريش وتضييقها، وكانَ القرآنُ ينزلُ مسلِّيًا لمحمدٍ ﷺ والمؤمنين، ومذكِّرًا لهمْ بسنةِ اللهِ في الإيذاءِ وما يعقبهُ من تمكين، وكانَ فيما نزلَ على محمدٍ ﷺ قولهُ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا

(١) سورة الفيل، الآيات: ١-٥.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧﴾[١].

وهاجرَ رسولُ الله ﷺ والمؤمنون إلى المدينةِ وابتدأتْ مرحلةٌ جديدةٌ منَ الجهاد، فقريشٌ لمْ تكفَّ عنْ مطاردةِ المؤمنينَ وهمْ خارج حدودِها، وكانتْ غزوةُ الأحزابِ ذروةَ الصراعِ بين الحقِّ والباطلِ، حيثُ تجمعتِ الأحزابُ وتألَّفتْ الأعداءُ وتحالفَ اليهودُ مع المشركين، وانضمَّ إليهمُ المنافقون في مشهدٍ زلزلَ المؤمنين، وزاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ. . فلما صدَقَ المسلمونَ معَ ربِّهم وثَبتوا مع نبيِّهم جاءَ الفرجُ، ودافعَ اللهُ عن أوليائه ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[٢].

وما فتئ اليهودُ يتحرشونَ بالمسلمين، تارةً، ويتحيَّنونَ الفرصةَ للقضاءِ على الرسولِ ﷺ أخرى، حتى أبطلَ اللهُ كيدَهم وخُضِّدَت شوكتُهم، بلْ دخلَ في الإسلام مُنقادًا منْ فتحَ اللهُ على قلبهِ منهم.

وهكذا النصارى أجلَبوا على المسلمين، وهمُّوا باقتحامِ المدينةِ، فأرسلَ النبيُّ ﷺ أصحابَه لمنازَلَتِهم وكانتْ وقعةُ مؤتة، ورغمَ ما فيها منْ شهداءِ المسلمينَ بدايةٌ لجهادِ النصارى، حتى تحطمتْ دولَتُهم، وورثَ المسلمونَ أرضَهم وديارَهم، ومنْ يتأملُ الفرقَ بينَ (مؤتَة) في السنةِ الثامنةِ للهجرة، واليرموكَ في السنةِ الثالثةِ عشرةَ أو الخامسةَ عشرةَ- كما قالَ المؤرخون- يرى أنَّ فارق الزمانِ ضئيلٌ بين قوةِ الرومِ العظمى في مؤتة، وبينَ تحطيمِ قوتِهم وانتصارِ المسلمين عليهم في اليرموك.

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٧٦- ٧٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

أيها المسلمون: وبعدَ نحوِ ستةِ قرونٍ كانتْ موجاتُ المغولِ وحملاتُ الصليبيين، وكان إعصارًا مدمِّرًا وغزوًا ساحقًا، أُبيدتْ الدولُ والممالكُ وأفنيتْ الشعوبُ وأُهلكَ الحرثُ والنسلُ. . فلما بلغَ الظلمُ نهايتَه حلَّتْ بهم سُنةُ الله في التدميرِ والفناءِ، ولم يبقَ إلا أخبارُهم تُروى عبرةً للمعتبرين.

وبعدُ يا عبادَ الله: فهذا الاستعراضُ التاريخيُّ لبيانِ طرفٍ منْ سننِ اللهِ في تدميرِ الظالمين، والدرسُ يقولُ: إن لكلِّ أجلٍ كتابٌ، ولكلِّ بدايةٍ نهايةٌ، ولكلِّ قوةٍ ضعفٌ، وآياتُ القرآن الحكيم تعرضُ لهذه السنَّةِ الربانيةِ في عددٍ منْ سورِ القرآنِ وآياتهِ، فهلْ نسمعُ ونعقلُ شيئًا منها منْ مثل قولِهِ تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[1].

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾[3].

أيها المسلمون: ويبقى بعدَ ذلكَ السؤالُ المهمُّ: ماذا عنْ سُنن اللهِ في نصرِ المؤمنين، وهلْ منْ نماذجَ منْ نصرِ القلةِ المؤمنةِ على الكثرةِ الكافرةِ؟

ذلكَ ما سأعرضُ له في الخطبةُ القادمةِ إن شاءَ الله.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١١.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

(٣) سورة الفرقان، الآيات: ٣٧-٣٩.

نعمْ، إذا كانَ للهِ سُننٌ في التدمير والإهلاكِ، فلهُ كذلكَ سننٌ في النصرِ والتمكين... وعلى المسلمينَ أنْ يعلموا هذه السننَ، ويعملوا بها إنْ أرادوا نصرًا وتمكينًا وعزًّا وفتحًا مبينًا.

اللهم انصرْ دينَك وعبادَك، وانتقمْ منَ الكافرينَ الظالمين.



من سنن الله في نصر المؤمنين[١]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله.

اللهم صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

أيها الناس: كانَ الحديثُ في الجمعةِ الماضيةِ تذكيرًا بمصيرِ الظالمينَ وعقوبة المستكبرين.. لتأكيد ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٢] وإنَّ اللهَ يمهلُ ولا يُهمل، وإن كيدَ الكافرين في تباب.

وتلكَ سُنَّةٌ ربانيةٌ ماضيةٌ تتجددُ كلما تجددَ العدوانُ والظلمُ والاستكبار.

أما حديثُ اليومِ فهوَ عنْ سُنةٍ ربانيةٍ أخرى في نصرِ المؤمنينَ والتمكينِ للمسلمين في الأرض، وهذا النصرُ والتمكينُ لا يكفي فيه مجردُ الانتسابِ للإسلام، أو دعوى حبِّ اللهِ ورسوله، أو مجردُ العلمِ بأن الإسلامَ ظاهرٌ وأنَّ الغلبةَ للمسلمينَ وهمْ غارقونَ في وحلِ الفساد، بعيدونَ عن أسبابِ النصر.

وأُولى هذهِ السنن أنَّ البأساءَ والضراءَ -مع الصبرِ والمجاهدةِ- مقدماتٌ للنصر.

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ١٤/٦/١٤٢٣هـ.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

أيها المسلمون: لقد امتُحنَ المؤمنونَ السابقونَ على النصرِ، وزُلزلوا وفيهمُ الأنبياءُ والمرسلونَ حتى إذا صبروا وصدقوا جاءهمْ نصرُ الله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١).

ثم ذُكِّرَ المسلمونَ اللاحقونَ لهمْ بهذهِ السُنَّة، وقيلَ لمحمدٍ ﷺ وأصحابهِ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢).

ومنْ هنا يمكنُ القولُ: إنَّ منْ سُننِ اللهِ أنَّ حلولَ الباساءِ والضراءِ- بأهلِ الإسلام- مقدماتٌ للنصر، إذا صبروا وجاهدوا، وأخلَصوا في صدقِ توجُّههمْ إلى الله.

نعمْ إنَّ الأمةَ قد تُصابُ بالنكباتِ والويلاتِ والمحنِ والمآسي، ولكنها تُخطئُ الطريقَ في توجُّهِهَا، فتستجدي الكافرين، أو تطلبُ النصرَ منْ أعدائِها، وقد تغضُّ الطرفَ عنْ موالاةِ المؤمنينَ في حالِ محنتِهم وحاجتِهم للنُّصرة، فيحلُّ بهمْ ما حلَّ بإخوانهم ومُحالٌ أن يأتيَ النصرُ حتى يتوجَّهُ المسلمون بكلِّيتهم إلى الله، ويحققوا مفهومَ الولاءِ مع المؤمنين، والبراءِ منَ الكافرين، وفي هذا توجيهُ ربِّنا تباركَ وتعالى يقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

٢- الفسادُ والفسوقُ معوقاتٌ عنِ النصر:

وفي مقابل السُّنة الماضيةِ فإنَّ ظهور الفسادِ وشيوعَ الفسقِ وطغيانَ الترفِ،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٦.

معوقاتٌ عنِ النصرِ . . ومنْ يتأملُ واقعَ المسلمين يرى أنَّ الفسادَ ظاهرٌ في البرِّ والبحر، على مستوى الرجلِ والمرأةِ والمجتمعِ والدول، فسادٌ في القيم والأخلاق، وفي الإعلامِ والاقتصاد، وسائرِ جوانبِ الحياةِ إلا منْ رحمَ اللهُ.

بل إن الفسادَ عقوبةٌ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ وهو امتحانٌ للتوبة والرجوع ﴿ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

وعاقبةُ الفسادِ وخيمةٌ، واللهُ يقول: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[٢].

وفسقُ المترَفين يُدمِّرهم وغيرَهم ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[٣].

واللهُ تعالى لا يُصلحُ عملَ المفسدين، ويكرهُ الفسوقَ والعصيان.

٣- التضرعُ لله:

ومنْ سُننِ اللهِ أنهُ تعالى يرفعُ ما حلَّ بالناسِ منْ بلاءٍ ومحنةٍ وفسادٍ ومصائبَ، إذا هم تضرَّعوا إليه وحدَه وسألوه بقلوبٍ وجلةٍ كشفَ الغمةِ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[٤].

إنَّ المصيبةَ مضاعفةٌ حينَ تغفلُ القلوبُ وتقسوا وهي تعيشُ في ذُلِّ المعصيةِ وتتجرعُ كئوسَ البأساءِ والضراءِ، تلكَ أمةٌ ما عقلَتْ المصيبةَ وأسبابَها، ولا عرفتْ بعدُ طُرقَ النجاةِ منها، وأولئكَ قالَ اللهُ عنهم: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٥].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٢) سورة الفجر، الآية: ١٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٧٦.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٤٣.

إنَّ قسوةَ القلوبِ -يا عبادَ الله- مرضٌ عضالٌ لا بدَّ مِنَ المسارعةِ بعلاجه، ولقد حُذرتْ هذهِ الأمةُ من ذلكَ وضُربتْ لها الأمثالُ لتحذرَ هذا المسلَك ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(١).

٤- لا بدَّ منَ التغييرِ في النفوسِ للأصلح:

فثمَّة سنةٌ ربانيةٌ قال اللهُ عنها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢)، والتغييرُ في مألوفاتِ النفوسِ صعبٌ في البداية، ولكنهُ مُثمرٌ في النهاية، والصبرُ على مرارةِ الدواءِ ابتداءً أيسرُ منْ معاناةِ المرضِ ومخلَّفاتهِ، وربما أدى المرضُ إلى الوفاة.

إنَّ الفردَ الجادَّ هو الذي يُذلِّلُ نفسَه ويوطنُها على التحولِ منْ حالٍ إلى أخرى أحسنَ منها، والأمةُ الجادةُ هي التي تطوِّع أبناءَها على التغييرِ للأصلح، ومنْ قرأ عنْ عظماءِ التاريخِ أو عن الأممِ المنتصرةِ وجدَ بداياتٍ جادةً في التغييرِ قادتْ إلى النصرِ والسؤدُد.

إنَّ مجرَّد التمنِّي لا يصنعُ منَ الفردِ ولا منَ الأممِ شيئًا يُذكر، وتعليقُ أخطائِنا على غيرِنا لا ينقلُنا من حالِ الذلِّ والمهانةِ إلى مراقي العزِّ والكرامة، وإذا وُجدَ في الأممِ غيرِ المسلمةِ دولٌ ضُربتْ حتى كادتْ تنتهي من الوجودِ فأعادتْ نفسَها بجدٍّ وألزمتْ شعبَها بنوعٍ من التربيةِ والعمل، فعادتْ قوتُها منْ جديد، وبرزتْ في ميدانِ الصراعِ العالمي منافسًا يُحسبُ له الحساب.

أفتعجزُ أمةُ الإسلامِ وحاملةُ القرآنِ أنْ تُعيدَ نفسَها وترتبَ صفوفَها، وتنهضَ

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

بأبنائِها منْ جديد، وهمْ أصحابُ منهجٍ يقولُ لهم: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾[1] وتوجيهٌ ربانيٌّ يعلمُهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[2].

٥- ولا بدَّ معَ إصلاحِ الذات منْ إصلاحِ الآخرين:

نعمْ، إنَّ صلاحَ الفردِ بذاتِه مطلبٌ محمودٌ.. ولكنْ لا بدَّ منْ إصلاحِ المجموعةِ حتى لا ينخرَ في السفينةِ منْ يغرِقُها.

إنَّ منْ سُننِ اللهِ في النصرِ والتمكينِ إقامةَ شرعِ اللهِ والحفاظَ عليهِ والأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[3].

وإذا رأى الناسُ الظالمَ ثمَّ لمْ يأخذوا على يديهِ أوشكَ أنْ يعمَّهم اللهُ بعقابٍ منْ عندِه..

عبادَ الله: إنَّ هناك ارتباطًا وثيقًا بينَ شيوعِ الفواحشِ والمنكرات، وبينَ مصائبِ الأمةِ ونكباتها، يجلِّيها لنا الذي لا ينطقُ عن الهوى ﷺ ويقول: «**يا معشرَ المهاجرين: خِصالٌ خمسٌ إذا ابتليتمْ بهنّ -و أعوذُ باللهِ أنْ تدركوهنَّ- لمْ تظهرْ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعلنوا بها إلا فَشا فيهمُ الطاعونُ والأوجاعُ التي لمْ تكنْ مضتْ في أسلافهمْ الذينَ مضوْا، و لم ينقُصوا المكيالَ والميزانَ إلا أُخذوا بالسنينَ وشدَّةِ المؤنةِ و جوْرِ السلطانِ عليهم، ولمْ يمنعوا زكاةَ أموالِهم إلا مُنعوا القطرَ منَ السماءِ ولولا البهائمُ لمْ يُمطروا، ولمْ ينقضوا عهدَ اللهِ**

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤١.

ورسولِهِ إلا سلّطَ اللهُ عليهمْ عدوَّهمْ منْ غيرهمْ فأخذوا بعضَ ما كانَ في أيديهم، وما لمْ تحكمْ أئمتُهمْ بكتابِ اللهِ ﷺ ويتحروا فيما أنزلَ اللهُ إلا جعلَ اللهُ بأسَهمْ بينَهم»[١].

والسؤال: ما واقعُ الأمةِ المسلمةِ منْ هذهِ المنكراتِ، وما نصيبُ كلِّ فردٍ منها؟!

نعوذُ باللهِ من جَهْدِ البلاء، ومنْ دَرَكِ الشقاءِ، ومنْ شماتةِ الأعداء.

إخوةَ الإسلام:

٦- ومنْ سُننِ اللهِ في النصرِ عدمُ اعتبارِ القلةِ والكثرةِ في ميزانِ النصر، فقد تنتصرُ القلةُ المؤمنةُ الصابرة على الكثرةِ الكافرة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢]، وقدْ ينصرُ اللهُ الفئةَ المستضعَفة على الكثرةِ المستكبرة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[٣] فاللهُ يدافعُ عن الذين آمنوا، واللهُ ينتقمُ من الكافرينَ بأيدي المؤمنين ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[٤].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٥].

٧- لكنْ لا بدَّ من العلمِ كذلكَ أنَّ منْ سُنن اللهِ أنَّ النصرَ قدْ يتأخرُ وقدْ تكونُ جولاتٌ وجولاتٌ بينَ معسكرِ الحقِّ والباطلِ؛ ليميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيب، ويتبينَ الصادقونَ من المنافقين، وقد يتأخرُ النصر، بلْ تحصلُ المصيبةُ على

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٦/٣٠٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٤.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

المسلمين ليكرِمَ اللهُ منْ يُكرمُ بالشهادةِ ويمحصَّ المؤمنين ويمحقَ الكافرين، وفي هذا يقولُ ربُّنا مخاطبًا خيرةَ المرسلين وخيرَ القرون ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(١)].

ومهما تأخرَ نصرُ المؤمنين، ومهما تسلطَ الكافرون فثمةَ أجلٌ محددٌ ينتهي فيه الظلمُ ويهلكُ الظالمون، ذلك أنَّ الناسَ قدْ يرونَ موجباتِ العذابِ، وأسبابَ الانهيار قد حلَّتْ بأمةٍ من الأممِ والدولِ ثمَّ لا يرونَ زوالَها بأنفسِهم، وسنةُ الله ماضيةٌ لكنْ قدْ يكونُ عمرُ هذه الدولةِ الظالمةِ أطولَ منْ عمرِ الأفرادِ المعاصرين لها، ولا بدَّ من استيفاءِ الأجلِ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾[(٣)].

وقالَ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[(٤)].

اللهمَّ انفعْنا بالقرآن.

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٠- ١٤١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الحجر، الآيتان ٤، ٥.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٩.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ، أزمَّةُ الأمورِ بيدِه، وأمورُ الكونِ والخلقِ لا تخرجُ عن قدرتِه ومشيئتِه، وأشهدُ أنْ لا إله اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه وخيرتُه من خلقِهِ، اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

عبادَ الله:

٨- وثمةَ أمرٌ بالغ الأهميةِ في تحقيقِ النصرِ للمسلمين ألا وهوَ صدقُ التوكلِ على الله وحدَه، وصرفُ الخوفِ منهُ وحدَه. نعمْ، إنَّ الناسَ في حالِ الرخاءِ يرددونَ هذه المعاني ويعقلونها، ولكنَّ الخللَ يحدثُ حينَ تقعُ الأزماتُ وحينَ يستشري العدوُّ ويُهددُ ويُزبد، ويزدادُ القلقُ أكثرَ حينَ تُحاطُ الأمةُ بأعداءَ مِنَ الخارجِ والداخل، وحينَ يقلُّ النصرُ، ويضعفُ المُعين..

هنا وفي ظلِّ هذه الظروفِ الحرجةِ يُساورُ النفوسَ الضعيفةَ الشكوكُ، ويستولي عليها الخوفُ مِنَ البشر، فيضعفُ يقينُها بالله، ويخفُّ ميزانُ التوكلِ على اللهِ وحدَه.

والقرآنُ يُطمئِنُ المؤمنين، بلْ يربطُ بين هذه المعاني وبينَ الإيمانِ ويقولُ تعالى ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

والمرسلونَ ما فتئوا يعلِّمونَ الناسَ التوكلَ على اللهِ، لا سيما في الشدائد، وتأملْ توجيهَ موسى عليه السلام لقومِهِ على إثرِ تخوفهمْ منْ فرعونَ وعُلوِّه.

واللهُ يقول: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

والمؤمنونَ مع محمدٍ ﷺ حين خُوِّفوا بجمع الكافرين وتهديدِهم لجئوا إلى سلاح التوكل وآووْا إلى ركنٍ شديد ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ثم قالَ مبيِّنًا مصدرَ الخوفِ مِنْ غيرِ الله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

وخرجَ المسلمون إلى حمراءِ الأسدِ ومصابُهم كبيرٌ في أُحد، وجراحاتُهم تثعبُ دمًا.. لكنه الصدقَ مع اللهِ والخوفَ منهُ وحدَه.. والصبرَ والتحملَ في ذاتِ الله.. الأمرُ الذي أرهبَ العدوَّ فولَّوْا مدبرين.

كمْ نحنُ بحاجةٍ إلى إحياءِ هذه المفاهيم -حينَ تحزُبُ الأمورُ- ليكونَ الخوفُ كلُّه من الله، وليكونَ التوكلُ جميعُه على الله، لا أنْ تكونَ هذه المفاهيمُ نردِدُها في حالِ السراءِ، ثم تغيبُ عنّا -أو عنْ بعضِنا- في حالِ الضراء!

أيها المسلمون: ومنْ عجبٍ أنَّ المؤمنينَ الصادقينَ لا تزيدُهم الشدائدُ إلا قوةً وإيمانًا وتسليمًا، بخلافِ غيرِهمْ ممن يَفرَقونَ عندَ أدنى مصيبة، بلْ ويحسبونَ كلَّ صيحةٍ عليهم. ودعوني أقفُ وإياكمْ على قصةِ المسلمين حين دهمَتْهم الأحزابُ في المدينة، لا كما تعرضُها كتبُ السيرةِ، فتلك مطوَّلة وإن كانت مفيدةٌ، ولكنْ

---

(١) سورة يونس، الآيات: ٨٣-٨٦.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٧٣- ١٧٥.

كما يعرضُها القرآنُ فهو أخصرُ وأبلغُ في التعبير.

نعم، لقد زُلزلَ المؤمنون لهذا التجمعِ العداونيِّ الغاشم، وزاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ.. ولكنَّ الله تعالى اعتبرَها نعمةً على المؤمنين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾(١) الآية، وهلْ تكونُ البليةُ نعمةً؟ نعم لأنَّ بها يزدادُ رصيدُ المؤمنين وينكشفُ المنافقون ويُردُّ بأسُ الكافرينَ، ويتنزلُ نصرُ اللهِ ورحمتُه بعدَ البلاءِ والتمحيص.

أما المؤمنون -فرغمَ هولِ الموقفِ وزلزلته- فقدْ استبشروا باللقاءِ والكربِ لأنه طريقٌ إلى النصر ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(٢).

لقد اتخذَ المؤمنونَ من شعورِهم بالزلزلةِ سببًا في انتظارِ النصر، ذلكَ أنهم صدَّقوا قولَ الله من قبل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٣).

إخوةَ الإسلام: ومهما قيل عنْ أسبابِ النصرِ وعواملِ التمكينِ للمسلمينَ في الأرض، فالإيمانُ الحقُّ بدؤُها ونهايتُها وأولُها وآخرها، هو ضمانةٌ للنصر ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾(٤).

ووعدٌ محققٌ بهِ للنصر ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٥) بسلاحِ الإيمانِ

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.
(٤) سورة الصافات، الآية: ١٧٣.
(٥) سورة الروم، الآية: ٤٧.

ولوازمِهِ، وبيقظةِ المسلمينَ يُرهبُ الأعداءُ، قديمًا وحديثًا؛ وهنا أسوقُ لكم خبرًا وتعليقًا جاء في إذاعة «إسرائيل» ونصّهُ: «أنَّ على اليهودِ وأصدقائِهم أنْ يدركوا أنَّ الخطرَ الحقيقيَّ الذي تواجههُ «إسرائيلُ» هو خطرُ عودةِ الروحِ الإسلاميةِ إلى الاستيقاظ من جديد... وإنَّ على المحبينَ لإسرائيلَ أنْ يبذلوا كلَّ جُهدِهم لإبقاءِ الروحِ الإسلاميةِ خامدةً؛ لأنها إذا اشتعلتْ منْ جديدٍ فلنْ تكونَ إسرائيلُ وحدَها في خطر، ولكنَّ الحضارةَ الغربيةَ كلَّها ستكونُ في خطر»[1].

فهل يدركُ المسلمونَ مكمنَ القوةِ عندهم، فيستعلُوا بإيمانِهم ويجدِّدوا في توبتِهم إلى بارئِهم مُستجيبين لنداءِ الرحمن ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2].

كمْ نحنُ بحاجةٍ إلى التوبةِ أفرادًا وشعوبًا ودولًا، توبةً مما يعلَمُه الناسُ عنا، وتوبةً مما لا يعلمُه إلا اللهُ عنْ كلِّ أحدٍ منا، لا بدَّ من التوسلِ إلى اللهِ في كلِّ حينٍ والتضرع إليه حينَ الخطوبِ، والخروجِ منْ وَحَلِ الموبقاتِ وتطهيرِ الأنفسِ من السيئاتِ.. لعلَّ الله أنْ يرحمَنا ويدفعَ عنّا ويصرفَ عنْ إخواننا المسلمين ما حلَّ بهم من الضراءِ والكربات.. فهو وحدَه فارجُ الكُرباتِ، وهو وحدَه كاشفُ البليَّاتِ.. هوَ حسبُنا ونعمَ الوكيلُ، على اللهِ توكلْنا وعليه فليتوكلِ المؤمنون.. اللهمَّ فارجَ الكرباتِ.. فرّجْ عنا وعنْ إخوانِنا كلَّ كرب وانصرنا على عدوكّ وعدونا.

---

(١) ليالي تحت القمر، علي بن محمد المسعود/ ٤٦.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

فكّاك الأسير[١]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِنْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومَنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلمْ تسليمًا كثيرًا.

أيها المسلمون: دينُنا دينُ التكاتفِ والتكافلِ الاجتماعي، دينٌ تنصُّ تعاليمُه على كفالةِ اليتيم، وإعانةِ المحتاج، وفكاكِ الأسير، ورعايةِ ابنِ السبيلِ وعيادةِ المريضِ، ورعايةِ المُسِنِّ، والإعانةِ على نوائبِ الحقِّ، والتنفيسِ عن مُعْسرٍ، وتفريجِ كربِ المكروب.. ونحوِ ذلكَ منْ سلوكياتٍ تُلبسُ المجتمعَ الإسلاميَّ لَبُوسَ المودةِ والإخاءِ، وتشيعُ المحبةَ والتعاونَ بينَ المسلمين.

ولكنَّ آفةَ المسلمينَ حينَ يغفلونَ عنْ هذهِ المعاني، ويفرِّطونَ، في رعايةِ هذهِ القيمِ أو شيءٍ منها؛ فيظلُّ الفقيرُ يكابدُ آلامَ الفقرِ والحرمانِ وحدَه بعيدًا عنْ مشاعرِ المسلمينَ ومعونَتِهم، وتتراكمُ الهمومُ على مسلمٍ مهمومٍ فلا يجدُ -على الأقل- منْ يسرِّي عنهُ ويسألُ عنْ أحوالِه، ويفيضُ عليهِ مِنْ المشاعرِ المؤنسةِ ما ينفسُ كربَته أو يخففُ عليهِ ضائقتَه.

وهكذا يظلُّ المريضُ يعاني منْ ألمِ المرضِ ووحشةِ الزوارِ، فلا يُسألُ عنْ حالهِ ولا يُزارُ فيُدعى له بالشفاءِ والعافية، وينقطعُ ابنُ السبيلِ فلا يكادُ يلتفتُ إليهِ

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢١/٦/١٤٢٣هـ.

أحدٌ ليسألَ عنْ حالِهِ ويقدّمُ لهُ العونَ في سفرِهِ وغربتِهِ، وقلْ مثلَ ذلكَ حينَ يشعرُ كبارُ السنِّ أنهمْ أصبحوا عالةً على المجتمعِ فلا يُقدَّرونَ حقَّ قدرِهِم، ولا تُقدّرُ سابقُتهم ولا يُستفادُ من تجارِبِهم.

وحينَ يضطرُّ المحتاجُ في سبيلِ قضاءِ حاجتِهِ إلى ممارساتٍ لم يأذنْ بها اللهُ، إما عنْ طريقِ السرقة، أو النصبِ والاحتيالِ أو الاستقراضِ الرِّبَوي.. وكلها ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض.

إخوةَ الإيمان: أما حينَ تشتعلُ الحروبُ وتُستخدمُ لغةُ القوةِ، ويكونُ المسلمونَ هدفًا يُبتغى، هنا يكثرُ الجرحى والأسرى وتشتدُّ حاجةُ الأيامى واليتامى، ومِنَ المؤسفِ والمؤلمِ أنْ تسبقَ إلى إيواءِ هؤلاءِ وإعانتِهم جمعياتٌ تنصيريةٌ يكفيها أنْ تصرفَهم عن الإسلامِ ولوْ لمْ تُدخِلْهُم النصرانيةَ، ويكفيها أنْ تشعرَهم أنَّ النصارى كانوا أقربَ إليهم منْ إخوانِهم المسلمين وإنْ لمْ يُدخلوهم في منظومةِ النصارى وحقوقِهِم، هنا تقعُ الفتنةُ ويضعفُ حبلُ الإخاءِ ويطيشُ ميزانُ التكافلِ الاجتماعيِّ عندَ المسلمين.

أما الأسارى المرتَهنون عندَ قومٍ كافرين، فكمْ لهمْ من الحقوقِ على إخوانهمْ المسلمين، وهذا رسولُ الهدى والرحمةِ يستصرخُ المسلمينَ كافةً لنجدتهمْ والسعيِ في فكِّ أسرِهم ويقول: «**فكُّوا العاني (أي الأسيرَ) وأجيبوا الداعي، وأطعِموا الجائعَ وعودوا المريضَ**» رواه أحمد والبخاري[1].

ولأهميةِ هذا الأمرِ بوَّبَ البخاريُ في «صحيحه» بابًا في (فكاكِ الأسير) وبه ساق الحديث.

عنْ أبي موسى الأشعريِّ ﷺ قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «**فكُّوا العاني** -يعني

(١) انظر: صحيح الجامع الصغير ٤/ ٩٠.

الأسيرَ- **وأطعموا الجائعَ، وعُودوا المريض**».

وساقَ حديثا آخرَ فيما اشتملتْ عليه الصحيفةُ من فكَاكِ الأسيرِ[١].

ونقلَ ابنُ حجر عن ابنِ بطَّال: فكاكُ الأسيرِ واجبٌ على الكفاية، وبهِ قال الجمهور[٢].

تُرى ما حجمُ اهتمامِ المسلمينَ بأسراهم عندَ اليهودِ أو النصارى أو عندَ غيرِهم مِنَ الأممِ والشعوبِ المعاديةِ للمسلمين!

وهذا الإمامُ مالكٌ رحمه الله تعالى يقول: «واجبٌ على الناس أن يفدوا الأسارى بجميعِ أموالِهم، وهذا لا خلافَ فيه، لقولِهِ ﷺ: «**فكُّوا العاني**».

أما شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه الله فقدْ كتبَ رسالةً مطوَّلةً إلى «سرجوان» عظيمِ أهلِ ملةِ النصارى، بمناسبةِ أسرهِ لفئةٍ من المسلمين، ومما قالهُ في هذه الرسالة: «ومنَ العجب كلِّ العجبِ أنْ يأسرَ النصارى قومًا غَدْرًا أو غيرَ غدرٍ ولمْ يقاتلوهم، والمسيحُ يقول: «**مَنْ لطمكَ على خدِّكَ الأيمنِ فأدِرْ له خدَّكَ الأيسرَ، ومنْ أخذَ رداءَك فأعطِه قميصَك**» وكلَّما كثرتِ الأسرى عندَكُم كانَ أعظمَ لغضبِ اللهِ وغضبِ عبادِه المسلمين، فكيفَ يمكنُ السكوتُ على أسرى المسلمينَ في قبرص، سيَّما وعامةُ هؤلاءِ الأسرى قومٌ فقراءُ وضعاء، ليسَ لهمْ منْ يسعى فيهم..»[٣].

ثمَّ يخاطبُ الشيخُ عظيمَ النصارى مبينًا له فرقَ معاملةِ المسلمين لمن عندهمْ من النصارى، عنْ معاملةِ النصارى لمن عندهمْ منَ المسلمين ويقول: «أما يعلمُ

---

(١) انظر الفتح: ٦/ ١٦٧ ح ٣٠٤٦.

(٢) الفتح ٦/ ١٦٧.

(٣) الفتاوى ٢٨/ ٦٢٥.

الملكُ أنَّ بأيدينا منَ النصارى أهلِ الذمةِ والأمانِ ما لا يُحصي عددَهم إلا اللهُ، ومعاملتُنا فيهم معروفةٌ، فكيفَ يعامِلونَ أسرى المسلمينَ بهذه المعاملةِ التي لا يرضى بها ذو مروءةٍ ولا ذو دين؟»(١).

أيها المسلمون: وإذا كانَ هذا طرفًا منْ مواقفِ العلماءِ معَ أسارى المسلمين، فدونكم طرفًا منْ مواقفِ الأمراءِ والولاةِ مع الأسرى.

فعمرُ بنُ عبدِ العزيز رَحِمَهُ اللهُ يكتبُ إلى بعضِ عمَّالِهِ: أنْ فادِ بأسارى المسلمين، وإنْ أحاطَ ذلكَ بجميعِ ما عندهمْ مِنَ المال.

وسمعَ الحكمُ بنُ هشامٍ أميرُ الأندلسِ أنَّ امرأةً مسلمةً أُخذتْ سبيّةً فنادتْ: واغوثاهُ يا حكَم! فعظُمَ الأمرُ عليهِ وجمعَ عسكَرَهُ واستعدَّ وحشدَ وسارَ إلى بلادِ الفرنجِ سنةَ ستٍّ وتسعينَ ومائة، وأثخنَ في بلادِهم وافتتحَ عدةَ حصون، وخرَّب البلادَ ونهبَها، وقتلَ الرجالَ وسبى الحريمَ، وقصدَ الناحيةَ التي كانتْ بها تلكَ المرأةُ التي خلَّصَها من الأسرِ، ثمَّ عادَ إلى قرطبةَ ظافرًا.

أما المنصورُ بنُ أبي عامرٍ فهوَ -كما قال الذهبي- البطلُ الشجاعُ الغزَّاءُ العالِمُ، جمُّ المحاسن، كثيرُ الفتوحات، ملأَ الأندلسَ سبْيًا وغنائمَ، وأكثرَ منْ غزوِ النصارى، حتى اجتمعَ لهُ من غبار المعاركِ التي خاضَها ما عملتْ منهُ لَبِنةٌ وأُلحدَتْ على خدِّه، أو ذُرَّ ذلك على كفنِهِ..(٢).

هذا البطلُ المغوارُ ساقَ له الذهبيُّ موقفًا رائعًا في فكِّ أسرى المسلمينَ فقال: ومنْ مفاخرِ المنصورِ أنه قدِمَ منْ غزوةٍ، فتعرضتْ له امرأةٌ عندَ القصرِ فقالتْ: يا منصور، يفرحُ الناسُ وأبكي؟ إنَّ ابني أسيرٌ في بلادِ الرومِ، فثَنى عنانَه

(١) الفتاوى ٢٨/ ٦٢٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٥، ١٦، ١٢٣، ١٢٤.

وأمرَ الناس بغزوِ الجهةِ التي فيها ابنها[١].

أيها المسلمون: هكذا كانَ أسلافُنا مع أسرى المسلمين.. عنايةً واهتمامًا ونجدة، يلبُّونَ النداءَ ويسمعونَ صوتَ المنادي، وتُجهَّزُ الجيوشُ، وتكتبُ الرسائلُ منْ أجلِ أسارى المسلمين، ثمَّ استدارَ الزمانُ وغَفى المسلمونَ الطلقاءُ من الأسر، وبقيَ الأسرى المسلمونَ في غياهبِ سجونٍ مظلمةٍ أو مرتَهنينَ في أقفاصٍ حديديةٍ مؤلمةٍ، لا مجيرَ لهمْ ولا ناصرَ إلا الله.. يتفننُ العدوُّ في أذيَّتهمْ وأسلوبِ التعاملِ معهم، ويستصرخونَ إخوانَهم المسلمينَ ولا مجيبَ؛ بلْ يُطْبِقُ الصمتُ الرهيبُ إلا مَنْ رحَم اللهُ، وأكثرُ إيلامًا أن تدافعَ عنْ حقوقهمْ منظماتٌ وهيئاتٌ لا تمتُ للإسلامِ والمسلمينَ بصلة، فهل أنفسُ المسلمينَ وحقوقُهم رخيصةٌ إلى هذا الحدِّ منَ الإهمال؟ فإلى اللهِ المشتكى وهوَ وحدَه المستعانُ.

اللهم نفِّسْ كربَ المكروبين منَ المسلمين، اللهم فكَّ أسرى المأسورينَ من المسلمين، واحفظْ عليهم دينَهم ولا تجعلْهم فتنةً للكافرين، اللهم آنِسْ وحشتَهم، وارحمْ غربتَهم.



(١) سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٢٥، ١٢٦.

الخطبة الثانية:

الحمد لله فارج الكربات مغيث اللهفات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمر بالعدل والقسط والإحسان، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والعدوان، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال وهو الصادق الأمين: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**»(١).

اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوة الإيمان: وإذا أردتم أن تدركوا حجم المأساة والظلم التي تلحق بالمستضعفين من المسلمين، فانظروا كيف يعامل مجرمو الحرب من اليهود والنصارى، وكيف يحاكمون وماذا ثبت عليهم من العقوبات الواقعية لا مجرد الأحكام الصورية.. وبين معاملة المسلمين الواقعين في أسر اليهود والنصارى؟!

ألا بواكي للمسلمين؟ أين صوت العلماء؟ أين شهامة الأمراء؟ أين رجالات الإعلام؟ أين أصحاب الأموال، وأين عوام المسلمين وخواصهم من الدعاء؟

وفي سيرة محمد ﷺ دعوة للدعاء للأسرى ومن وقع من المسلمين تحت طائلة فتنة الكافرين وعلى من قتل أحدا من المسلمين، وفي «صحيح البخاري» باب الدعاء على المشركين، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا قال: «**سمع الله لمن حمده**» في الركعة الآخرة من صلاة العشاء قنت: «**اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم**

---

(١) رواه مسلم صحيح الجامع ٥/ ٦٤.

اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[1]، وفي «البخاري» أيضًا من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سرية يقال لها القراء، فأصيبوا، فما رأيت النبي ﷺ وجد على شيء ما وجد عليهم، فقنت شهرًا في صلاة الفجر ويقول: «**إن عصية عصت الله ورسوله**»[2].

فهل يا ترى يعجز المسلمون عن الدعاء لإخوانهم المستضعفين، وهو من سنة المصطفى ﷺ؟

هل من دعوات صادقة تطلق في الأسحار؟ وهل يتحين المسلمون أوقات إجابة الدعاء، فيدعون لرفع ما حل بالأمة من محن وبأساء؟

عباد الله: وهل يسوغ لنا نسيان هؤلاء المستضعفين؟ هل من جهة تطالب بحقوقهم وترفع الضيم عنهم؟

اللهم إنهم ضعفاء فانصرهم، ومأسورون ففك أسرهم، اللهم آنس وحشتهم واحفظ عليهم دينهم وفرج كربتهم.

إخوة الإسلام: وإذا طالبت منظمة العفو الدولية بحقوق الإنسان المنتهكة في (جوانتانامو) وطالبت بزيارة الأسرى، وتعيين محامين مستقلِّين فورًا لهؤلاءِ الأسرى -كما نقلتْ وكالاتُ الأنباء- فأينَ مطالبةُ المنظماتِ الإسلامية؟!

وإذا سمحَ لوفدِ (اللجنةِ الدوليةِ للصليبِ الأحمر) بزيارةِ هؤلاءِ الأسرى، وسمحَ كذلك لوفدِ المسئولين البريطانيين بزيارة الأسرى البريطانيين . . فهلْ يا ترى يسمحُ لعددٍ منَ الهيئاتِ الإسلامية، ووفودٍ من الدول التي لها أسرى بزيارات مماثلة؟.

(١) الفتح ١١/١٩٣، ح ٦٣٩٣.
(٢) الفتح ١١/١٩٤، ح ٦٣٩٤.

وإذا نقلت الصحف الأمريكية وغيرها تحالف مجموعة من رجالِ الدينِ والمحامينَ وأساتذةِ الجامعاتِ الأمريكان للدفاعِ عنِ المعتقلين. . فهل وقعَ مثلُ ذلك عندَ المسلمين؟

لقد نشرتْ صحيفةُ «الواشنطن بوست» أنَّ منظمةَ العفوِ الدوليةِ ذكرتْ في تقريرِها السنويِّ أنَّ الولاياتِ المتحدةَ الأمريكيةَ خاضتِ الحربَ على الإرهابِ على حسابِ حقوقِ الإنسان، وهوَ الأمرُ الذي يضعفُ مصداقيةَ أمريكا كزعيمٍ عالميٍّ في القضايا الإنسانية؟

إننا معاشرَ المسلمين لا نعولُ كثيرًا على هذهِ المنظماتِ الغربيةِ في الدفاعِ عنْ قضايانا والمطالبةِ بحقوقِ إخوانِنا المسلمين. . لكننا حينَ نذكرُ ذلكَ للعلمِ بأنَّ سوءَ المعاملةِ وهضمَ حقوقِنا الإنسانيةِ وصلَ حدًّا ضجرتْ منه منظماتُ القومِ، على حينِ تبقى عددٌ مِنَ المنظماتِ المعنيةِ بالأمرِ صامتةً؟ فإلى متى يظلُ الصمتُ؟ وأحوالُ المعتقلينَ تزدادُ كلَّ يومٍ سوءًا، ومصابُهم وجرحُ أهاليهم باتَ عظيمًا، كمْ منْ دمعةٍ حرَّى أراقَها المعتقلونَ أو أُريقَتْ لهم؟ فمنْ يحسنُّ بهذهِ الدموعِ ويؤنسُ الملهوفَ وينتصرُ للمظلوم؟ ومنْ هديِ النبوةِ «**انصرْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا**» وفي مسطورِ التاريخِ (وامعتصماه) تلكَ التي سُيرتْ لها الجيوشُ، وكان الفتحُ الأعظمُ لعموريةَ والانتصارُ للمظلومين. .

ربَّ وامعتصماهُ انطلقتْ ملءَ أفواهِ الصبايا اليُتَّمِ
لامسَتْ أسماعَهُمْ لكنَّها لمْ تلامِسْ نخوةَ المعتصمِ
وربَّ وامعتصماهُ انطلقتْ ملءَ أفواهِ الأسارى العزَّلِ
لامسَتْ أسماعَهُمْ لكنَّها لمْ تلامِسْ نخوةَ المعتصمِ

عبادَ الله: ومهما تشدَّقَ الآخرون بمنظماتِهم الإنسانيةِ لحمايةِ حقوقِ الإنسان، فيبقى الإسلامُ شامخًا في حمايةِ حقوقِ الإنسان، ويبقى ميثاقُ القرآنِ

أقوى وأسبقُ وأصدقُ والله يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

ويقولُ جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[2].

بلْ يجدُ المنصفونَ في تعاليمِ إسلامِنا رعايةً ورحمةً بالحيوانِ، فضلًا عنِ الإنسان، وفي «الصحيحِ» **«أنَّ رجلًا اشتدَّ بهِ العطشُ فنزلَ بئرًا فشربَ منها ثمَّ خرجَ، فإذا بكلبٍ يلهثُ يأكلُ الثَّرى من العطشِ، فقال الرجل: لقدْ بلغَ هذا الكلبُ منَ العطشِ مثلَ الذي بلَغَني، فنزلَ البئرَ فسقى الكلبَ، فشكرَ اللهُ وغفر له»** فقالَ الصحابة: يا رسولَ الله، وإنَّ لنا في البهائمِ لأجرًا؟ قال: **«في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ»**.

ولئنْ كانتْ الرحمةُ بالكلبِ تغفرُ ذنوبَ البغايا، كما في الرواية الأخرى، فإنَّ الرحمةَ بالإنسانِ تصنعُ العجائب[3]، فأين المسلمونَ منْ تعاليمِ دينِهم ونصرةِ إخوانهم؟!



(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٣) الغزالي، خلق المسلم ٢٦٣.

عَشرُ وَقَفاتٍ في الرؤيا والمُعبرين(١)

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلمْ تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإسلام: يعرضُ للمرءِ -في حالِ اليقظة- أمورٌ تحتاجُ منهُ إلى صبرٍ ومصابرة، فأمورُ الحياة كثيرٌ كَدَرُها، والإنسانُ -كما أخبرَ الله- خُلِقَ في كبدٍ، والحياةُ الدنيا -بجُمْلتِها- متاعُ الغُرورِ.

وهذا ليس مجالُ الحديثِ اليومَ، بلْ يتجهُ الحديثُ إلى ما يعرضُ للمرء في حال المنام، إذْ تطوفُ الروحُ في عالمٍ وتخيُّلاتٍ ورؤى لا يعلمُها إلا الله، وفي المنام- بشكلٍ عام- آيةٌ من آياتِ الله ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٢).

ولربما نامَ المرءُ فقامَ فزعًا على إثْرِ رؤيا رآها، أو مشهدٍ تخيَّلَهُ واقعًا، فلما استيقظَ لم يجدْ من ذلك شيئًا.

عبادَ الله: والناسُ في النظرِ إلى الرؤى وتعبيرِها طرَفانِ ووسطٌ؛ الطرفُ الأولُ يُعظِّمُ الرؤيا ويُسرفُ في تعبيرِها وربما ألزمَ نفسَهُ بما يتراآى له من

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢٠/ ٧/ ١٤٢٣هـ.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٣.

تعبيرها- وإنْ كانتْ أضغاثَ أحلام- ومنْ هذا القبيلِ (الصنف) ما ذكرهُ الإمامُ الشاطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أن شريكَ بنَ عبد الله القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ دخلَ على الخليفةِ المهديِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فلما رآه قال: عليَّ بالسيفِ والنَّطْعِ، قال: ولَمَ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: رأيتُ في منامي كأنك تطأُ بساطي، وأنتَ مُعرضٌ عَنِّي فقصصتُ رؤيايَ على من عَبَّرها فقال لي: يُظهرُ لك طاعةً ويضمرُ معصيةً، فقال له شريكٌ: واللهِ ما رؤياكَ برؤيا إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا أن مُعبِّرَكَ بيوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أفبالأحلامِ الكاذبةِ تضربُ أعناقَ المؤمنين؟ فاستحي المهديُ وقال: اخرجْ عني[١].

والطرفُ المقابلُ لهذا الطرفِ من لا يهتمُّ بالرؤيا، ولا يُعيرُها أيَّ اهتمامٍ ولا فرقَ عندَه بين الرؤيا الصالحةِ وبينَ أضغاثِ الأحلام.

أما الطرفُ الوسطُ- وهم المحقُّون- فهمُ الذينَ لا يُنكرونَ ولا يُبالغونَ في الرؤى، بل ينطلقونَ مُنطلقًا شرعيًا مُتَّزِنًا، سندُهم في ذلك قولُ المصطفى ﷺ: «**الرؤيا الصالحةُ**- وفي روايةٍ (الصادقة)- **منَ الله، والحُلُمُ من الشيطان. .**»[٢].

وهنا وفي مجالِ الرؤى والمناماتِ والمعبرينَ أذكِّرُ بالأمورِ العشرةِ التالية:

١- الرؤيا الصالحةُ جزءٌ من ستةٍ وأربعينَ جزءًا من النبوة، فقدْ روى البخاريُّ وغيرُه عن عُبادةَ بنِ الصامت، وأبي هريرةَ وأنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**رؤيا المؤمنِ جُزءٌ من ستةٍ وأربعين جُزءًا من النبوة**»[٣].

قال ابنُ حجر، إنما كانت جزءًا من أجزاءِ النبوةِ لكونِها منَ اللهِ تعالى، بخلافِ التي من الشيطان، فإنها ليستْ من أجزاءِ النبوة[٤].

---

(١) الاعتصام ١/ ٢٦١.
(٢) رواه البخاريُّ ومسلم وغيرُهما (خ ٦٩٨٧).
(٣) خ ٦٩٨٧.
(٤) الفتح ١٢/ ٣٧٤.

٢- والرؤيا من المبشِّراتُ: كما أخبرَ النبيُّ ﷺ عن ذلك بقوله: «**لم يبقَ من النبوةِ إلا المُبشِّراتُ**» قالوا: وما المبشِّراتُ؟ قال: «**الرؤيا الصالحةُ يراها المسلمُ أو تُرى له**»[١].

قال ابنُ التِّين: معنى الحديث: أنَّ الوحيَ ينقطعُ بموتِ محمدٍ ﷺ ولا يبقى ما يُعلم منه ما سيكون إلا الرؤيا..[٢]

٣- ورؤيا المؤمنِ تكادُ لا تكذب.. أخرجَ البخاريُّ في «صحيحه» عن أبي هريرةَ قال ﷺ: «**إذا اقتربَ الزمانُ لم تكدْ رؤيا المؤمنِ تكذبُ، ورؤيا المؤمن جزءٌ من ستةٍ وأربعينَ جزءًا منَ النبوة، وما كانَ من النبوةِ فإنه لا يكذبُ**»[٣].

قال أهلُ العلم: إذا اقتربتِ الساعةُ وقُبضَ أكثرُ العلم، ودَرَستْ معالمُ الديانةِ بالهرجِ والفتنةِ، فكانَ الناسُ على مثلِ الفترةِ محتاجينَ إلى مُذكِّرٍ ومجددٍ لِما دَرَسَ من الدين كما كانتِ الأممُ تُذكرُ بالأنبياء، لكنْ لمَّا كانَ نبيُّنا خاتمَ الأنبياء، وصارَ الزمانُ المذكورُ يُشبهُ زمانَ الفترةِ عُوِّضوا بما مُنعوا من النبوةِ بِعدَه بالرؤيا الصادقةِ، التي هيَ جزءٌ من النبوةِ الآتيةِ بالتبشيرِ والإنذار[٤].

٤- تعبيرُ الرؤى، والاجتهادُ في حملها على الخير: لا ينبغي الاستعجالُ بتعبير الرؤى، فقدْ وردَ عن النبيِّ ﷺ أنهُ قال: «**الرؤيا على رِجْلِ طائرٍ ما لم تُعبَرْ، فإذا عُبِرَتْ وَقَعتْ**» أخرجه أبو داود والترمزي وابن ماجه بسند حسَّنه الحافظُ ابنُ حجر وصحَّحه الحاكم[٥].

---

(١) رواه البخاريُّ ومسلم وغيرهما (الفتح ١٢/ ٣٧٥).

(٢) الفتح ١٢/ ٣٧٦.

(٣) خ ٧٠١٧.

(٤) الفتح ١٢/ ٤٠٥.

(٥) الفتح ١٢/ ٤٣٢.

وعنْ عطاء: كان يُقال: الرؤيا على ما أُوِّلت، بسند حسن[١].

وإليكمْ هذهِ الرؤيا وتوجيهِ الرسولِ ﷺ فيها:

فقدْ أخرجَ الدارميُّ بسندٍ حسنٍ- كما قالَ الحافظُ ابنُ حجر- عنْ عائشةَ رضي الله عنها قالت: كانتْ امرأةٌ من أهلِ المدينةِ لها زوجٌ تاجرٌ يختلفُ- يعني في التجارة- فأتتْ رسولَ الله ﷺ فقالتْ: إنَّ زوجي غائبٌ وترَكني حاملًا، فرأيتُ في المنامِ أن ساريةَ بيتي انكسرت، وأني ولدتُ غلامًا أعورَ، فقالَ ﷺ: «**خيرٌ، يرجعُ زوجُك إن شاءَ اللهُ صالحًا، وتلدينَ غلامًا برًّا**» فذكرتُ ذلكَ ثلاثًا، فجاءتْ ورسولُ الله ﷺ غائبٌ، فسألتُها فأخبرَتْني بالمنام، فقلت (أي عائشة): لئنْ صدقَتْ رؤياكِ ليموتنَّ زوجُك، وتلدينَ غلامًا فاجرًا، فقعدتْ تبكي، فجاءَ رسولُ الله ﷺ، فقال: «**مهْ يا عائشةُ، إذا عَبَّرتمْ للمسلم الرؤيا فاعبُروها على خيرٍ، فإنَّ الرؤيا تكونُ على ما يُعبِرُها صاحبُها**»[٢].

ومن هنا يُقالُ لأهلِ التعبيرِ وغيرِهم: على رِسْلِكم في التعبير، لا سيَّما وقدْ غلبَ على بعضِ أهلِ هذا العصرِ الانهماكُ في الرؤى والمناماتِ، فصار سؤالُهم عنْ أحلامِهم آكدَ وأهمَّ من السؤال عن أمور دينهم، كما تزايد عددُ المعبِّرين وصاروا يتصدَّرون المساجدَ والمجالسَ والقنواتِ الفضائيةِ والمجلاتِ، وغالى بعضُ هؤلاءِ المعبِّرينَ فجزمَ بأمورٍ دقيقةٍ وقطعَ بأمورٍ غيبيةٍ مستقبلية، لمجردِ رؤيا أو عددٍ من الرؤى، وكان كما لو كانَ له رَئِيٌّ من الجِنِّ، نسأل اللهَ العفوَ والسلامةَ[٣].

---

(١) الفتح ١٢/ ٤٣٢.

(٢) الفتح ١٢/ ٤٣٢.

(٣) د. عبد العزيز العبد اللطيف، على رسلكم يا أهل المنامات، مجلة البيان رجب ١٤٢٣هـ.

٥- من يُعبِّرُ الرؤى؟

حينَ يقالُ: لا ينبغي أن يتصدرَ كلُّ أحدٍ لتعبيرِ الرؤى، يُقالُ كذلك- لأصحاب المناماتِ-: **ألاَّ يقصُّوا رؤياهم على كلِّ أحدٍ إلا على وادٍّ ناصح**، أو ذي رأي؛ وفي روايةٍ: «**لا يقصُّ الرؤيا إلا على عالمٍ أو ناصح**».

قال ابنُ العربي: أما العالمُ فإنه يؤوِّلها على الخيرِ مهما أمكنَه، وأما الناصحُ فإنهُ يرشدُ إلى ما ينفعُه ويعينُه عليه، وأما اللبيبُ- وهو العارفُ بتأويلها- فإنهُ يعلمُه بما يعوَّلُ عليه في ذلكَ أو يسكتُ، وأما الحبيبُ فإنْ عرفَ خيرًا قاله، وإنْ جهلَ أو شكَّ سكتَ[1].

ويرحمُ اللهُ الإمامَ مالكَ بنَ أنس، فقد سُئل: أيعبرُ الرؤيا كلُّ أحد؟

فقال: أبالنبوةِ يُلعبُ، ثم قال: الرؤيا جزءٌ من النبوةِ، فلا يُلعبُ بالنبوة[2].

وإذا كانَ الإمامُ ابنُ سيرين رحمه الله وهو المشهورُ بتعبير الرؤى يُسأل عن مائةِ رؤيا فلا يُجيبُ فيها بشيءٍ إلا أنْ يقولَ: اتقِ اللهَ وأحسِنْ في اليقظة، فإنهُ لا يضرُّك ما رأيتَ في المنام، وكان يقول: إنما أُجيبُه بالظنِّ والظنُّ يُخطئُ ويصيبُ[3]. إذا كان هذا منهج ابن سيرين فكيف بمن دونه من المُعبرين؟

وكمْ هي لفتةٌ ودعوةٌ قد تغيبُ عن بعضِ المعبرين، وذلكَ بتذكيرِ صاحبِ الرؤيا بالتقوى وعمل الصالحاتِ في حال اليقظةِ، والتحذير من المخالفاتِ الشرعية، فهذه وتلك تدفعُ- بإذنِ الله- السوءَ والمكروه، وصنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السوءِ، كما في الخبر الصحيح.

---

(١) الفتح ١٢/ ٣٦٩.

(٢) الفتح ١٢/ ٣٦٣.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح ٤/ ١٠١.

٦- حتى لا تضرَّ الرؤيا:

قد يرى المسلمُ في رؤياهُ ما يزعجُه، وقدْ يتخوّفُ من تأويلِ الرؤى، وهنا أرشدَ المصطفى ﷺ إلى عدةِ أمورٍ تدفعُ بإذنِ اللهِ ضررَ هذهِ الرؤيا، ففي «صحيح البخاريِّ» أنَّ أبا سلمة قال: لقدْ كنتُ أرى الرؤيا فتمرِضُني، حتى سمعتُ أبا قتادةَ يقول: وأنا كنتُ أرى الرؤيا تُمرِضُني، حتى سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**الرؤيا الحسنةُ من الله، فإذا رأى أحدُكمْ ما يُحبُّ فلا يُحدِّثْ بهِ إلا منْ يُحبُّ، وإذا رأى ما يكرهُ فليتعوذْ باللهِ من شرِّها ومن شرِّ الشيطانِ، ولْيَتْفِلْ ثلاثًا ولا يُحدِّثْ بها أحدًا، فإنها لن تضرَّه**»[١].

وفي «صحيح مسلم»: «**وليتحولْ عنْ جَنْبِهِ الذي كانَ عليه..**»[٢]، وفي أخرى عند مسلم- أيضًا-: «**فإذا رأى أحدُكم ما يكرهُ فليَقُمْ فليُصَلِّ**»[٣].

قال ابنُ القيم رحمه الله: فأمرَ النبيُّ ﷺ- منْ رأى في منامِهِ ما يكرهُه- بخمسةِ أشياء: أن يَنْفِثَ عنْ يساره، وأنْ يستعيذ باللهِ من الشيطان، وأنْ لا يخبرَ بها أحدًا، وأنْ يتحوَّلَ عن جَنْبِهِ الذي كانَ عليه، وأنْ يقومَ يصلي، ومتى فعلَ ذلكَ لم تضرّهُ الرؤيا المكروهةُ، بل هذا يدفعُ شرَّها[٤].

فلنعالج ما نكره من الرؤيى بهذا العلاج النبوي، ولنتوكل على الله.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطان الرجيم: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ

---

(١) ح ٧٠٤٤.
(٢) م ٢٢٦٢.
(٣) م ٢٢٦٣.
(٤) زاد المعاد ٢/ ٤٥٨.

تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾[(١)].

نفعني اللهُ وإياكمْ بهديِ القرآن، وسنةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، أقولُ ما تسمعونَ وأستغفر اللهَ لي ولكمْ ولسائرِ المسلمين منْ كلِّ ذنبٍ فاستغفروه وتوبوا إليه.



(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ جلَّ ثناؤُه وتقدستْ أسماؤه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى إخوانه وآله وأصحابه.

أيها الناسُ:

٧- وفي أنواع الرؤيا.. يخلطُ كثيرٌ من الناسِ بينَ أنواعٍ من الرؤيا، وربما ظنَّ البعضُ أنَّ كلَّ ما رآه في المنامِ رؤيا حقٌّ تستحقُّ التعبيرَ.. وليسَ الأمرُ كذلك، بل الرؤيا ثلاث: «**حديثُ النفسِ، وتخويفُ الشيطان، وبُشْرى من الله..**» هكذا روى البخاري عن ابن سيرين[(١)].

وفي «صحيح مسلم» عنْ أبي هريرةَ ﷺ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**إذا اقتربَ الزمانُ لمْ تكدْ رؤيا المسلمِ تكذبُ، وأصدقُكم رؤيا أصدَقُكم حديثًا، ورؤيا المسلمِ جزءٌ مِنْ خمسةٍ وأربعين جزءًا من النبوةِ، والرؤيا ثلاثة: فالرُّؤْيا الصالحةُ بُشرى من الله، ورؤيا تحزينٌ من الشيطان، ورؤيا مما يُحدِّثُ المرءُ نفسَه، فإنْ رأى أحدُكم ما يكرَه فليقمْ فليصلِّ، ولا يُحدِّثْ بها الناسَ..**»[(٢)].

ولهذا لا ينبغي للمرءِ أن يُخبرَ عنْ كلِّ رؤيا رآها، وإلى هذا أرشدَ النبيُّ ﷺ الأعرابيَّ الذي جاءَ للنبيِّ ﷺ يقولُ له: رأيتُ في المنامِ كأنَّ رأسي قطِعَ، فأنا أتبعُهُ، فضحِك النبيُّ ﷺ وقال: «**إذا لعبَ الشيطانُ بأحدِكم في منامِهِ فلا يُحدِّثْ به الناسَ**»[(٣)].

---

(١) ح ٧٠١٧، الفتح ١٢/٤٠٧.

(٢) م ٢٢٦٣، ٤/١٧٧٣.

(٣) مسلم ح ٢٢٦٨، ٤/١٧٧٦، ١٧٧٧.

٨- نماذجُ للرؤيا الصالحةِ وعلاماتُ الرؤيا الفاسدةِ:

من الرؤيا ما هو صالحٌ ومبشِّر، فمنْ رأى النبيَّ ﷺ في المنامِ فكأنَّما رآهُ في اليقظة؛ بل جاءَ في «صحيح مسلم» منْ حديثِ أبي هريرةَ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**منْ رآني في المنامِ فسيراني في اليقظة، أو لكأنما رآني في اليقظة، لا يتمثلُ الشيطانُ بي**»(١).

والقيدُ في المنام ثباتٌ في الدِّين(٢).

واللبنُ في الرؤيا: العلمُ(٣).

وجرُّ القميصِ: الدِّين(٤).

والعينُ الجارية: عملٌ يجري لمنْ رُئيت له(٥).

هذه وأمثالُها وردتْ في صحيحِ السنة، لكنَّ المعبِّرَ لها رسولُ اللهِ ﷺ، ويكلِّ حالٍ فالرؤيا- كما رويَ عن الإمامِ أحمد- تسرُّ ولا تَغُرُّ، وعلى منْ رأى أو رُؤِيَ له ما يُسرُّ أنْ يستبشرَ ولا يغترَّ.

أما الرؤيا الفاسدةُ فسبقتِ الإشارةُ إلى نهيِ النبيِّ ﷺ عنْ حديثِ الإنسانِ عن تلاعبِ الشيطانِ به في المنام.

وقد ذكرَ العلماءُ -كابن الصَّلاحِ- أماراتٍ للرؤيا الفاسدة، كأنْ يرى مستحيلًا، أو يرى في المنامِ ما رآه في اليقظة، أو يرى ما قدْ حدثتْهُ به نفسُه في

(١) مسلم ح ٢٢٦٦، ٤/ ١٧٧٥.
(٢) البخاري ٧٠١٧.
(٣) البخاري ٧٠٠٦.
(٤) البخاري ح ٧٠٠٨، ٧٠٠٩.
(٥) ح ٧٠١٨.

اليقظة.. ونحوها من علامات[١].

٩- نعمْ الرؤيا تَسرُّ ولا تغرُّ، ولا يُترتَّبُ عليها أحكامٌ شرعية، ويمكنُ أنْ يستفادَ من الرؤيا لزيادةِ عملِ الصالحات، وفي رؤيا ابن عمرَ رضي الله عنهما عبرةٌ لمَنِ اعتبرَ، فقدْ أخرجَ البخاريُ في «صحيحه» أنَّ ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: إنَّ رجالًا من أصحابِ النبيِّ ﷺ كانوا يرونَ الرؤيا على عهدِ رسولِ الله ﷺ فيقصُّونَها على رسولِ الله ﷺ فيقولُ فيها رسولُ الله ﷺ ما شاءَ الله، وأنا غلامٌ حديثُ السنِّ، وبيتي المسجدُ قبلَ أنْ أنكِح، فقلتُ في نفسي: لو كانَ فيكَ خيرٌ لرأيتَ مثلَ ما يرى هؤلاء، فلما اضطجعتُ ليلةً قلتُ: اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ فيَّ خيرًا فأرِني رؤيا، فبينما أنا كذلكَ إذْ جاءني مَلكانِ في يدِ كلِّ واحدٍ منهما مقمعةٌ من حديد، يُقبلان بي إلى جهَّنمَ وأنا بينهما أدعو الله: اللهمَّ أعوذُ بكَ منْ جهنَّمَ، ثمَّ أُراني لقيني ملكٌ في يده مقمعةٌ من حديدٍ فقال: لنْ تُراعَ، نِعْمَ الرجلُ أنتَ لو تكثرُ الصلاةَ.. إلى قوله: فقصصتُها على حفصةَ، فقصَّتْها حفصةُ على رسولِ اللهِ ﷺ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ عبدَ اللهِ رجلٌ صالحٌ**» وفي الروايةِ الأخرى قال ﷺ: «**إنَّ عبدَ الله رجلٌ صالحٌ لو كانَ يكثرُ الصلاةَ من الليل**»[٢] فقالَ نافع: لم يزلْ بعدَ ذلكَ يكثرُ الصلاةَ (يعني ابنَ عمرَ)[٣].

قال ابنُ حجر: قالَ أهلُ التعبير: منْ رأى أنه خائفٌ من شيءٍ أَمِنَ فيه، ومن رأى أنه أمِنَ من شيءٍ فإنه يخافُه[٤].

(١) فتاوى ابن الصلاح في مجموعة الرسائل المنيريّة ٤/ ٧ عن د. عبد العزيز العبد اللطيف/ مجلة البيان.

(٢) ح ٧٠٣١.

(٣) ح ٧٠٢٨.

(٤) الفتح ١٢/ ٤١٨.

وبكلِّ حال، فابن عمرَ بشهادةِ المَلَكِ رجلٌ صالح، وكذلك عبَّرَها الرسولُ ﷺ وشهدَ له بالصلاح، وقدْ استفادَ الغلامُ من التذكيرِ بقيمةِ الصلاةِ، ولا سيما صلاةُ الليلِ[١]. فكانَ بعدَ ذلكَ يكثرُ منها، قالَ الزُّهْريُّ: وكانَ عبدُ الله بعدَ ذلكَ يُكثرُ الصلاة من الليل[٢].

لكنْ ومعَ ذلكَ فالرؤيا لا يُرتَّبُ عليها أحكامٌ شرعيةٌ ما لَمْ تكنْ من الأنبياء، إلا أن تُعرضَ على ما في أيدينا من الأحكامِ الشرعية، فإنْ سوَّغَتْها عُمِلَ بمقتضاها، وإلا وجبَ تركُها والإعراضُ عنها[٣].

١٠- منْ كَذَبَ في حُلْمه..

أيها المسلمون: وإذا كانَ الكذبُ مذمومًا في حالِ اليقظةِ، فهوَ كذلكَ- أو أشدُّ- في حالِ المنام، وفي «البخاري» من حديثِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من تَحَلَّمَ**- أي تكلَّفَ الحُلْمَ- **بِحُلْمٍ لم يرهُ كُلِّفَ أن يعقدَ بين شَعِيرتيْن، ولنْ يفعلَ..**»[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من أفرى الفِرَى أن يُري الرجل عينيه ما لم ترى**»[٥].

قال الإمامُ الطبريُّ: إنما اشتدَ الوعيدُ (في الكذبِ في الحُلْم) مع أنَّ الكذبَ في اليقظةِ قد يكونُ أشدَّ مفسدةً منه؛ إذ قدْ تكونُ شهادةً في قتلٍ أو حدٍّ أو أخذِ مال قال: لأنَّ الكذبَ في المنامِ كذبٌ على الله، لحديث: «**الرؤيا جزءٌ من**

(١) الفتح ١٢/ ٤١٩.
(٢) البخاري ح ٧٠٣١.
(٣) الاعتصام للشاطبي ١/ ٢٦٠، الآداب الشرعية لابن مفلح ٤/ ٩٥.
(٤) البخاري ح ٧٠٤٢.
(٥) البخاري ح ٧٠٤٣.

النبوة» وما كانَ من أجزاءِ النبوةِ فهو من قِبَل اللهِ تعالى[١].

ألا فاجتنبوا -عبادَ الله- الكذبَ في كلِّ حالٍ، واجتنبوه في المنامِ، فقدِ اعتبره العلماءُ من أعظمِ الأكاذيب[٢].

هذه -معاشر المسلمين- عشرُ وقَفاتٍ في الرؤيا والمناماتِ والمعبرين، فاعقِلوها لعلكمْ تفلحون، وإياكمْ والإسرافَ في عالمِ الأحلامِ أو الاستسلامِ للمنامات هروبًا من واقع، أو تنصُّلًا من واجباتٍ وتَبعات، بل المتعيَّنُ: الاشتغالُ بالنافعِ والواقع من تحصيلِ علمٍ نافع، والاجتهادُ في العملِ الصالح، والمساهمةُ في الدعوةِ لدين اللهِ والجهادُ في سبيله، فذلكَ توجيه خالقنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٣].



(١) الفتح ١٢/ ٤٢٨.

(٢) ابن حجر، الفتح ١٢/ ٤٣٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

الحِيلَ(١)

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، اللهم صلِّ وسلمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عنْ الصحابةِ أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

عبادَ الله: الحِيلُ والتحيُّلُ مما عَمَّتْ بِهِ البَلْوى في هذا الزمنِ، والمسلمُ الحقُّ هو الذي يخافُ اللهَ ويراقبُه في كلِّ ما يعملُ أو يذَر، وحينَ يغيبُ الخوفُ من عقابِ اللهِ أو منْ عقوبةِ الدنيا، ويُفتنُ الناسُ بالدنيا فلا يُبالي المرءُ بما جمعَ أمِنْ حلالٍ أو منْ حرام، وحينَ تضيعُ الحقوقُ وتُنسى الواجباتُ وتهدرُ كراماتُ بني آدم، هنا يروجُ سوقُ الحِيَل وترتفعُ أسهمُ المحتالين، بل ربما انتكستِ الفِطرُ، فينظرُ إلى منْ يتورعُ عن الحيلِ بأنه إنسانٌ بسيطٌ أو مسكينٌ لا يجيدُ التعاملَ مع الناسِ، ولا يستفيدُ منَ الفُرَصِ.. أو نحوِ ذلكَ منْ عباراتٍ تُطلَقُ جُزافًا وتروّجُ للمنكر، وتوسعُ دائرةَ الحيلِ والمحتالين.

ومن هنا فلا بدَّ من التنبيه على مثلِ هذه الحيلِ وأنواعِها، وموقفِ الشرعِ منها، فما معنى الحيل؟ وما ضابطُها، وما أنواعُها؟

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ٧/ ١٤٢٣هـ.

ومن أقصرِ التعاريفِ للحِيَل: أنها جمعُ حيلة، وهي ما يتوصلُ به إلى مقصودٍ بطريقٍ خَفِيٍّ[١].

وضابطُها: إنْ كانت للفرارِ من الحرامِ والتباعدِ من الإثم فحسن، وإنْ كانت لإبطالِ حقِ مسلمٍ فلا، بلْ هي إثمٌ وعدوان[٢].

وأقسامُها- عند العلماء- بحسبِ الحاملِ عليها:

١- فإنْ تُوصِّلَ بها- بطريقٍ مباحٍ- إلى إبطالِ حقٍّ أو إثباتِ باطلٍ فهي حرام، أو إلى إثبات حقٍّ أو دفعِ باطلٍ فهي واجبةٌ أو مستحبة.

٢- وإنْ تُوصِّلَ بها- بطريقٍ مباح- إلى سلامةٍ من وقوعٍ في مكروه فهي مستحبةٌ أو مباحة، أو إلى تركِ مندوبٍ فهي مكروهة[٣].

أيها المسلمون: وتقعُ الحيلُ في البيعِ والشراءِ والنكاحِ والطلاقِ والزكاةِ والصدقة، والتعاملِ بين الرجلِ والمرأة، والهبةِ والشُّفعة، وهدايا العمال.. ونحو ذلك من أنواع الحِيَل.

ولكنْ دعونا نقفْ على ثلاثةِ أنواعٍ من الحيل تتعلقُ بالبيعِ والشراءِ والنكاح، واحتيالِ العمَّالِ في أعمالهم..

أما الحِيلُ في البيعِ والشراءِ فكثير، منْ إخفاءِ العيب، والكذبِ في الحديث، والنَّجَشِ، واستقبالِ الرُّكْبان، والتحايلِ على الرِّبا وتسميتهِ بغيرِ اسمهِ وهكذا..

وفي الحيلِ في البيوع بوّبَ البخاريُّ في «صحيحه» (بابُ ما يُكره منَ الاحتيالِ في البيوع، ولا يُمنعُ فضلُ الماءِ ليمنعَ به فضلَ الكلأ).

---

(١) ابن حجر، الفتح ١٢/ ٣٢٦.
(٢) الفتح ١٢/ ٣٢٦.
(٣) السابق ٣٢٦.

ثمَّ ساقَ الحديثَ عنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لا يُمنعُ فَضْلُ الماءِ ليَمْنعَ بِهِ فَضْلَ الكلأ**»[١].

وعنْ معنى هذه الحيلةِ قالَ العلماء: المرادُ بالحديث: رجلٌ كانَ له بئرٌ وحولَه كلأٌ مباحٌ، فأراد الاختصاصَ به، فيمنعُ فضلَ ماءِ بئرِه أن تَرِدَه نَعَمُ غيرِهِ للشُّرب، وهو لا حاجةَ به إلى الماءِ الذي يمنعُه، وإنما حاجتُه إلى الكلأ، وهو لا يقدرُ على منعِهِ لكونِهِ غيرَ مملوكٍ له، فيمنعُ الماءَ فيتوفرُ له الكلأ، لأن النَّعمَ لا تستغني عن الماء، بلْ إذا رعتِ الكلأَ عطشتْ، ويكونُ ماءُ غيرِ البئرِ بعيدًا عنها فيرغبُ صاحبُها عن ذلك الكلأ فيتوفرُ لصاحبِ البئرِ بهذه الحيلة[٢].

وتمامُ هذا التحيلِ في البيع- أن صاحبَ هذه البئرِ حينَ يمنعُ الرعاةَ منْ فضلِ ماءِ بئره ليحتاجَ من احتاجَ إلى الكلأ أنْ يشتريَ منه ماءَ بئرِهِ ليسقيَ ماشيته[٣].

وفي بابٍ آخرَ- عند البخاري- قال: بابُ ما يُنهي من الخِداعِ في البيوع، وقالَ أيوب: يخادعونَ اللهَ كأنما يُخادعونَ آدميًا، ولو أَتَوْا الأمرَ عِيانًا كانَ أهونَ عليّ.

ثمَّ ساقَ الحديثَ عنْ ابن عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رجلًا ذكرَ للنبي ﷺ أنه يُخدعُ في البيوعِ، فقال: «**إذا بايعتَ فقلْ: لا خِلَابةَ**»[٤].

ومعنى قولِه ﷺ: «**لا خِلَابةَ**» أي: لا تخدعوني، فإنَّ ذلك لا يحلُّ، أي إنْ ظهرَ في العقدِ خِداعٌ فهو غيرُ صحيح[٥].

---

(١) ح ٦٩٦٢.

(٢) الفتح ١٢/ ٣٣٥.

(٣) الفتح ١٢/ ٣٣٥.

(٤) ح ٦٩٦٤.

(٥) الفتح ١٢/ ٣٣٦.

هذه -معاشرَ المسلمين- نماذجُ للحيلِ والخداعِ في البيوعِ حذَّرَ منها النبيُّ ﷺ، ووضعَ الاحتياطَ لها.. فهلْ يتقي اللهَ الباعةُ والمشترون فيما يبتاعون ويشترون، فيصدُقون مع اللهِ ومع خلقِه ليباركَ اللهُ لهمْ في بيعِهم وشرائِهم، فالرسولُ ﷺ يقول: «**فإنْ صدَقا وبيَّنا بورِك لُهما في بَيْعِهما، وإن كذَبا وكتَما مُحِقَتْ بركةُ بَيْعهما**».

إنَّ الخداعَ في البيعِ والشراءِ ليس من النَّجابة والذَّكاءِ.. لكنه ضعفٌ في الدِّيانة، ولؤمٌ في المعاملة، وخِداعٌ للهِ ولخَلْقِه، فهل ينتهي المخادعونَ وأصحابُ الحيلِ المحرَّمةِ؟

أيها المسلمون: ومنْ حِيَل البيعِ والشراءِ، إلى حِيَل النكاحِ، كأنْ يُغرَّرَ بالمرأةِ عن الرجل بخلافِ واقعِه، أو يغرَّرَ بالرجلِ عن المرأةِ بخلافِ حالِها.. أو نحوِ ذلك.

وفي «البخاري»: (بابُ الحيلةِ في النكاحِ)، ثمَّ ساقَ به النهيَ عن الشِّغَارِ، فعنْ عبدِ الله بنِ عُمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ نهى عنْ الشغار.

قلتُ لنافع: ما الشِّغارُ؟ قال: يَنكِحُ ابنةَ الرَّجُلِ، ويُنكِحُهُ ابْنَته بغيرِ صَدَاقٍ، وَينكِحُ أختَ الرجلِ، ويُنكِحَهُ أختَه بغيرِ صَدَاقٍ..»[1].

ومما ذكرهُ العلماءُ منْ عللِ النهيِ لهذا النوعِ منَ النكاحِ (الشِّغار): أنهُ جعلَ بَضْعَ كلِّ واحدةٍ مهرًا للأخرى، وهي لا تنتفعُ به، فلمْ يرجعْ إليها المهرُ، بل عادَ المهرُ إلى الوليِّ، وهو مِلْكُه لبَضْعِ زوجتِه بتمليكِه لبَضْعِ موليتِه، وهذا ظلمٌ للمرأتينِ، حيثُ لم تنتفِعا بمهرِهما[2].

---

(١) ح ٦٩٦٠.

(٢) فقه السنة. سيد سابق ٢/ ٥٥.

ومنَ الحِيلِ المحرَّمةِ في النكاح: زواجُ التَّحليل، وهوَ أنْ يتزوجَ الرجلُ المطلقةَ ثلاثًا بعدَ انقضاءِ عِدَّتِها، أو يدخلَ بها، ثم يطلقَها ليُحِلَّها للزوجِ الأول.. وهذا النوعُ من الزواجِ كبيرةٌ من كبائرِ الإثمِ والفواحش، حرَّمه اللهُ ولَعَنَ فاعلَه(١).

قال ﷺ: «**لعنَ اللهُ المُحَلِّلَ والمحلَّلَ له**»(٢).

وفي حديثٍ آخرَ سمى النبيُّ ﷺ صاحبَ هذهِ الحيلةِ بالتيسِ المُستعار.

قال ابنُ القيمِ ﷺ: ولا فرقَ بينَ اشتراطِ ذلك بالقولِ أو بالتواطئ والقصد، فالأعمالُ بالنيات(٣).

إخوةَ الإسلام: ومنْ حيلِ البيعِ والشراءِ وحيلِ النكاحِ إلى حيلِ العمالِ وأخذِ الهدايا- وإنْ شئتَ فقل: (الرِّشاوى) والخَطْبُ فيها أعظمُ!

وفي «البخاري»: (باب احتيال العامل ليهدى له).

ثمَّ ساقَ الحديثَ عنْ أبي حُميدٍ الساعديِّ ﷺ قال: استعملَ رسولُ الله ﷺ رجلًا على صدقاتِ بني سُليم يُدعى ابنَ اللُّتْبيَّةِ، فلما جاءَ، حاسبَه، قال: هذا مالكُم وهذا هدية، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**فهلا جلستَ في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتُك إن كنتَ صادقًا**»، ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ! وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

---

(١) فقه السنة ٢/ ٤٦.

(٢) رواه أحمد بسندٍ حسن.

(٣) انظر: فقه السنة ٢/ ٤٧.

فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ» ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ وقال «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟»(١)

عبادَ الله: كمْ بُليَ نفرٌ منَ المسلمينَ بهذهِ الهدايا والرِّشاوى؟ وكمْ ضاعتْ حقوقُ من لا يستطيعونَ أو يتورَّعونَ عنْ دفعِ هذهِ الهدايا والرِّشاوى.. إنَّ علينا أن نتقيَ اللهَ في مطعمِنا كما نَتَّقيهِ في منكحِنا وفي بيعِنا وشراءنا، أعوذُ بالله من الشيطانِ الرَّجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٢).



---

(١) ح ٦٩٧٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله، أحلَّ الحلال وبيَّنهُ، وحرّمَ الحرامَ ونهى عنه، وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

وبعدُ: إخوةَ الإيمانِ، فقدْ كشفَ العلماءُ عنْ أنواعٍ كثيرةٍ منَ الحِيَل، وفي «إعلامِ الموقِّعين» لابنِ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ من ذلكَ شيءٌ كثير، وبه ناقشَ حُججَ المجيزين للحيلِ إجمالًا وتفصيلًا.. وخوّفَ المحتالينَ باللهِ وحذَّرهمْ منْ مغبَّةِ الوقوفِ بين يديه فقال:

فحقيقٌ بمنِ اتقى اللهَ وخافَ نكالهَ أنْ يحذرَ استحلالَ محارمِ اللهِ بأنواعِ المكرِ والاحتيال، وأنْ يعلمَ أنَّه لا يخلصه من الله ما أظهره مكرًا وخديعةً من الأقوال والأفعال، وأن يعلم للهِ يومًا تكِعُّ فيه الرجالُ وتُنسفُ فيهِ الجبالُ، وتترادفُ فيهِ الأهوالُ، وتشهدُ فيهِ الجوارحُ والأوصالُ، وتُبلى فيه السرائرُ وتظهرُ فيهِ الضمائرُ، ويصيرُ الباطلُ فيه ظاهرًا والسرُّ علانيةً والمستورُ مكشوفًا، والمجهولُ معروفًا ويُحصَّلُ ويبدو ما في الصدورِ كما يُبعْثَرُ، ويخرجُ مَنْ في القبورِ وتُجرى أحكامُ الربِّ تعالى هنالكَ على القَصْدِ والنياتِ كما جرتْ أحكامُه في هذهِ الدارِ على ظواهرِ الأقوالِ والحركات، يومَ تبيَضُّ وجوهٌ بما في قلوبِ أصحابِها منَ النصيحةِ للهِ ورسولِهِ وكتابِهِ وما فيها منَ البرِّ والصدقِ والإخلاصِ للكبير المُتعالِ، وتسودُّ وجوهٌ بما في قلوبِ أصحابِها من الخديعةِ والغشِّ والكذبِ والمكرِ والاحتيالِ، هنالك يعلمُ المخادعونَ أنهمْ لأنفسهمْ كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبونَ وما يمكرونَ إلا بأنفسهمْ وما يشعرون[1].

---

(١) إعلام الموقعين ٣/ ١٦٣، ١٦٤.

عبادَ الله: والحِيلُ كانتْ في الأممِ السابقة، وكانَ لليهودِ فيها قدحٌ مُعلى، حتى كشفَ القرآنُ خداعهم في أكثرِ منْ موضعٍ في كتابه.. وفضحَ تلاعبَهم في أحكامِ الدينِ في أكثرِ من موقف، ومنْ ذلكَ قولُه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[(١)].

أجلْ، لقد نهى اللهُ اليهودَ أن يصيدوا الحيتانَ يومَ السبتِ تعظيمًا لهذا اليومِ وامتحانًا لهم، فابتلاهم الله بكثرة الحيتان يومَ السبتِ، فتحيَّلوا على الصيد، فكانوا يحفرونَ لها حُفرًا ويتصيدونَ لها الشباك، فإذا جاءَ يومُ السبتِ ووقعتْ في تلكَ الحفرِ والشباكِ لمْ يأخذوها في ذلكَ اليوم، فإذا جاءَ يومُ الأحدِ أخذوها..[(٢)].

فكانتْ تلكَ واحدةً منْ حيلِ اليهود، وأخرى قالَ عنها النبيُّ ﷺ: «**لعنَ اللهُ اليهودَ، حُرِّمتْ عليهمْ الشحومُ، فَجَمَلُوها (أذابوها)، فباعُوها**» متفقٌ عليه[(٣)].

ومنْ هنا لعنَ السلفُ منْ شابَهَ اليهودَ في تَحَايُلِهِم على ترويجِ الحرام، وفي «البخاري» و«مسلم» عنْ ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: بلغَ عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه أنَّ فلانًا باعَ خمرًا فقال: قاتلَ اللهُ فلانًا، ألمْ يعلمْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لعنَ اللهُ اليهودَ، حُرِّمتْ عليهمْ الشحومُ، فَجَمَلُوها.. (الحديث)**.

وجاءَ نهيُ هذهِ الأمةِ لمشابهةِ اليهودِ في أيِّ حيلةٍ وقال ﷺ: «**لا ترتكبوا ما**

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

(٢) تفسير السعدي ٣/ ١٠٦، ١٠٧.

(٣) جامع الأصول ١/ ٤٥٠.

ارتكبتِ اليهودُ فتَسْتَحِلُّوا محارمَ اللهِ بأدنى الحِيَلِ..».

عبادَ الله: إنَّ اللهَ إذا حَرَّمَ على قومٍ أكلَ شيءٍ حرمَ عليهمْ ثمنَه- هكذا أخبرَ المصطفى ﷺ[1].

أيها المسلمون: اتقوا اللهَ واجتنبوا الحرامَ وإياكمْ والمُشتَبَهات، فمنْ وقعَ في الشُّهباتِ وقعَ في الحرام، واحذروا المترخِّصين في الفتوى (بغير علم) والمُتَحايلينَ على النصوصِ بالحيلِ الباطلة.

وللأئمة- رحمهمُ اللهُ- كأحمدَ وغيرِه كلامٌ في المفتينَ بالحيلِ حتى قالوا: إنَّ منْ أفتى بهذهِ الحيلِ فقدْ قلبَ الإسلام ظهرًا لبطن، ونقضَ عُرَى الإسلامِ عُروةً عُروةً. هكذا نقلَ ابنُ القيمِ عنهمْ في «إعلام الموقعين»[2].

أيها المؤمنون: ومنْ حيلِ الأفرادِ إلى حيلِ الدول، حيث تُرسمُ السياساتُ وتُبنى الخططُ على المكرِ والخديعةِ والحيل، ويظهر للناس شيءٌ وفي الباطنِ أشياء، ومنْ أعظمِ المصائبِ أن توضعَ المصائدُ لأمةِ الإسلام بحيلِ اليهودِ والنصارى، وتكونُ بلادُ المسلمين أرضًا وسكانًا.. ومواردَ وقيمًا.. مجالًا تُمارَسُ فيه أنواعُ المكرِ والخديعةِ والحيل، وأعظمُ منْ ذلكَ أنْ يروَّجَ هذا المكرُ على نفرٍ من المسلمين أو غيرِ المسلمين، فلا يقفُ تأثيرُ الأزمةِ المعاصرةِ على تغييرِ الخرائطِ الجغرافيةِ والسياسية، بل تتغيرُ خرائطُ العقولِ والأفكار- إلا منْ رحمَ اللهُ- وهنا يحتاجُ الناسُ كافةً والمسلمونَ خاصةً، إلى تثبيتٍ على الدينِ الحقِّ والمنهج الحق.. ذلك الدينُ الحقُّ الذي ارتضاهُ اللهُ لها وختمَ به شرائعَ السماء، وهو وحدَه المنقذُ للعالمِ من التخبُّطِ والضياع، وهوَ وحدَه الدينُ الذي

(١) رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح. جامع الأصول ١/ ٤٥١.

(٢) ٣/ ١٧٦.

يمكنُ أنْ يعيشَ الناسُ- كلُّ الناسِ- في ظلِّه آمنينَ بلا خوف، وفي عدلٍ بلا ظلمٍ، وكما ينقشعُ به الظلمُ تزولُ يه الظلماتُ، وصدقَ الله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

أيها المسلمون: وأختمُ الحديثَ هنا عن الحيلِ بطرحِ عددٍ منَ الأسئلةِ، وأرجو أنْ يسألَ كلُّ محتالٍ نفسَه عنها:

وهل الحيلُ كرمٌ ومروءةٌ، أم جشعٌ وخبثٌ في الطويَّة؟

- هلْ ترغبُ أيها المسلمُ أنْ يكونَ فيكَ شَبَهٌ من اليهود؟

- وهل ترضى أيها المحتالُ على الآخرينَ أنْ يحتالَ الناسُ عليك؟

- وهلْ تعتقدُ أنَّ الحيلَ ستدفعُ لكَ رزقًا لمْ يكتبْه اللهُ لك، أو توصلُك إلى منزلةٍ لمْ يقدِّرْها اللهُ لك؟

- هلْ تعتقدُ أنَّ الدنيا نهايةُ المطافِ؟ وما ظنُّكَ إذا وقفتَ بينَ يدي اللهِ وقدْ خَدعتَ هذا واحتلتَ على ذاك؟

اللهمَّ اشرحْ صدورَنا للإسلام، ونوِّرْ قلوبَنا بالقرآن، واكفِنا شرَّ الأشرارِ وكيدَ الفُجّارِ.

اللهمَّ اهدِنا لما اختُلفَ فيهِ منَ الحقِّ بإذنك.

اللهمَّ اكفِنا بحلالِك عنْ حرامِك، وأغنِنا اللهمَّ بفضلِك عمَّنْ سواك.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

الجَنَّةُ حينَ تُزيَّنُ في رمضان[١]

الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ أورثَ عبادَه المؤمنين الجنةَ بما كانوا يعملون، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله، ندبَ عبادَه إلى المسارعةِ للخيراتِ، وادَّخرَ لهمُ الثوابَ ليومِ المَعَادِ، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾[٢]، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه كان أعلمَ الناسِ باللهِ وأخوفَهم له، وأكثرَهم له عبادةً حتى أتاه اليقينُ.. صلى اللهُ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، ورضيَ اللهُ عن صحابتهِ أجمعينَ والتابعينَ ومنْ تبعهمْ بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

يتواصى المسلمونَ بالتقوى في كلِّ حين.. فكيفَ بالتقوى في شهرِ التقوى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣].

إخوةَ الإسلام: أهنِّؤكمْ ونفسي والمسلمينَ بحلولِ شهرِ رمضانَ، وأسألُهُ تعالى أن يجعلَه طريقًا موصِلًا إلى الجِنَانِ في الآخرةِ وسبيلًا لعزِّ المسلمينَ وتمكينِهم في الدنيا، وحُقّ لكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ إذا ذكرتِ الجنةُ أن ترجفَ منهمُ الأفئدةُ، وترْتعدَ الفرائصُ وتسيلَ دموعُ العينِ رغبًا لها، وإذا ذُكرَ نعيمُها وبهجتُها وسرورُها كادوا أن يطيروا شوقًا إليها.

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٣/ ٩/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

يا أخا الإيمان: وشهرُ رمضانَ شهرُ القرآن، وشهرُ الصيام، وشهرٌ تتقوى فيه النفوسُ على فعلِ الخيراتِ والإحسان، شهرٌ يسارعُ المؤمنون فيهِ إلى مغفرةٍ منْ ربِّهِمْ وجنةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ، البشارةُ للمؤمنين بالجنةِ حقٌ، وأنواعُ النعيم لا تُحدُّ ولا توصفُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١).

إخوة الإيمان: وإذا كانَ حديثُ الجنةِ يطيبُ في كلِّ حينٍ فهوَ في شهرِ الصيامِ يطيبُ أكثرَ وأكثرَ، لماذا؟

وهنا وقفاتٌ عن الجنةِ وتذكيرٌ بالطرقِ إليها:

١- لأن في شهرِ رمضانَ يُزينُ اللهُ جنتَه كلَّ يوم، ويقولُ: يوشكُ عباديَ الصالحونَ أنْ يلقوا عنهمُ المئونةَ والأذى ثمَّ يصيروا إليك، فيا باغيَ الخيرِ أَقْبِلْ. وأهلُ السنةِ والجماعةِ يؤمنونَ بأنَّ الجنةَ حقٌّ والنارَ حقٌّ، ويعتقدونَ أنَّ الجنةَ والنارَ مخلوقتان وموجودتان الآن، ولمْ يشذَّ عنْ ذلكَ إلا بعض المُبْتَدِعةِ.

٢- ويؤمنونَ كذلكَ أنَّ منْ ماتَ قامتْ قيامتُه، ثم عُرِضَ عليه مقعدُه من الجنةِ أو النار، وفي «الصحيحين» منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**(٢).

وفي «المسند» وغيرِه منْ حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه قال: **خَرَجْنَا مَعَ**

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٢) البخاري ١٣٧٩، ومسلم ٢٨٦٦.

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ- فذكرَ الحديثَ بطوله، **فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا**... الحديث[1].

٣- ويُؤْمَنُونَ بل يُغْبَطُونَ منْ بشَّرهمْ النبيُّ ﷺ بالجنةِ، وهمْ بعدُ في الدنيا.. وثمَّةَ عددٌ من الصحابةِ بُشِّروا بالجنة، بل رأى رسولُ الله ﷺ قصورًا في الجنة لأعيانٍ من الصحابة، وعلى سبيل المثال لا الحصرِ أكتفي بنموذجٍ للرجال وآخرَ للنساء، فقَصْرُ عمرَ رضي الله عنه جاءَ في «صحيحِ مسلم» منْ حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا قَصْرًا** ودَارًا، **فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟** فقيل: **لرجلٍ منْ قريش**، فقيل: **لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ**» قال: فَبَكَى عُمَرُ، وَقَالَ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ أَوَ عَلَيْكَ يُغَارُ؟![2].

أما خديجةُ رضي الله عنها، فالبشارةُ لها ببيتٍ في الجنةِ أتي بها جبريلُ للنبيِّ ﷺ ومعه السلامُ منْ ربِّها، وقال- كما في «صحيح البخاري»-: «**هذهِ خديجةُ قدْ أتتْ معها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أَتَتْكَ فاقرأْ** عليها السلام **من ربِّها ومنِّي، وبشِّرها ببيتٍ في الجنةِ منْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ**»[3].

٤- الجنةُ مغريةٌ والنارُ موحِشةٌ، ولكنْ أينَ لِجَامُ الشهواتِ والمَكَارِهِ؟

في «السنن» والمسند منْ حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ**

---

(١) أحمد في «المسند» ٤/ ١٨٧، والحاكم: المستدرك ١/ ٣٧، ٣٨.

(٢) مسلم ٢٣٩٤ في فضائل الصحابة باب من فضائل عمر رضي الله عنه.

(٣) البخاري، مناقب الأنصار، تزويج خديجة وفضلها ح ٣٨٢٠.

لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَجَاءَهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ فَرَجَعَ إِلَيْهِ، قَالَ فَوَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَتْ بِالْمَكَارِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ. فقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعَ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَع إِلَيْهَا، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا» قالَ الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[1].

ألا فجاهدْ نفسَك يا مسلمُ عنْ الشهواتِ المحرمةِ، وصبِّرْها على المكارهِ المصاحبةِ للطاعةِ فذاك رهانُ الجنة.

٥- منْ نعيمِ الجنةِ كلُّ ما خطرَ ببالكَ وحلّقَ إليهِ خيالُكَ، ففي الجنة أعظم من ذلك، عنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وَفِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[3]. وَمَوْضِعُ سَوْطٍ من الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[4]» رواهُ بهذا

(١) ٢٥٦٠، والمسند ٢/ ٣٣٣.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٣٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

السياقِ واللفظِ الترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه، وصدرهُ في «الصحيحين»[١].

٦- هل تُدخَلُ الجنةُ بالعملِ أمْ برحمةِ الله؟ المتقررُ شرعًا أنها تُدخلُ برحمةِ الله، كما قال ﷺ: **«لنْ يُدخِلَ أحدًا عَمَلُه الجنَّةَ»** وفي لفظ: **«لنْ يُنْجِي أحدًا منكمْ عَمَلُهُ»**[٢]. ولكن العملَ سببٌ في دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

قالَ العلماءُ: والجمعُ بين الآيةِ والحديث: أن النفيَ الذي في الحديثِ هو نفيُ المعاوضةِ التي يكونُ فيها أحدُ العوضينِ مقابلًا للآخر، والباءُ التي في الآيةِ هي باءُ السببيةِ التي تقتضي أنَّ العملَ سببٌ لدخولِ الجنة وإن لم يكنْ مستقلًّا بحصولِها[٣].

إذًا لا بدَّ للجنةِ منْ عملٍ ابتداءً، ولكنَّ رحمةَ اللهِ بوابةٌ للدخولِ في النهاية.

٧- ما هي موجباتُ دخولِ الجنة؟ هي كثيرةٌ وثابتةٌ في آياتِ الكتابِ وصحيحِ السنة، كالذِّكرِ والسُّننِ الرواتبِ والصدقةِ، والصومِ وحُسْنِ الخُلُق، والحجِّ والجهادِ وبرِّ الوالدين، والزيارة. . وقدْ أحصى بعضُهم ما يزيدُ على ستينَ موجبًا للجنةِ منْ صحيحِ السنة، وقال الشيخُ عبدُ الله الجعيثن في كتابهِ «موجباتُ الجنةِ في ضوء السنة»- وفقَّه اللهُ- تنوُّعُ الأسبابِ الموجبةِ للجنةِ وكثرتُها رحمةٌ منَ اللهِ بعباده، فقد يتهيأُ لبعضِ المؤمنينَ بعضُ هذهِ الأسبابِ ويتعذرُ عليهمْ بقيتُها، وقدْ يوفَّقُ المؤمنُ ويفتحُ له في بعضُ هذهِ الأسبابِ ويتعذرُ عليهمْ بقيتُها، وقدْ يوفَّقُ المؤمنُ ويفتحُ له في بعضِ الأسبابِ وتتيسرُ له دونَ سواها، وعلى المسلمِ أنْ

---

(١) ابن القيم، حادي الأرواح ٢٢٣.

(٢) متفق عليه، خ ٥٦٧٣، م ٢٨١٦.

(٣) حادي الأرواح ٦١.

يغتنمَ الفرصةَ في أيِّ بابٍ فتحَ لهُ إلى الجنة، ويجتهدُ في تحقيقِ بقيةِ الأسباب[١].

قالَ أحدُ التابعين: إذا فُتحَ لأحدكمْ بابُ الخيرِ فليُسْرِعْ إليه، فإنهُ لا يدري متى يُغلَق عنه[٢].

يا عبدَ الله: وإذا بلّغكَ اللهُ شهرَ رمضانَ وهوَ شهرُ الصيامِ والقرآن، والإحسانِ والصلاة، والدعاءِ.. ونحوِها منْ موجباتِ الجنة، فلا تَدَعِ الفرصةَ تضيعُ عليك وسارِعْ وبادر، وأَنِبْ إلى ربِّك وأخبتْ له.. عسى أنْ تكونَ منَ المفلحين.

٨- الغفلةُ صدودٌ عنِ الجنةِ.. والعجبُ كلُّ العجبِ ممنْ يَغْفلُ عنْ مصيرينِ لا يستويان، والعجبُ كذلكَ ممنْ تُسرعُ بهِ مطايا الليلِ والنهار، ولا يتفكرُ إلى أنْ يُحملَ ويُسارَ به أعظمَ منْ سيرِ البريد، ولا يدري إلى أيِّ الدارين يُنقلُ.. أجلْ، لقدْ نُوديَ إلى الجنةِ في سوقِ الكسادِ فما قَلَّب هذا المسكينُ الغافل- ولا اسْتام، وغيرُه قدْ شمَّرَ عنْ ساق.. فواعجبًا لها كيفَ نامَ طالبُها، وكيفَ لمْ يَسْمح بمهرِها خاطبُها، وكيفَ طابَ العيشُ في هذهِ الدارِ بعدَ سماعِ أخبارِها، وكيفَ قرَّ للمشتاقِ القرارُ دونَ معانقةِ أبكارِها؟ وكيفَ صدفتْ عنها قلوبُ أكثرِ العالمين؟![٣].

٩- حُدَاء الجنة.. ودونكَ حُداءُ المشتاقينَ وحنينُ العارفين، يتغنونَ بالجنانِ وكأنهمْ يرونها.. ويدعونكَ للجدِّ والاجتهادِ في طلبها، وهمْ يصفونَ لكَ شيئًا منْ نعيمها..

---

(١) د. عبد الله الجعيثن، موجبات الجنة في ضوء السنة/ ٥.

(٢) رواه أحمد في «الزهد» ص٣٨٤، عن الجعيثن «موجبات الجنة»/ ٦.

(٣) ابن القيم، حادي الأرواح ٢٦- ٢٨.

ويقولُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ منْ قصيدةٍ طويلةٍ وشعرٍ في وصفِ الجنة:

ومـا ذاكَ إلا غَـيـرةٌ أنْ يـنـالَـهـا سوى كُفْئِها والربُّ بالخَلْقِ أعلمُ
وإنْ حُـجـبـتْ عـنَّـا بـكـلِّ كـريـهـةٍ وحُفَّتْ بما يؤذي النفوسَ ويؤلمُ
فـلـلّـهِ مـا فـي حـشـوِهـا مـنْ مَـسَـرَّةٍ وأصـنـافِ لـذاتٍ بـهـا يُـتـنـعَّـمُ
ولـلـهِ بَـردُ الـعـيـشِ بـيـنَ خـيـامِـهـا وروضاتِها، والثغرُ في الروضِ يَبسمُ
ولـلـهِ واديـهـا الـذي هـو مـوعـدُ المزيد لوفدِ الحبِّ لو كنتَ منهمُ
فـيـا لـذةَ الأبـصـارِ إنْ هـي أقـبـلـتْ ويـا لَـذَّةَ الأسـمـاعِ حـيـنَ تـكـلَّـمُ
ويا خجلة الغصنِ الرطيبِ إذا انثنتْ ويـا خـجـلـةَ الـفـجـريـنِ حـيـنَ تـبـسَّـمُ
عـنـاقـيـدُ مـنْ كـرمٍ وتـفـاحُ جـنـةٍ ورمـانُ أغـصـانٍ بـهِ الـقـلـبُ مـغـرمُ
تَقَسَّمَ فيها الحسنُ في جمعٍ واحدٍ فـيـا عـجـبًـا مـن واحـدٍ يـتـقـسَّـمُ
فيا خاطبَ الحسناءِ إنْ كنتَ راغبًا فـهـذا زمـانُ الـمـهـرِ فـهـو الـمـقـدَّمُ
وصُمْ يومكَ الأدنى لعلكَ في غدٍ تـفـوزُ بـعـيـدِ الـفـطـرِ والـنـاسُ صُـوَّمُ
وأقـدمْ ولا تـقـنـعْ بـعـيـشٍ مـنـغـضٍ فـمـا فـازَ بـالـلـذاتِ مـنْ لـيـسَ يـقـدمُ
فـحـيَّ عـلـى جـنـاتِ عـدنٍ فـإنـهـا منازلكَ الأولى وفيها المخيمُ[1]

أما هاتفُ القرآنِ وأما دعوةُ الرحمن، فنقول لكلِّ مسلمٍ ومسلمة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ

---

(١) حادي الأرواح، ص: ٣٠، ٣١.

ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١].

اللهمَّ انفعْنا بهديِ القرآنِ وسنةِ محمدٍ ﷺ.

❀ ❀ ❀

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٣- ١٣٥.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ على توافرِ نعمهِ وعظيمِ آلائهِ، وأشكرهُ على فضلهِ ومننهِ، وأسألهُ المزيدَ من فَضْلِه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

أيها الصائمون: هنيئًا لكمْ بشهرِ رمضانَ، إذْ تفتح أبوابُ الجنة، والمصطفى ﷺ يقولُ في الحديثِ المتفقِ على صحته: «**إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ**»[1].

وهنيئًا لكمْ بالصدقةِ- في كل حين- ولا سيما في رمضانَ، وهي سببٌ لدخولِ الجنةِ، وعن حذيفةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**منْ تصدَّقَ بصدقةٍ ابتغاءَ وجهِ اللهِ، خُتمَ لهُ بها دخلَ الجنة**» رواهُ أحمد، وصححَّ إسنادَه العلماءُ كالمنذري والألباني[2].

وهنيئًا لكم معاشرَ المسلمينَ الصائمينَ بالدعاءِ وقبولِه.. وللصائمِ دعوةٌ لا تردُّ، فاسألوا اللهَ من فضلهِ ما شئتم، واسألوهُ الجنةَ ثلاثًا يستجبْ لكمْ، وفي الحديثِ الصحيح: «**مَنْ سألَ اللهَ الجنةَ ثلاثَ مراتٍ، قالتْ الجنةُ: اللهمَّ أدْخِلْهُ الجنةَ، ومنْ استجارَ منَ النارِ ثلاثَ مراتٍ قالتِ النارُ: اللهمَّ أجِرْهُ من النار**»[3].

وهنيئًا لأهلِ التوبةِ بدخولِ الجنةِ، واللهُ يقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

---

(١) خ ١٨٩٨، م ١٠٧٩.

(٢) صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٤١٢.

(٣) رواهُ الترمذي والنسائيُّ وابنُ ماجه والحاكمُ وصححه، ووافقهُ الذهبي، وحسَّنهُ في «السير»، وصححهُ الألباني. المستدرك ١/ ٥٣٤، سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٥٢، صحيح الجامع ح ٦٢٧٥.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾[(١)].

فتوبوا إلى اللهِ جميعًا أيها المؤمنونَ لعلكم تفلحون.. وإذا نوديَ أهل الإيمانِ للتوبةِ فغيرهمْ بالدعوةِ أَحْرى، وبالتوبةِ أَوْلى.

ورمضانُ فرصةٌ واسعةٌ للتوبة، وعونٌ للتائبين، فهل من مُدَّكِر؟

أيها المؤمنون: وهاكمْ خِصالًا تُدخلُ الجنةَ، فقدْ جاءَ أعرابيٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، علِّمْني عملًا يُدْخِلُني الجنةَ، قال ﷺ: «**لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الخطبةُ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ، أَعْتِقْ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ**» قَالَ: أَوَلَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ؟ قَالَ: «**لَا، إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا، وَالْمِنْحَةُ الْوَكُوفُ** (وهي غَزِيرةُ اللَّبن)، **وَالْفَيْءُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ القاطع** (أي العطفُ عليهِ والرجوعُ إليه بالبرِّ)، **فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَاكَ فَأَطْعِمْ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ، وَمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ الْخَيْرِ**»[(٢)].

ألا ما أعظمَ فضلَ الصدقةِ في كلِّ حين! وفضلُها يزدادُ في رمضانَ، وحينَ تشتدُّ حاجةُ المسلمينَ إليها في أيِّ مكانٍ وفي أيِّ لونٍ ونوعٍ من الدَّعم، فلنحرصْ على مواساةِ إخوانِنا المسلمينَ والمشاركةِ لهمْ في هُمومِهم لتخفيفِ معاناتِهم، والمسلمُ للمسلمِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُه بعضًا.

يا مسلمُ يا عبدَ الله، وإياكَ أن تُذادَ عنْ الجنةِ بسوءِ عملِكَ.. وهل علمتَ سَعَةَ أبوابِ الجنةِ؟ وبينَ المِصْراعيْنِ منْ مصاريعِها مسيرةُ أربعينَ عامًا، وليأتينَّ

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٠.

(٢) أخرجهُ الطيالسيُّ وأحمدُ وابنُ حبان- واللفظ له- وصححه الهيثمي والألباني (مجمع الزوائد ٤/ ٢٤٠)، (الإحسان ١/ ٢٩٦ ح ٣٧٥) (مشكاة المصابيح ح ٣٣٨٤).

عليهِ يومٌ وإنه لكظيظ. أخرجهُ أحمدُ ورجالُه ثقات[١].

وفي «البخاري»: **«إنَّ ما بينَ المصراعينِ منْ مصاريعِ الجنة، لكما بينَ مكةَ وهجَر أو هجرَ ومكة، أو كما بينَ مكةَ وبُصرى»**[٢].

وفي روايةٍ ثالثة: **«البابُ الذي يدخلُ منهُ أهلُ الجنةِ مسيرةُ الراكبِ المجوِّد ثلاثًا، ثمَّ إنهمْ ليضَّطغطونَ عليه حتى يكادُ مناكبُهم تزول»**[٣].

وقال ابنُ القيم: وهذا مطابقٌ للحديثِ المتفقِ على صحته (كما بينَ مكةَ وبصرى).

يا عبدَ الله، وحينَ تعلمُ أنَّ الجنةَ درجاتٌ فاجتهدْ في بلوغِ أعلاها منزلةً في العملِ والدعاء، فقدْ صحَّ الخبرُ أنَّ في الجنةِ مائةَ درجة، ما بينَ كلِّ درجةٍ ودرجةٍ كما بينَ السماءِ والأرض، والفردوسُ أعلاها درجةً، منها تفجَّرُ أنهارُ الجنةِ الأربعة، ومنْ فوقها يكونُ العرشُ، فإذا سألتمُ اللهَ فاسألوهُ الفردوسَ[٤].

وفي مثلِ هذا الشهر -بصيامِ نهارهِ وقيامِ ليلهِ وزيادةِ البرِّ والخيرِ فيه- فرصةٌ للعملِ والدعاء، فلا تكُ منَ المحرومينَ أو الكسالى.

آهٍ ثم آهٍ على منْ فرّطَ في سلعةِ اللهِ الغالية، ولطالما امتدتْ إليها الأعناقُ، وتقربَ إليها المُشَمِّرون بصنوفِ الطاعاتِ، فهذا مجاهدٌ في سبيلِ الله يحملُ سلاحَه بيد، ومنيَّتُه بالأخرى ينتظرُ الشهادةَ والجنةَ، وآخرُ قانتٌ آناءَ الليلِ ساجدًا وقائمًا يحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه، وثالثٌ أواهٌ مُخبتٌ مُنيبٌ صادقٌ في نيتهِ

---

(١) حادي الأرواح ص ٨٩.
(٢) خ ٣٣٤٠، ٣٣٦١.
(٣) حادي الأرواح/ ٩٠.
(٤) أخرجه الترمذي، جامع الأصول ١٠/ ٥٠٠، قال المحقق صحيح، وهو عند البخاري بأتم منه.

وعملِهِ، ورابعٌ لا يفترُ عنْ ذكرِ الله قائمًا وقاعدًا وعلى جَنبِهِ، وخامسٌ له همةٌ في الصدقةِ والإحسان.. وهكذا منْ ضروبِ العبادةِ والجهاد.. وحَقٌّ على كلِّ مجتهدٍ يبتغي الجنةَ أن يسعى ما وسعهُ الجهدُ فالمقامُ هناكَ طويلٌ.. والحبورُ كثيرٌ.. والفوزُ عظيمٌ والخسارةُ فادحةٌ، روى مسلمٌ في «صحيحه» منْ حديثِ أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ ﵄ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**يُنَادِي مُنَادٍ يا (أهلَ الجنة) إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**» فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷿: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1]»[2].

أيها المسلمون: يا أهلَ القرآن لا تغرنَّكُمُ الحياةُ الدنيا ولا يغُرنَّكُمْ باللهِ الغرور، ولا تقعدْ بكمُ الشهواتُ الزائلةُ عنْ الجنانِ العاليةِ والأنهارِ الجاريةِ والحورِ والسعادةِ الحَقَّةِ، والموتُ هناك يُنحرُ، وعلائمُ الفرحةِ أو الحسرةِ تظهرُ.. وفي «صحيح مسلم»: «**يُؤتى بالموتِ بينَ الجنةِ والنار- فيعرفونه- ثم يُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ** ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ **وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا**»[3].

عبادَ الله: والطريقُ إلى الجنةِ- مع أنه محفوفٌ بالمكاره- إلا أنه يسيرٌ على من يسَّرهُ اللهُ عليه، وجاهدَ نفسَه في الصبرِ عليه، وأختمُ الحديثَ هنا بذكرِ طريقينِ للجنةِ أحدُهما في العلمِ وآخرُ في العمل، قال ﷺ عنِ الأول: «**مَنْ سَلَكَ**

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٢) مسلم ٢٨٣٧.

(٣) مسلم ٢٨٤٩.

طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّة»(١)، وعنِ الثاني قال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّة»(٢).

---

(١) رواه مسلم ٢٦٩٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، وحسنه الألباني في «السلسلة» ٥٨٩، وصححه في «صحيح الجامع الصغير» ٦٤٧٢.

رمضانُ مدرسةُ الأخلاق(١)

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالنا، منَ يَهْدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يُضلِل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلينَ، وارضَ اللهمَّ عن الصحابة أجمعينَ والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدينِ وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

أيُّها المسلمون: حقًا إن رمضانَ مدرسةُ الأخلاقِ، ومَجمَعُ المكارمِ ومُلتقى الفضائل.. ولكنّ آفةَ عددٍ من الصائمين أنهم لا يُدرِكون هذه الأسرار، أو قد تَغِيبُ عنهم أشياء من حِكَمِ الصيام، ودَعُونا نقفُ اليومَ مُذكِّرين أنفسَنا بشيءٍ من هذه المعاني للصيام، وارتباطِها بتقوية القيَم ومحاسنِ الأخلاق..

وإذا كانت (التقوى) هي الحكمةَ الجامعة النافعةَ من الصيام، والله تعالى يُذكِّرنا بهذه الحكمةِ الجليلة ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(٢)، فثَمَّةَ حِكَمٌ وأسرارٌ وتأثيرٌ للصيام في بناءِ الأخلاقِ الفاضلةِ لمن تأمَّل وحَفِظَ الصيام.. ولو قال قائلٌ: إن للصيام أثرًا عظيمًا في الإخلاصِ والصبرِ، والخوفِ والرجاء، والبِرِّ والصِّلَة، والذِّكرِ والدعاء، والمراقبةِ والحياء، والعِزَّة والحِلْم، والتوبةِ والاستغفار، والحُرية وتهذيبِ الغرائز، والدعوةِ والتربية، والجهادِ والجُود، ونحوِها من الفضائل

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ١٠/ ٩/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

والمكارم، لما كان مُبالغًا، وليس الخبرُ كالمعاينَةَ، فلتقِفْ على شيءٍ من هذا.

فالصائمُ يُربِّي نفسَه على (الإخلاص) وهو يستجيبُ لدعوةِ رسولِ الله ﷺ: «**مَن صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تَقدَّم من ذَنْبِه**» فلا يصومُ رياءً ولا سمعةً ولا مجرَّدَ تقليدٍ للصائمين، بل يصومُ مُخلِصًا لله، راجيًا لثوابِه..

وفي الحديثِ الآخر عند البخاريِّ: «**يَتْرُك طعامَه وشرابَه وشهوتَه من أَجْلي، الصيامُ لي وأنا أَجْزي به**» وأيّ درسٍ في الإخلاص أعظمُ من هذا؟

إن الصومَ -معاشرَ الصائمين- عبادةٌ خفيةٌ، وسرٌّ بين العبد وربِّه، ولهذا قال بعضُ العلماء: الصومُ لا يَدخُلُه الرياءُ بمجرَّد فعله، وإنما يدخله الرياء بمجرد الإخبار عنه، بخلاف بقية الأعمالِ، فإن الرياءَ قد يدخلُها بمجرَّد فعلِها[١].

وفي الصوم درسٌ عمليٌّ للصبرِ ليس في الامتناعِ عن أكلٍ أو شربٍ ما حرّم اللهُ فحسبُ، بل وعمَّا أحلَّ اللهُ من طلوعِ الفجرِ إلى غروبِ الشمس، وفي ذلك ترويضٌ للنفسِ وتهذيبٌ للغرائز، وطردٌ للجَشَعِ والطَّمَع.

ومَن يُطعمِ النفسَ ما تشتهي ... كمَن يُطعم النارَ جَزْلَ الحَطَبْ

لا، بل إنَّ الصيام يُدرِّب الصائمَ على الصبرِ في تَحمُّل الأذى، والحِلْمِ والصَّفْحِ لمن أساءَ له مُكتفيًا بالقولِ: «إني صائم».

أيها الصائمون: أما أَثرُ الصيامِ في الخوفِ والرجاء -وهما جناحانِ لا بُدَّ للمَرْءِ أن يطيرَ بهما إلى الله ونعيمِ الآخرة- فالصائمُ يخافُ ربَّه وحدَه في الحفاظِ على صيامه، وهو يَرجُوه وحدَه في المَثُوبة على صيامه، وإذا كان الصائمُ إنما يصومُ إيمانًا بالله فلا شكَّ أنَّ الإيمانَ خوفٌ ورجاء، خوفٌ من عذابِ الله ورجاءُ رحمتِه وطمعٌ في جنَّتِه.. وهكذا يحقِّقُ الصائمُ المحتسِبُ مَنزِلَتَي الخوفِ

---

(١) محمد الحمد: رمضان دروس وعبر، ص٦٢.

والرجاء، ولا شكَّ أن الصومَ من بواعثِ الخوف، ومُحفِّزاتِ الرجاء، ومَن عَبَدَ اللهَ بالحبِّ والخوف والرجاء فهو المؤمنُ الموحِّد[١].

إي وربِّي إن الصائمَ في رمضانَ مع ما يَعظُمُ عنده من خوفٍ لله.. يَعظُمُ عنده الرجاءُ وهو يسمع «**مَن صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبِه، ومَن قام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبِه، ومَن قام ليلةَ القَدرْ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبِه**».

فهل نُدرِكُ هذه المعاني في الخوفِ والرجاء وفي شهرِ الصيامِ بالذات؟

أيها الصائمون: أما خُلُقُ (المراقبة) فالصيامُ يُزكِّيه ويُنشِّطُه، ذلكم أنَّ الصائمَ يُمسِك عن المُفطِرات كلِّها- الحِسيِّ منها والمعنويِّ- طِيلةَ النهار، فتراه أمينًا على نفسِه رقيبًا عليها، متمثِّلًا هيبةَ مولاه، ومُقدِّرًا رقابتَهَ عليه واطِّلاعَه على كل حركاتِه، فلا يَخطُرُ ببالِه أن يَخرِمَ صيامَه ولو توارى عن الأعيُن، بل هو متواطئٌ أن الله يراه حيثُ كان.. وتلك منزلةُ الإحسان العُظمى، وثمرةُ المراقبةِ في شهرِ الصيام، وكم يحتاج المسلمُ إلى أن يُربِّيَ نفسَه على مراقبةِ الله دائمًا، والعارفون يقولون: لا يُحسِنُ عبدٌ فيما بينَه وبينَ الله إلا أحسنَ اللهُ فيما بينَه وبينَ الناس، والضدُّ بضدِّه.. ويقولون عن أَثَر المراقبة: «إن للخَلْوةِ تأثيراتٍ تَبِينُ في الجَلْوة، كم من مؤمن بالله ﷻ يحترمُه عند الخَلَوات فيتركُ ما يشتهي حذرًا من عقابِه أو رجاءً لثوابِه أو إجلالًا له، فيكونُ بذلك الفعلِ كأنه طرحَ عودًا هنديًا على مَجْمَر فيفوحُ طِيبُه فيستنشقُه الخلائقُ ولا يدرون أين هو؟»[٢].

عبادَ الله: أما (الحياءُ) فهو خُلُق يَبعَث على فعل الحسنِ وتركِ القبيح، ويَمنَع

---

(١) محمد الحمد: رمضان دروس وعبر، ص ٢٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨١.

من التقصير في حقِّ ذي الحقِّ.. وهذا يَدعمُه الصيامُ ويقوِّيه رمضانُ، والصائم بحِفْظه لصيامِه يراقبُ اللهَ ويستحي منه، إذ كيف يُقدِمُ على منكرٍ من القول أو الفعل وهو صائمٌ، ويستحي أن يؤذيَ مسلمًا وهو صائم، وهكذا يَغلِبُه الحياءُ كلما همّت نفسُه الأمّارةُ بالسوءِ بما يَخرِمُ الصيامَ ولا يتناسب وشهرَ الصيامِ..

ألاَ ما أحوجَنا إلى الحياء في حياتنا كلِّها، والحسنُ رحمه الله يقول أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان عاقلًا، ومن تعلّق بواحدةٍ منهنَّ كان من صالِحِي قومِه: دينٌ يُرشِدُه، وعقلٌ يُسدِّدُه، وحَسَبٌ يصونُه، وحياءٌ يقودُه.

ومن حِكَم الشِّعر:

ولقد أَصرفُ الفؤادَ عن الشيءِ حياءً وحبُّه في الفؤاد
أُمسِكُ النفسَ بالعفافِ وأُمسي ذاكرًا في غدٍ حديثَ الأعادي

أيها المسلمونَ: أما (الحِلْم) وما أدراك ما الحِلمُ؟ ذلك الخلق العزيزُ، فلِلصَّوم تأثيرٌ ظاهرٌ فيه، كيف لا والصائمُ يُقال له: «**وإذا كان يومُ صومِ أحدِكم فلا يَرفُثْ ولا يَصْخَبْ، فإن سابَّهُ أحدٌ أو قاتَلَه فليقلْ: إني امرُؤٌ صائمٌ**» أخرجاه في «الصحيحين».

إن الصائمَ تهدأُ نفسُه ويسيطر على مشاعرِه، ويتنازلُ عن جهلِ الآخرين عليه، ولا يُستفَزُّ فينتقمُ لنفسه، بل يعفو ويصفحُ ويتجاوز ويَغفِر.. وهذا مِقْودُ الحِلْم وزمامه -وكم هو فضل من الله لمن يملكون زمام أنفسهم بالحلم والصَّفح وإن قَدِروا على المجازاةِ والانتقام، وفي هذا يُذكَر أن الأحنفَ بنَ قيسٍ شَتَمَه رجلٌ وجعل يَتْبعُه حتى بلغ حَيَّه، فقال له الأحنف: يا هذا، إنْ كان بقيَ في نفسِك شيءٌ فهاتِه وانصرِفْ، لا يَسمَعْك بعضُ سفهائنا فتلقى ما تكرَهُ.. ولذا تغنَّى الشعراءُ بهذه النوعيةِ من الأصحاب التي تقتربُ من صاحبها وإن جَفَى عليها، ويقول أحدُهم (أبو العتاهيَة):

وإني لـمَشتـاقٌ إلـى ظـلِّ صـاحـبٍ يَـرِقُّ ويَـصـفُـو إن كَـدِرْتُ عـلـيـهِ

فهل نتعلَّمُ -يا تُرى- من رمضانَ الحِلمَ، ونمارسُ الحِلْمَ في رمضان وغيرِه؟

أيها المسلمون: أمّا (الجهادُ والجِدُّ) ففي مدرسةِ رمضانَ متسعٌ لهما، كيف لا وأسلافُنا- وفي مقدّمتِهم نبيُّنا محمدٌ ﷺ، خاضوا أكثرَ من معركةٍ في رمضان ابتداءً من يوم الفُرْقان في (بدرٍ) وانتهاءً بالفتح الأعظم في (فتح مكةَ) ودخولِ الناس في دينِ الله أفواجًا، وما فَتِئَ المسلمون بعدَهُم وما زالوا يجاهدونَ أعداءَ الإسلام في رمضان، حتى زمانِنا هذا.

وفوق ذلك فجهادُ المسلمِ في رمضان وجِدّيُته وصقلُ إرادتِه في شهر الصيام لا تقفُ عند حدِّ المعاركِ الحربية، بل تتعدَّاها إلى جهادِ النفس ومغالبة الشهواتِ والانتصارِ على دواعي الرذيلةِ ومُنكَراتِ الأقوال والأفعال..

أجلْ إن الصائم الحقَّ يحفظُ لسانَه عن الكذب والغِيبةِ وقولِ الزُّور، ويحفظ سمعَه وبصرَه عن السماع والنظرِ المحرَّم أيًّا كان شكلُه، ومهما كانت دواعِيَه، كما يحفظ رجِلَه عن المشي للحرامِ، ويدَه من تناولِ الحرام، وهكذا ينتصرُ الصائمُ في معركة الشهواتِ والشُّبُهات، ويجاهدُ نفسَه وشيطانَه فتكتملُ له أسهمُ الجهاد.. ويتوفرُ له الجِدُّ، وهذه التربية الجهاديةُ حَرِيَّةٌ بأن تستمرَّ مع المسلم بعد رمضان، فالعبادةُ لله لا أَجلَ لها دون الموتِ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[1]، والله يهدي المجاهدي ويُسدِّدُهم ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

❁ ❁ ❁

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله صاحبِ الفضلِ والجُودِ والإحسان، أَحمَدُه تعالى وأشكرُه وأسألُه المزيدَ من فضلِهِ، والتوفيقَ لنَفَحَاته، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، أعطى ومَنَع، وهو أحكمُ وأعلم، ومن يَسألِ اللهَ يُوصَل، واللهُ أغنى وأكرمُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله.. كان مثالًا للخُلُق الكريم، والجُود العميم، وهو في رمضانَ أَجْودُ، وما فَتِئ يُذكِّر أُمتَه ويدعوها إلى مكارمِ الأخلاق ومعالي القِيَم حتى أتاه اليقينُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائرِ النبيين والمرسَلين.

أيها المسلمون: يتفاوت الناسُ في الاستفادةِ من مدرسة الصوم وتطويعِ النفس على الأخلاقِ الفاضلة على الدوام، فمِنَ الناس من لا يستفيدُ- ولا في رمضانَ- في إصلاح خُلُقِه وتزكية نفسِه، وهذا الصنفُ ظنَّ أن الصيامَ إمساكٌ عن الطعامِ والشراب فحسبُ، وجَهِلَ حكمةَ الصيام وتقوى الصيام- وعسى أن تكون هذه الفئةُ قليلةً في مجتمع المسلمين- ومن الناس من يستفيدُ من درسِ رمضانَ ويَنهَلُ من مدرسةِ الأخلاق في شهرِ الصيام لكنه يَضعُف عن المواصلة بعدُ، وربما فَهِمَ خطأً أنَّ تركَ الحرام، أو عدَم التقصير في الواجبات من سِمَات رمضانَ فقط، فإذا انتهى شهرُ رمضانَ عاد إلى ما كان عليه من تَرْكِ الواجباتِ كالمحافظة على الصلواتِ مع جماعةِ المسلمين، ونحوِها من واجبات الدِّين، وإلى فِعْل المحرَّمات كأكل الربا والغِشِّ والخداع والغِيبةِ والنَّميمة والفُحْش والبِذاءِ وشُرْب الدخانِ، وربما تجاوز إلى المخدِّرات.. أو نحوها من المحرَّمات.

ولهؤلاء يُقال: إنّ رمضانَ محطةٌ للتزوُّد، ووسيلةٌ لتربية النفسِ في رمضانَ وبعدَ رمضان، وبئسَ القومُ لا يعرفونَ اللهَ ويَخشَوْنَهُ إلا في رمضانَ.

أما الصنفُ الثالث فهم المُصطَفَوْنَ الأخيار، وهم الذين وفَّقهم الله لتزكية نفوسِهم في رمضان، ثم واصلوا تزكيتَها في سائرِ العام، وكلما مَسَّهم طائفٌ من الشيطان أو ضَعُفت نفوسُهم عن المَعالي، تذكَّروا فإذا هم مبصرون، وتابوا وأنابوا إلى ربِّهم، وما يزالون في جهادٍ لأنفسِهم ومجاهدةٍ لأهوائهم حتى يَلقَوْا ربَّهم.

وهنا لَفْتةٌ وتنبيهٌ وذِكرى للصائمين عن أمرٍ نحتاجُ إليه جميعًا، وهو في عِداد مدرسةِ الصوم والأخلاقِ الفاضلة في رمضان- إنها التوبةُ، وإنما يَحسُن الحديثُ عن التوبةِ في كل حين، ولكنه يَطِيبُ أكثرَ في رمضان، لأنه موسمٌ للرجوعِ والإنابة، والنفوسُ تَجِدُ في هذا الشهرِ عَوْنًا على التوبة من الأخطاءِ والسيئاتِ أكثرَ من غيره، وإلا فكلُّنا وفي كل حينٍ مدعوُّون من ربِّنا للتوبةِ ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

ولكنَّ التوبةَ منها ما هي واجبةٌ ومنها ما هي مستحبَّةٌ، فالتوبةُ الواجبةُ هي التي تكون من فِعْل المحرَّماتِ وتركِ الواجباتِ، وهذه لا ينبغي التساهلُ والتأخيرُ فيها، والتوبةُ المستحبَّة إنما تكون من فعل المكروهاتِ وتركِ المستحبَّاتِ، وهذه يليقُ بالمسلم أن يدرِّبَ نفسَه عليها حتى لا تخترقَ المكروهاتِ إلى المحرَّمات، وحتى لا تتجاوزَ في التساهل من المستحبَّاتِ إلى الواجبات.

وإذا دعانا اللهُ إلى (التوبةِ النَّصُوح) فقد قال أهلُ العلمِ عنها: إنها الخالصةُ الصادقةُ، الناصحةُ، الخاليةُ من الشوائبِ والعِلَل، وهي التي تكون من جميعِ الذنوبِ فلا تَدَعُ ذنبًا إلا تناولَتْهُ، وهي التي تدعو صاحِبَها إلى عدم الترددِ والتلوُّمِ

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

والانتظار، وهي التي تقعُ لِمَحْضِ خوفِ الله وخَشْيتِه، والرغبةِ والرهبةِ له سبحانه..[١].

وهنا بُشرى وذِكْرى للتائبينَ، إذ يُقرِّر العلماءُ رجوعَ الحسناتِ إلى التائب بعدَ التوبة، فإذا كان للعبدِ حسناتٌ ثم عمل بعدَها سيئاتٍ استغرَقَتْ حسناتِه القديمةُ وأبطلَتْها، ثم تاب بعدَ ذلك توبةً نَصُوحًا، عادت إليه حسناتُه القديمةُ، ولم يكن حكمُه حكمَ المستأنِفِ لها، بل يُقال له: تُبتَ على ما أسلفتَ من خير، وفي هذا يقول ابنُ القيِّم رحمه الله مبيِّنًا العِلَّةَ في ذلك: «وذلك لأن الإساءةَ المُتَخَلِّلَةَ بين الطاعتينِ قد ارتفعَتْ بالتوبةِ وصارت كأنها لم تكن، فتلاقتِ الطاعتانِ واجتمعتا، والله أعلم»[٢].

ألاَ ما أعظمَ فضلَ الله على التائبينَ! ألا أن رمضانَ فرصةٌ للتوبة وبابٌ للسعادةِ، ومدرسةٌ للأخلاقِ الفاضلة، ونافذةٌ للفلاحِ والاستقامةِ.

أخي الصائمَ، اربأْ بنفسِكَ أن يمرَّ عليكَ شهرُ دون أن تستفيدَ من حِكَمِه وأسرارِه، وحَنانَيكَ أن تَقصُرَ هذه الفائدةَ على أيامٍ معدودة، بل اجعل من رمضان فرصةً لتزكية نفسِك طِيلةَ العامِ، والله يقول: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[٣] أي: طَهَّرَها من الذنوبِ ورقَّاها بطاعةِ الله، وعلّاها بالعلمِ النافع والعمل الصالح، واحذَرْ من إخفاءِ نفسِك الكريمةِ وتدنيسِها بالرذائل، واستعمالِ ما يَشِينُها ويدنِّسُها، والله يقول: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٤] أي: أخفاها في مزابلِ

---

(١) محمد الحمد: رمضان دروس وعبر، ص٢١٤.

(٢) عن: محمد الحمد: رمضان دروس وعبر، ص٢١٦.

(٣) سورة الشمس، الآية: ٩.

(٤) سورة الشمس، الآية: ١٠، تفسير السعدي ٧/ ٦٣٣.

المعاصي، وأماتَ استعدادَها للخير بالمداومةِ على اتّباع طرقِ الشيطان وفعل الفجور[١].

أيها المسلمُ، أيها الصائمُ: واختِمْ بما ينبغي أن يُختَمَ به، فما هو؟ إذا أردتَ تكميلَ عملِك وترقيعَ خطئِك فعليك بـ (الاستغفار) فاختِمْ به كلَّ عملٍ تؤدِّيه، فقد خُتِم به في الصلاة، والحجّ، وقيامِ الليل، والمجالس، وبه خُتِم عُمرُ محمدٍ ﷺ وجهادُه ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾[٢]، وبه يُختَم شهرُ رمضانَ، وقد كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضان بالاستغفارِ وصدقةِ الفِطْر»[٣].

إن الاستغفارَ يَسِيرٌ في نُطقه، عظيمٌ في مدلولِه وأَثرِه، فقد جَمَعَ اللهُ بينَه وبينَ التوحيدِ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[٤] وقال شيخُ الإسلام: ومِن هنا رَوَى أبو هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «ما رأيتُ أحدًا أكثرَ أن يقولَ: أَستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، من رسولِ الله ﷺ»، فهذا أكملُ الخَلقِ إيمانًا أكثرُهم استغفارًا.

ويُروَى من وصايا لُقْمانَ لابنِه: «يا بنيَّ عَوِّدْ لسانَك الاستغفارَ، فإن لله ساعاتٍ لا يَردُّ فيها سائلًا»[٥].

وقال قَتَادةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ هذا القرآنَ يدلُّكم على دائِكم ودوائِكم، فأما داؤكم فالذنوبُ، وأما دواؤُكم فالاستغفارُ».

---

(١) محقق تيسير الكريم الرحمن- تفسير السعدي ٧/ ٦٣٣.

(٢) سورة النصر، الآية: ٣.

(٣) محمد الحمد: رمضان دروس وعبر، ص١٩٢.

(٤) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٥) محمد الحمد: رمضان دروس وعبر، ص١٩٣.

ألا فأكثِروا من الاستغفارِ معاشرَ المسلمين ليرقعَ أخطاءَكم، وأَكثِروا من الاستغفارِ معاشرَ الصائمين ليرقعَ ما انخَرَمَ من صيامِكم، وبذِكْر الله عمومًا تطمئنُّ القلوبُ، وبالاستغفارِ تنصرِمُ الذنوبُ.

وبعدُ: فحقٌّ على كلِّ صائمٍ أن يسأل نفسَه: وماذا بقي له من آثارِ الصيام؟ وماذا سيخلّفه في حُسْن الأخلاق وكريمِ الخِلَال؟ اختبِرْ نفسَك في الإخلاصِ في رمضانَ وبعدَ رمضان.. وصارحْ نفسَك عن المراقبةِ والحياء، والحِلْم والكَرَم والجِدّ والجهاد والبِرّ والصِّلة، والذِّكرِ والدعاءِ والتوبةِ والاستغفارِ ونحوها.. ما حالُها في رمضانَ وبعدَ رمضان؟

يقول ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: شهادةُ التوحيدِ تفتحُ بابَ الخير، والاستغفارُ يُغلِقُ باب الشر[1].

ويُروَى عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: الغِيبةُ تَحرِقُ الصيامَ والاستغفارُ يرقّعُه، فمنِ استطاعَ منكم أن يأتيَ بصيامٍ مُرقع فليفعل[2].

اللهمّ إنا نستغفرُك ونتوبُ إليكَ من جميعِ الذنوب والخطايا، اللهمَّ أنت ربُّنا لا إله إلا أنت خلقتَنا ونحن عبيدُك ونحن على عهدِك ووعدِك ما استطعْنَا، نعوذُ بك من شرِّ ما صنعْنَا، نَبُوءُ لك بنِعمَتِك علينا ونبوءُ بذنوبِنا فاغفِرْ لنا، فإنه لا يَغفِرُ الذنوبَ إلا أنت.



(١) محمد الحمد: رمضان، ص١٩٤.

(٢) محمد الحمد: رمضان، ص١٩٢.

هجمات (التتر) بين الماضي والحاضر[1]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفُسنا ومن سيئاتِ أعمالِنا.. إخوةَ الإسلام، يظن بعضُ الناس أنَّ الهجومَ التتريَّ الشرِسَ على العالم الإسلامي حِقْبةٌ زمنية وانتهت، وأن الحملاتِ الصليبيةَ الوحشيةَ على المسلمين ومقدَّساتِهم نمطٌ من أنماطِ العداوة بين الكفارِ والمسلمين لن يتكررَ لها مثيلٌ، وهذا ظنٌ خاطئٌ، يكذِّبُه الواقعُ المعاصر ويعيدُ اليهودُ والنصارى فصولَه جزعة هذه الأيام... ولعل من المناسبِ أن نَعرِضَ للهجمتين التتريَّتينِ في الماضي وكيف كان موقفُ المسلمين فيهما.. ثم نَعرِض لشيء من الهجماتِ التتريةِ المعاصرة وأهدافِها، وماذا ينبغي أن يكون موقفُ المسلمينَ حِيالَها.

أيها المسلمون: لم يكن بين فاجعةِ المسلمين في بغدادَ وسقوطِ الخلافةِ العباسية على أيدي التترِ سنة (٦٥٦هـ)، وبين عزِّ المسلمين وانتصارِ الإسلام وهزيمة التتار في عين جالوتَ (٦٥٨هـ) سوى عامينِ فقط.. فما هي أسبابُ الذلِّ والهوانِ في الأُولى؟ وما هي عواملُ النصرِ والعزّة في الأخرى؟

إن المتأملَ في أحداث التاريخِ يرى أن إعصارَ التتر كان جارفًا قَدِمَ من المشرقِ فأباد عددًا من الدول والممالِكِ، وأفنى ما لا يُحصَى من البشر، وعاثَ جيشُه في الأرضِ الفسادَ... لا ينتهي عند حدودِ السيطرةِ السياسية والمكاسبِ الاقتصادية، بل قَصَدَ الدينَ والخُلُق والعِرضَ بالفساد...

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٩/ ١٠/ ١٤٢٣هـ.

وكذلك يفعلُ المجرمون. وحين كان التتارُ على أعتابِ بغدادَ هُزم المسلمون من داخلِهم قبل أن تَحِيقَ الهزيمةُ بهم على أيدي عدوِّهم...

أجل لقد كان الوزيرُ الرافضيُّ ابنُ العلقميِّ متمكنًا في الدولة وصاحبَ رأي عند الخليفة المستعصِم بالله، وهو الذي أشارَ على الخليفة: أن لا قِبَلَ للخلافةِ الإسلامية بمقاومة الجيش التتريِّ، وأنَّ على الخليفة أن يبعثَ بوفدِ سلامٍ إلى هولاكو محمَّلًا بالهدايا القيِّمة، فوافق الخليفةُ على هذا العرضِ ونفَّذ الرأيَ المتهالِك. واعتبر التترُ هذه الهدايا جزءًا مما يستحقونَ ولم يَمنعْهم ذلك من الهجوم الوحشيِّ على البلادِ والعباد، حتى كانت المصيبةُ المشهورة والتي لم يَسلَمْ منها الأميرُ والمأمور والمستشيرُ والمستشار، بل شَمِلَت -كما قال ابنُ كثير رحمه الله- مَن قدروا عليه من الرجالِ والنساءِ والوِلْدان والمشايخِ والكهولِ والشبان..

أيها المسلمون: وحين نتوقفُ عند هذه الحادثة بفصولِها وملابساتِها نرصدُ الدروسَ التالية:

١- أثرُ المنافقين في فَناءِ الدُّول وتدميرِ الشعوب، ولئن كان عددٌ من الأسبابِ وراءَ مأساة المسلمين في بغدادَ، فإن دَوْرَ الرافضةِ والمنافقينَ ولا شكَّ كان من أقوى هذه الأسبابِ في تدميرِ التتر لبلادِ المسلمين.

٢- إن الفسادَ الواقعَ من فئةٍ، والتخاذلَ الحاصلَ من الملأ لا يقفُ بآثاره عليهم وحدَهم، أو من يَدُور في فَلَكِهم، بل يَشمَلُ غيرَهم... وفي مأساةِ بغدادَ أحصى المؤرِّخون ألفي ألفِ نفسٍ قُتلت، أي (مليونَي قتيلٍ) من الرجالِ والنساءِ والشيوخ والأطفال... هذا فضلًا عن تدميرِ الدولِ ونهاية الخلافةِ الإسلاميةِ في بغداد.

٣- ولو أنّ الخلافةَ قاومَتْ والمسلمينَ جاهدوا لَمَا خَسِروا هذا العدد، ولو هُزِمُوا لكان لهم عذرٌ في الهزيمة... أما إذ وقعتِ الهزيمةُ أولًا وآخرًا، واستسلمَ المسلمون للعدوِّ وما سَلِموا، فتلك هي المصيبةُ العُظْمى والخسارةُ المضاعَفة.

٤- والعدوُّ إذا ظَفِرَ بالمسلمين لا ينظر للأُعطيات ولا يلتفتُ للهِباتِ، ولا يتوقفُ عند حدودِ المقدَّرات المادية، بل يريد الوصولَ إلى الأخلاقِ والقِيم وتدمير الهُوية وسَلْخ الأمة عن عقيدتها ودينِها، وكذلك صنع التتارُ بالمسلمين، وكذلك يحاول خلَفُهم من بعدِهم.

إخوة الإيمان: أما الحادثة الأخرى فكانت سنة (٦٥٨هـ) وكان موعد التتر مع المسلمين مع حاكم مصر مع الملك المظفر (قطز) وذلك بعد أن دمر التتر بغداد، وواصلوا زحفهم إلى بلاد الشام فدخلوا (حلب) بالأمان ثم غدروا بأهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال، وجرى على أهل حلب قريب مما جرى على أهل بغداد[١]، فجاسوا خلال الديار، وجعلوا أعزة أهلها أذلة.. ثم وردوا (دمشق) فأخذوها سريعًا من غير ممانع ولا مدافع.. وهكذا نهبوا البلاد كلها حتى وصلوا إلى (غزة).

وحين بلغ الخبر (قطز) صاحب مصر.. أدرك أن هؤلاء المتوحشين لا أمان لهم ولا عهد، فأراد أن يبادرهم قبل أن يبدئوه... واستشار الرجال من حوله فأيدوه... وكان في مقدمة مستشاريه الأئمة والعلماء والقادة وأهل الجهاد... وكان يوم الخامس والعشرين من شهر رمضان - في هذه السنة - موعدًا للنصر والظفر والعزة للإسلام وأهله في معركة (عين جالوت) الشهيرة.

---

(١) كما قال ابن كثير في «البداية والنهاية» ١٣/ ٢٠٧.

ووقفتنا لهذا النصر في عين جالوت تتمثل في النقاط التالية:-

١- الفرق بين البطانة كبير بين هزيمة المسلمين في بغداد وانتصارهم في (عين جالوت).. والفرق كذلك بين همم القادة للجهاد.. واستسلامهم للعدو يؤثر على مجريات الأحداث ونتائج المعارك.

٢- الجهاد وسيلة الأمة المسلمة للنصر والتمكين، وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا وأصيبوا من قبل الأعداء، والتاريخ خير شاهد.

٣- لم يكن ينقص المسلمين في بغداد العدد والعدة، ولكنه الضعف والهوان والخيانة وبطانة السوء... ولم يكن المسلمون في (عين جالوت) أكثر عددًا ولا عدة... ولكنها القوة الإيمانية والشعور بالعزة ورفض الهوان والتبعية، وصدق المشورة وأثر البطانة الصالحة قادت أولئك إلى النصر والغلبة، وعكسها أذل المسلمين وهزمهم في بغداد.

٤- ولم يكن التترُ المنهزمون في عين جالوت أقلَّ عددًا ولا أقلَّ عُدَّة منهم حين دخلوا بغداد.. بل إن انتصاراتهم في بغدادَ والشامِ زادت من قوّتِهم ورفعت من سهامِهم وعاظمت من كبريائِهم، ومع ذلك قاومهم المسلمون في عين جالوت ولم يَهِنوا في مقاتلةِ عدوِّهم حتى مَكَّنهم الله من رقابِهم فردُّوهم على أعقابهم خاسرين، بل أعادوا للمسلمين هيبتَهم وللإسلامِ عزَّه ومجدَه.

إخوةَ الإسلام: والتاريخُ عِبَر، والأيامُ دُوَل، وما أشبهَ الليلةَ بالبارحةِ... واليومَ يجتاح العالَمَ الإسلاميَّ غزوٌ تتريٌّ معاصرٌ بهُويّةٍ صليبيةٍ صُهْيونية... يُعِدُّ لمعركةٍ في بلد حتى إذا أفنى الحرثَ والنَّسلَ انتقل إلى أخرى.. ثم هو يجهِّز الثالثةَ وهكذا، وهو في كلِّ معركةٍ يبحث له عن مبرِّرٍ، ويخدع السُّذجَ

بأسبابِ وأهدافِ الحربِ، ومهما اختلفت وجهاتُ النظرِ في أسباب ضربِ الأمريكانِ للأفغان.. فلا أظنُّها تختلفُ في عدم وجود مبرِّرٍ لها في ضربِ العراق... وما عَلاقةُ حصارِ العراق وضربِه بأحداث الحادي عشرَ من سبتمبر؟ ومع أن العراقَ حاول قطعَ الطريقِ على أمريكا فسمح للمفتِّشينَ بدخولِ العراق... إلا أن أمريكا فيما يظهرُ مصرَّةٌ على ضربِ العراق، حتى ولو غنَّى أبناءُ بغداد النشيدَ الوطنيَّ لأمريكا - كما قيل -، ومهما كان نظامُ صدَّام غاشمًا فهل يجيزُ ذلك ضربَ شعبِ العراق واحتلالَ أرضِه ومقدَّراتِه؟ هذا لو كان المخطَّطُ يقف عند حدودِ العراق، فكيف والمخططُ أبعدُ من ذلك؟

وهنا يَرِدُ السؤالُ: ما موقفُ العالمِ الإسلاميِّ من هذا الهجوم الغربي على بلادِ المسلمين؟ وهل يجوز السكوتُ والعالمُ النصرانيُّ وبمؤازرةٍ من اليهود يَعِيثون فسادًا في بلادِ المسلمين؟ وكلما انتَهوا من معركةٍ استعدُّوا لأختها.. في مخططٍ واسعِ الانتشار بعيدِ الأمد.. من الخطأ والتغفيل أن يوقفَ عند حدود الحادي عشرَ من سبتمبر.. بل هو يُعَدُّ ويُصنَع في دهاليز الساسةِ واللجانِ المتخصصةِ قبل ذلك بسنينَ. فإن قيل: فما الدليلُ؟ أجيب: بأن قانونَ الاضطهادِ الغربيَّ الأمريكيَّ خيرُ برهانٍ. فما الذي يَهدِفُ إليه القانون؟ ومتى صدر؟ لقد صدر القرارُ في أيام (كلينتون) عام ١٩٩٧م.

وهذا القانون يرفضُ في الواقع الدينَ والثقافةَ والتقاليدَ التي ترى أمريكا أنها عقبةٌ أمام حرّيةِ الأديان؟ ويؤكد القانونُ على أن تتحوَّل الدولُ الإسلاميةُ -بعد سنواتٍ- إلى أن تكونَ دولًا عِلْمانيةً وتنتهجُ سياسةَ المساواةِ في الأديانِ، وتُستبدَلُ وزاراتُ الشئونِ الإسلامية بوزاراتِ الأديان، ويتيحُ القانونُ لأمريكا حقَّ مَنْحِ المساعدات أو الحصارِ حَسَبَ تعاملِ هذه الدول مع الأقلّيّات الدينية

في بلادِها.. إلى غيرِ ذلك من بنودِ هذا القانونِ الظالم[١]، والذي يمارَسُ هو تطبيقُ فصولِه هذه الأيام..

ولكن ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[٢]، وصدق الله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر إلى أسرار قانون الاضطهاد في صحيفة المحايد، العدد ٤٢ في ٢٤/٨/١٤٢٣هـ.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الطارق، الآيات: ١٥- ١٧.

الخطبة الثانية:

أيُّها المسلمون: لقد أصبحَ الإسلامُ وعالَمُه -بعد أحداثِ الحادي عشرَ من سبتمبر- مستهدَفًا من قِبَل الإدارةِ الأمريكيةِ والقُوى الصُّهيونية، وأصبح زعماؤُها يروِّجون لأنواعٍ من الاستعمارِ الجديد والهيمنةِ على عددٍ من البُلدانِ الإسلامية، وها هيِ إسرائيلُ اليومَ تحاصرُ الفلسطينيين، بل تحاول أن تجتثَّهم من الوجود، تَهدِمُ بنيانَهم، وتقتلُ أبناءَهم، وتشرِّدُ أطفالَهم ونساءَهم وتستعمرُ أراضيَهم.. بل وفوقَ ذلك فهي تحلُمُ بإسرائيلَ الكبرى -من النيلِ إلى الفُرات- وإن تراجعَتْ هذه الأحلامُ في هذه الأيامِ على أيدي المجاهدين الفلسطينيين حيث باتَ اليهودُ لا يَأمَنون -وهم في داخلِ الأراضي المحتلَّة- على أنفسِهم، وأصبحوا يعيشونَ حالةً من الفزعِ والارتباكِ والوقوعِ في براثن الموت المُتَرصِّد لهم في كل مكان - في وسائلِ النقلِ العام، وفي الحدائقِ العامة، والمجمَّعات التجارية، بل وهم يأكلون أو يَلهُون في حال نومِهم أو يقظتِهم، وفي حال عملِهم أو عُطلتِهم.

وذلك مردودٌ إيجابيٌّ لحركةِ الجهادِ والعملياتِ البطوليةِ التي ينفِّذُها أبطالُ المقاومة.

أيها المؤمنون: إذا كان ما يصنعُه اليهود جِهارًا نهارًا في الأراضي المحتلّةِ في مقدَّساتِ المسلمين.. فطرَفُ الأفعى الأخرى يمثِّلُها النصارى الذين باتوا يتسلَّلون جِهارًا كذلك لبلادِ المسلمين.

وإن ما يجري في أفغانستانَ وفلسطينَ، واستهدافَ العراقِ والسودانَ، والإشارةَ إلى تقسيمِ بعضِ البلدان المجاورةِ وتهديدِها، ما هو إلا بعضُ ما ظهرَ من خفايا الإستراتيجيةِ الأمريكيةِ ونواياها تجاهَ البلدان الإسلامية، وما الهجومُ العنيفُ الذي يَشُنُّه الإعلامُ الأمريكيُّ -هذه الأيامَ- ومِن ورائِه القوى الصهيونيةُ

والنصرانيةُ واليمينية المتطرِّفةُ ضدَّ الإسلامِ ورسولِه ﷺ وشعوبِ العالم الإسلاميِّ ودولِه -وفي مقدمتِهم المملكةُ العربيةُ السعودية- إلا فصلٌ من فصولِ تلك الهجمة الشرِسَة.

وإن إصرارَ الإدارةِ الأمريكيةِ على استخدام القوة والتعدِّي على دولِ المنطقةِ يعيد إلى الأذهانِ الحَمَلاتِ الصليبيةَ وحِقْبةَ الاستعمار.

أيها المسلمون: وإزاءَ ما يجري هذه الأيامَ وما يُخطَّط له في المستقبلِ لا بدَّ من التذكيرِ بالأمور التالية:

١- الشعور الواعي بما يُراد للأُمةِ المسلمةِ شعوبًا ودولًا، قيمًا واقتصادًا وسياسةً ومصيرًا مظلمًا.

٢- ولا بدَّ من إدراكِ الدوافع وراءَ هذه الحَمَلات العسكرية والإعلامية، والعالِمون يقولون: إن من دوافعِ الإدارةِ الأمريكية لضربِ العراق والعَبَثِ بأمنِ المنطقة العربية، تدميرَ هُويةِ الأمة المسلمة ونشرَ الثقافةِ الغربية في المنطقة، والسيطرةَ على ثرواتِها من بترولٍ وغيرِه، والتغطيةَ على فشلِها في تحقيق أهدافِها التي أعلنَتْها في أفغانستان، وإشغالَ المنطقةِ بالمزيدِ من التوتُّرِ والقلاقل، والحيلولةَ دونَ التنمية، وحمايةَ أمنِ إسرائيل وضمانَ تفوُّقِها في المنطقة، والقضاءَ على الانتفاضةِ المبارَكة التي أقلقت أمنَ إسرائيل وضربتْ اقتصادَها في الصميم.

أيها المسلمون: ومن المفارَقاتِ العجيبةِ أن العدوَّ الغاشمَ لا يقيم وزنًا للجثث الهامدةِ من أبناءِ المسلمين، ولا يتورَّعُ عن ضربِ الأطفال الرضَّع والشيوخِ الركَّع السجَّد، والنساءِ الضعيفاتِ العُزَّل، في وقتٍ تقوم شعوبُهَ على تدليلِ الحيوانات والعنايةِ بها إلى حدٍّ تقول معه التقاريرُ: يعيش أكثرُ من ٦٠

مليون كلبٍ وقطة مدلَّلةٍ في بيوتِ الأمريكان، وهذا العددُ يقارب عددَ سكان الخليج بثلاثِ مرات.

وتقول لغةُ الأرقامِ كذلك: إن المبالغَ المصروفةَ على الكلاب بلغت في بعضِ دول أوروبا إلى ٣,٤٥ بلايين جُنيهٍ إسترليني، منها بليونا جنيهٍ ثمنُ طعامها فقط، وباقي المصروفاتِ توزَّعت على أجورِ الأطباء والترفيهِ والتأمينِ ضدَّ الأمراض الذي وصل وحدَه إلى ١٤٨ مليون جنيه إسترليني[١].

قارنوا بينَ ما تَحظَى به الكلابُ من نعيمٍ في بلادِ الغرب، وما تلقاه الشعوبُ المسلمةُ من نَكَالٍ وجحيمٍ على أيدي الغربِ أنفسِهم. تلك حضارتُهم وتلك نظرتُهم لشعوبنا وترفيهُهم لكلابهم؟

٣- ولا بدَّ للعالَم الإسلاميِّ بشعوبه وحكوماته -وبإزاءِ هذه الهجمةِ الشَّرِسة- من استشعارِ الخطر والتفكير الجادِّ في الحلول الصادقةِ بَدْءًا من استصلاحِ النفوس وصِدْقِ التوجُّه إلى الله على مستوى الأفرادِ ومرورًا بإعدادِ العُدَّة التي أمر اللهُ المؤمنين بها في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[٢] على مستوى الدول، ولا بدَّ على مستوى الأُمة من توحيدِ الكلمة وجمعِ الصفوف ونَبْذِ الفُرقةِ والخلافِ والتشرذُم، فتلك أدواءٌ يطربُ لها العدوُّ ويتسلَّل إلى المسلمينَ على جسورِها.

٤- ولا بدَّ أن تدركَ الأمةُ المسلمةُ أن الجهادَ في سبيل الله قَدَرُها وسبيلُ عزَّتها وكرامتِها، وهو السبيلُ لمقاومةِ الغزو التتريِّ المعاصرِ كما كان من قبلُ سبيلَها لمقاومةِ الغزو التتريِّ في الماضي، لا بدَّ أن تَعِيَ الأمةُ المسلمةُ وصية

---

(١) زمن الكلاب: فهد عامر الأحمدي، جريدة الرياض، الخميس ٨/ ١٠/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

نبيِّها محمدٍ ﷺ حيث قال: «وما تَرَكَ قومٌ الجهادَ في سبيلِ الله إلا ذَلّوا».

٥- ولا بدَّ للأُمة أن تتخلَّصَ من المنافقينَ والأدعياءِ وأدلاَّءِ الطريق للعدوِّ.. فأولئك -هم العدوُّ- كما أخبرَ اللهُ، وأولئك لا يريدون للأمةِ إلا توهينَها وضعفَها، ولو خرجوا مع المجاهدينَ ما زادوهم إلا خبالًا ولأوضعوا خلالَهم يبغونَهُم الفتنةَ.. وكم غُزِيَت الأمةُ بالتعاونِ مع هؤلاء، وكم سُلِبت البلادُ بفعل خيانةِ هؤلاء.

٦- ولا بدَّ للعلماءِ والدعاةِ والمفكرين أن يتقدموا الأُمةَ ويضعوا لها الحلولَ الشرعيةَ المناسبة، يُثبِّتونها في المِحَن ويقودون مسيرتَها في جهادِ الكلمةِ الصادقة الناصحة أولًا، وجهادِ السِّنان وحربِ الأعداء ثانيًا، كما صنع أسلافُهم من قبلُ.

٧- ولا بدَّ للقادةِ والحكام والأمراءِ والمسئولين من تعظيم المسئولية فيما استُؤمِنوا عليه من مسئولياتٍ ومراكزَ، وكلٌّ بحَسَبِه، فالخيانةُ فضيحةٌ في الدنيا - والتاريخ سِجِلٌّ حافظ- والفضيحةُ يومَ القيامة أدهى وأمرُّ حين يُعرَضُ الخلقُ لا تخفى منهم خافيةٌ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

أيها المسلمون: اتقوا اللهَ جميعًا وتضرَّعوا إلى خالِقِكم بالنصرِ لكم ولإخوانكم، وجاهِدوا الكفارَ بألسنتِكم وأموالِكم وأنفسِكم، والإسلام اليومَ أمانةٌ في أعناقِنا، وما يَحِيقُ بالشعوبِ المسلمة من ويلاتٍ ومِحَن مسئوليتُنا جميعًا.

وما لم يُدفع العدوُّ اليومَ فسيتجاوز غيرَنا إلينا، كما تجاوَزْنا إلى غيرنا، والمؤمنون إخوةٌ والعدوُّ شرِس، والمخطَّط كبير، ومن جاهدَ فإنما يجاهدُ لنفسه.

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٤.

أيها المسلمون: إن مما يَجرَحُ الفؤادَ ويُعظِّم من المُصاب أن المسلمين -وفي مقدمتهم العلماءُ والأمراءُ فضلًا عن العامة وسوادِ الناس- ورغمَ هذه النوازلِ المهدِّدة، والاستعدادِ للغزو والسيطرةِ، لم يُعْطوا الأمرَ ما يستحقُّه من العنايةِ والاهتمام، والتحذيرِ والاستعداد، وكم نحن بحاجةٍ اليومَ أكثرَ مما مضى إلى التعاونِ والمَشُورة وحمايةِ البلادِ والعبادِ من كيدِ الكائدين ومخطَّطات المستعمِرين.. وربُّنا يخبرُنا أن أعداءَنا لا يَرقُبون فينا إلًّا ولا ذِمّةً، وهُم إنْ يثقَفُونا يكونوا لنا أعداءً ويبسطوا إلينا أيديَهم وألسنتَهم بالسوء ووَدُّوا لو تكفرون.

إن التلاومَ حينَ خرابِ الديار لا يُجْدي، والتباكي حين يجوسُ العدوُّ خلالَ الديارِ لن يُنقِذ، وما لم يتحرَّكِ العقلاءُ في وقتِ الرخاءِ والمُهلة فلن يفلحوا إذا حَزَبَت الأمورُ وتوغَّل العدوُّ في الديارِ لا قَدَّرَ اللهُ، والأمةُ الواعية والشعوبُ الأبيّة هي التي تُحصِّنُ نفسَها بما استطاعت من قوةٍ، ثم هي تتوكلُ على بارئها في مقارعةِ المعتدين ومنازلةِ الغاصبين.

وإذا لم يكنْ إلا الأسنَّةُ مَركَبًا فما حِيلةُ المضطرِّ إلا ركوبُها

ومَن يتوكلَّ على الله فهو حَسْبُه.. ومن ينصرِ الله يَنصرْه، والعاقبةُ للتقوى، وجندُ الله هم الغالبون، والأرضُ لله يُورِثُها من يشاءُ من عباده، والله يُمْلي للظالمِ ولا يُهمِلُه، وكيدُ الكافرين في تَبَاب، ولكن لا بدَّ من تحقيقِ السُّنّة الربانية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

اللهم انصرْ دينَك وعبادَك المسلمين.. اللهم دَمِّرْ أعداءَ الدِّين واجعلْ كيدَهم في نحورِهم.. اللهم احفَظْ على المسلمين أَمْنَهم وإيمانَهم.. وصلِّ اللهم على نبيِّنا محمد.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

مصيبة الأمة ونقفور النصارى(١)

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسوُله.

اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

أيها المسلمون: أخرجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ والنسائيُّ منْ حديثِ خَبْابِ بنِ الأرتِّ ﷺ قالَ: وافيتُ رسولَ اللهِ ﷺ في ليلةٍ صلَّاها كلَّها حتى كانَ معَ الفجر، فسلَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ منْ صلاته، فقلتُ: يا رسولَ الله، لقدْ صليتَ الليلةَ صلاةً ما رأيتُك صليتَ مثلَها، قالَ رسولُ الله ﷺ: «**أجلْ، إنها صلاةُ رَغَبٍ ورَهَب، سألتُ ربي ﷻ فيها ثلاثَ خصالٍ، فأعطاني اثنتينِ ومَنَعَنِي واحدةً، سألتُ ربي ﷻ ألا يهلكَنا بما أهلكَ بهِ الأممَ قبلَنا فأَعْطَانِيها، وسألتُ ربي ﷻ ألّا يُظهرَ علينا عدوًا من غيرِنا فأَعْطَانِيها، وسألتُ ربي ﷻ ألا يُلبسَنا شِيَعًا ويُذِيقَ بعضَنا بأسَ بعضٍ فَمَنَعنِيها**».

إنَّ هذا الحديثَ وأمثالَه منْ مشكاةِ النبوةِ يُحددُ مَكْمنَ الخطرِ على هذهِ الأُمةِ، فهيَ لنْ تُهْلَكَ بسَنَةٍ بعامَّةٍ كما أُخذتِ الأممُ السابقةُ المكذِّبةُ، ولنْ تُهلكَ وتُجْتَثَّ منْ عدوٍّ خارجيٍّ -مهما كانتْ قوةُ هذا العدوِّ- حتى وإنْ ظفرَ عليها هذا العدوُّ فترةً، وانتصرَ عليها حقبةً من الزمن.. وإنما تؤتى الأمةُ المسلمةُ منْ قِبَلِ ذاتِها

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢٣/ ١٠/ ١٤٢٣هـ.

ومنْ داخل صفوفِها، ومنْ هنا فلا بدَّ للأمةِ أنْ تتقيَ اللهَ في ذاتِ نفسِها، وتصلحَ ذاتِ بينها.

قال العالمون: إنَّ هذهِ العقوباتِ التي تنزلُ بالمسلمين، وهذهِ الفتنَ التي تحلُّ بهمْ إنما هيَ منْ أنفسِهم وبذنوبِهم، واللهُ يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾(١).

ويقول جلَّ ذكرُه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾(٢).

معاشرَ المسلمين: كمْ نغفلُ عنْ هذا الداء، وكمْ نقعُ فيهِ من أخطاء، ولربما أحالَ كلُّ واحدٍ منا المسئوليةَ على غيره، والتفتَ إلى كلِّ أحدٍ ولمْ يلتفتْ إلى نفسه، والخطأُ واردٌ والتقصيرُ حاصل، لا في العوامِّ بلْ وفي الخاصةِ والعلماء، وليس في الأشرارِ فقط بلْ وفي الأخيارِ وكلٌ بحَسَبِهِ، نعمْ، خطأٌ وتقصيرٌ وغفلة على مستوى الرجالِ والنساءِ والأمراءِ والمأمورين، وفي الصغارِ وفي الكبار، وفي الأغنياءِ والفقراءِ وفي البرِّ والبحرِ ولا بدَّ لرفعِ العقوبةِ منْ توبتِنا جميعًا، ومن إنابتِنا جميعًا.. ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

إنَّ منَ الخطأ البيِّنِ أنْ تُعْزى المصائبُ الواقعةُ بالمسلمينَ اليوم -سواءً كانت أمنيةً أو سياسيةً أو اقتصاديةً أو نحوَها- إلى أسبابٍ ماديةٍ بحتة، وننسى أنَّ وراءَها أسبابًا شرعيةً هي أقوى وأمضى وأكثرُ أثرًا.

إنَّ منَ العقلِ تدبُّر الذاتِ وإصلاحَ النفوس، ومنْ أسبابِ رفعِ البلاءِ أنْ يُحدثَ

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٩.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤١.

المذنبون لكلِّ عقوبةٍ توبةً، ولكلِّ ذنبٍ استغفارًا، ولكلِّ بليةٍ وبأسٍ رجوعًا إلى اللهِ وتضرعًا ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(١) ومنَ السَّفهِ أن يتمادى المرءُ في المعاصي، واللهُ يمدُّهُ بالنعمِ ويُجزلُ له العطايا، ومنْ مكرِ اللهِ أن يُستدرجَ به وهو لا يعلم، قالَ بعضُ السلفِ: إذا رأيتَ اللهَ يُنعمُ على شخصٍ، ورأيتَ هذا الشخصَ متماديًا في معصيةِ الله، فاعلمْ أن هذا منْ مكرِ اللهِ به وإنهُ دخلَ في قولهِ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(٢).

لقدْ قصَّرَ المسلمون في محاسبةِ أنفسِهم، وفي تعظيمِ شعائرِ ربِّهم، وتجاوزوا الحلالَ إلى الحرام، وغلبتهمْ الشهواتُ، وتورَّطوا في مستنقعِ الشُّبهاتِ -إلا منْ رحمَ ربُّك- فكانَ تسليطُ الأعداءِ عليهم جزءًا منْ قدرِ اللهِ في عقوبتهِم.. فهلْ يا تُرى يدركونَ مكمنَ الخطأ، وهل يُراجعون أنفسَهم ويرجعوا إلى بارئهم؟

إنَّ اللهَ بحكمتِهِ ورحمتِهِ لهذهِ الأمةِ جعلَ عقوبتَهم على ذنوبِهِمْ ومعاصيهمْ بأنْ يُسلطَ بعضَهم على بعضٍ فيُهلكَ بعضُهمْ بعضًا ويسبي بعضُهمْ بعضًا، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾(٣).

روى البخاريُّ في «صحيحه» عنْ جابرٍ رضي الله عنه قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال النبيُّ ﷺ: **«أعوذُ بوَجْهِك»** ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال ﷺ: **«أعوذُ بوجهك»** ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ﴾ قال ﷺ: **«هذه أهونُ وأيسرُ»**.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٣.

(٢) سورة القلم، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

أيها المؤمنون: لا بدَّ من التعرُّفِ على اللهِ في الرخاءِ وشكرِه في السَّرَّاء، حتى يعرفَنا في الشدةِ ويصبِّرَنا على البلاءِ ويدفعَ عنا الأذى.

إنَّ الذي يُنصتُ إلى خطابِ الفِطرةِ في نفسهِ يسمعُ نداءً عميقًا يترجمُ الرغبةَ في معرفةِ من أسدى إليه نعمةَ الوجود.. إنهُ اللهُ الذي خلقَ فسوَّى وقدَّر فهدى.. وحركةُ الخلقِ هذه تحدَّى بها الخالقُ سبحانه كلَّ العالمين أن يخلُقوا ولو ذبابًا، ولو اجتمعوا له، أجلْ تقدَّسَ اللهُ وتعاظمَ وتحدَّى بالخلقِ فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

إنَّ تذكُّرَ العبدِ لقصةِ الوجودِ من عدم، والخلقِ بلا مثالٍ سابقٍ تدعوهُ للإيمانِ واليقينِ والشكرِ والاستقامةِ على الطريقِ المستقيم.

وقد قيل: إن الخلقَ مفهومٌ منْ أغربِ مفاهيمِ القرآنِ العظيم، ومنْ أكثرِها استعصاءً على الفهمِ والإدراكِ، وتأملْ أولَ الخليقةِ آدمَ ﷺ وكيفَ خُلِق، ترى عجبًا ما بعدَهُ عجب.. فكيفَ صنعَ اللهُ منَ الطينِ بشرًا سوِّيًا يفيضُ جمالًا وحيوية، عجبًا عجبًا!!

وكيفَ كانتْ كُتَلُ الطينِ في جسمِ آدمَ تتحولُ إلى شرايينَ وشعيراتٍ دمويةٍ وعظامٍ ولحمٍ طري، عجبًا عجبًا!!

كيفَ تحوَّل الصَّلصالُ في مَحَاجرهِ ﷺ بصرًا يَبْرُقُ ويشعُّ بنورِ الحياةِ ويرى الألوانَ والأشياءَ، ويسيلُ بالدموعِ فرحًا وحزنًا، عجبًا عجبًا!!

كيفَ تخلّقَ الترابُ في جمجمتهِ دماغًا مائعًا متكوِّنًا منْ ملايينِ الخلايا اللطيفةِ الحساسة، تجري شعيراتُها بالدم الدَّافِقِ، وتختزنُ ملايينَ المعلوماتِ والذكريات، وتتأهَّبُ للتفكيرِ في أدقِّ الخطراتِ والنظرات؟!

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٧.

ثمَّ تأملْ في مشهدِ الخلقِ الآخرِ في النبات، وكيفَ جعلَ من الطينِ والماءِ نباتًا جميلًا، فصارتْ له أزهارٌ تملأُ الأنوفَ عبيرًا أخَّاذًا، وثمارًا تملأُ القلوبَ بهجةً وجمالًا، ذلكَ هو الخلقُ العجيبُ وذلكَ هو الخلاقُ العليم، ومن هنا استحقَّ العبوديةَ والطاعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

إنّ معرفةَ اللهِ تبدأُ بالشعورِ بالفرحِ بهِ تعالى ربًا خالقًا، والأُنسِ بهِ سبحانه إلهًا رحيمًا، فيمتلئُ القلبُ شوقًا إليه، ثمَّ تنشطُ الجوارحُ للسيرِ إلى بابهِ الكريم، والعروجِ إلى رضاه، عبرَ مدارجِ السالكين ومنازلِ السائرين، وكلما ازدادتْ معرفتهُ باللهِ زادَ أُنسهُ به، وكلَّما تعرفَ عليهِ زادَ في محبَّتهِ وطاعتهِ، وويلٌ لمن جهلَ ربَّه أو نسيَ ذكرَه، أو بارزَهُ بالمعصية، فذاكَ الذي يسيرُ في أرضٍ فلاةٍ مهلكةٍ، ولنْ يبالِ اللهُ به في أيِّ وادٍ هَلَكَ.

إخوةَ الإسلام: فإنْ قيل: فما السبيلُ للخروجِ من المأزقِ الذي تعيشُه الأمةُ؟

١- لا بدَّ أنْ تتنادى الأمةُ عمومًا، وأخيارُها على الخصوصِ للنظرِ في هذهِ الأزمةِ والتشاورِ في المخرجِ منها، ومؤلمٌ أنْ يستنفرَ الأعداءُ قواهمْ والمسلمونَ غارقونَ في لهوهِمْ، غافلونَ عما يُرادُ بهم.

٢- لا بدَّ منَ التعلُّق بأسبابِ النجاةِ منَ الإيمانِ واليقينِ والتوكلِ، فاللهُ يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٢] ويقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[٣]،

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٢.

فالتقوى والتوكلُ على اللهِ وصيَّتانِ منَ اللهِ، وهما مخرجٌ منَ الأزمات.

٣- ولا بدَّ أنْ نعتقدَ بأنَّ الإيمانَ سببٌ للأمن، وأنَّ الشركَ سببٌ للرُّعْب، تجدونَ ذلك في الكتاب العزيز ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1] وعن الأخرى ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾[2].

٤- والاجتهاداتُ في العبادةِ سببٌ لتثبيتِ العبدِ وتوفيقِه على كلِّ حال، ولا سيَّما في أوقاتِ الفتنِ، ووصيةُ الرسولِ الكريمِ ﷺ لنا: «**بادِروا بالأعمالَ فِتَنًا كقطعِ الليلِ المُظلمِ، يُصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا..**» الحديث.

٥- للنصر أسبابٌ؛ منها:

أ- نصرُ دينِ الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[3].

ب- الصبرُ، قال ﷺ: «**واعلمْ أنَّ النصرَ معَ الصَّبرِ**».

ج- العدلُ، فاللهُ يقيمُ الدولةَ العادلةَ وإنْ كانتْ كافرةً، ولا يقيمُ الظالمةَ وإنْ كانتْ مسلمةً، كذا قررَ العلماءُ.

د- ومنها اجتماعُ الكلمةِ وتوحيدُ الصفِّ: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[4].

٦- ولتسليطِ الأعداءِ أسبابٌ:

ومنها: معاداةُ أولياءِ الله، قالَ اللهُ ﷻ في الحديثِ القدسيِّ: «**مَنْ عادى لي**

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥١.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

وليًّا فقدْ آذنْتُ بالحربِ» رواهُ البخاري.

ومنها: أكلُ الربا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(١).

والذنوبُ عمومًا سببٌ للبلاءِ وتسلطِ الأعداء، والاشتغالُ بتوافهِ الأمورِ وضعف الهممِ عن المعالي سببٌ لضياعِ الأمةِ وتسليطِ العدو، وفي هذا يقولُ ابنُ القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٥٠٠) -والذي شاهدناهُ نحنُ وغيرُنا وعرفناهُ بالتجاربِ-: أنهُ ما ظهرتِ المعازفُ وآلاتُ اللهوِ في قومٍ، وفشتْ فيهمْ واشتغلوا بها، إلا سلّطَ اللهُ العدوَّ، وبُلوا بالقحطِ والجدبِ وولاةِ السوءِ».

مؤلمٌ يا عبادَ الله، حين يشتغلُ المسلمونَ بالكأسِ والغانيةِ، وما يُسمى بالفنِّ والرياضة، ويشتغلُ غيرُهمْ بتصنيعِ السلاحِ والتدريبِ على حربِ المسلمين بأنواع الأسلحةِ الفتّاكةِ.

٧- لا بدَّ من تقويةِ شعيرةِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكر، ولا بدَّ منْ تعميقِ الاحتسابِ في الأمة، والتجديدِ في أساليبِ الدعوةِ إلى اللهِ حتى يعمَّ الخيرُ ويتقلَّصُ المنكرُ، ولا بدَّ لكلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ أنْ يقومَ بواجبِهِ في هذا الميدان.

٨- والدعاءُ سلاحٌ يصلُنا بربِّنا ويُرهبُ أعداءنا، وهوَ سهلُ الكلفةِ عظيمُ الأثر، بلْ طريقُ النصر؛ **«هلْ تُنصرونَ وتُرزقونَ إلا بضعفائِكم؟!»**(٢).

وكمْ نحنُ بحاجةٍ للدعاءِ في كلِّ حين.. ولا سيَّما في وقتِ الشدائدِ والأزمات، فهوَ الذي يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السوءَ ويجعلكمْ خلفاءَ الأرضِ.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) رواه البخاري.

اللهمَّ فارجَ الهمِّ كاشفَ الغمِّ سميعَ الدعاء، اللهمَّ إنا نستغفركَ منْ ذنوبِنا فاغفرْ لنا، ونستنصرُكَ على عدوِّنا فانصرْنا، ونسألكَ كشفَ الغُمةِ عنْ أمتِنا وإخوانِنا، ونسألك أنْ تحبطَ كيدَ الكافرين وأنْ تكشفَ خَبَثَ المنافقين، وأنْ تجعلَ الدائرةَ على الكافرين، والعاقبةَ للمؤمنين ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللهَ لي ولكمْ ولسائرِ المسلمين، فاستغفروهُ وتوبوا إليهِ يغفرْ لكم.



---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ القويِّ العزيز، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ الرحمنُ الرحيمِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه جاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه حتى جاءَهُ اليقينُ، فالصلاةُ والسلامُ عليهِ وعلى سائرِ النبيينَ والمرسلين.

إخوةَ الإسلام: ومنْ سُننِ اللهِ الكونيةِ أنَّ اللهَ يُديلُ على المسلمينَ أعداءهم إذا همْ خالفوا أمرَه، وحادوا عنْ شريعتِه، وكَثُر فيهم الفسوقُ والعصيان، وانتشرتِ البدعُ وكانوا شِيَعًا وأحزابًا.. تلكَ سنةٌ ماضيةٌ تتجدَّدُ.

وإليكمْ توصيفًا لحالِ المسلمينَ ووَهْنِهم ونهبِ بلادِهم وقتلِ رجالِهم ونسائِهم، والسخريةِ بدينهِم ونبيِّهم عليهِ الصلاةُ والسلام، بلْ وتهديدِ مقدساتِهم على يدِ أحدِ ملوكِ النصارى، الذي قالَ عنهُ ابنُ كثير: كانَ هذا الملعونُ أشدَّ الملوكِ كفرًا وأغلظَهم قلبًا وأقواهُم بأسًا وأحدَّهم شوكةً، وأكثرَهم قتلًا وقتالًا للمسلمينَ في زمانِه.. فمنْ يكونُ هذا الملكُ النصراني؟ وماذا صنعَ ببلادِ المسلمين؟

قال ابنُ كثيرٍ في «البداية والنهاية»: وفي سنةِ ثنتين وخمسينَ وثلاثِ مئةٍ ماتَ ملكُ الأرمن، واسمه النُّقْفُور، وهوَ الذي استحوذَ في أيامه- لعنهُ اللهُ- على كثيرٍ منَ السواحل، وأكثرُها انتزعَها من أيدي المسلمينَ قَسْرًا، واستمرتْ في يدهِ قهرًا، وأضيفتْ إلى مملكةِ الروم قدرًا..

ثمَّ قالَ ابنُ كثير -مُشخصًا حالَ المسلمينَ وموضحًا أسبابَ ذلِّهم وهزيمتهم-: وذلك لتقصيرِ أهلِ ذلك الزَّمان، وظهورِ البِدَعِ الشَّنيعِة فيهم وكثرة العصيانِ منَ الخاصِّ والعامِّ منهم، وفُشُوِّ البدعِ فيهم، وكثرةِ الرفضِ والتشيعِ منهم وقهرِ أهلِ السنةِ بينهم، فلهذا أُدِيلَ عليهمْ أعداءُ الإسلام فانتزعوا ما بأيديهم منَ البلادِ معَ

الخوفِ الشديد ونكدِ العيشِ والفرارِ من بلادٍ إلى بلاد، فلا يبيتونَ ليلةً إلا في خوفٍ من قوارعِ الأعداءِ وطوارقِ الشرورِ المترادفة، والله المستعان.

وقد وردَ (حلب) في مائتي ألف مقاتلٍ بغتةً في سنةِ إحدى وخمسينَ وثلاثِ مئة، وجالَ فيها جولةً ففرَّ منْ بينِ يديهِ صاحبُها سيفُ الدولةِ، ففتَحها اللعينُ عنوةً، وقتلَ منْ أهلها من الرجالِ والنساءِ ما لا يعلمهُ إلا اللهُ، وأخذَ أموالَها وحواصلَها وبدَّدَ شملَها.. وبالغَ في الاجتهادِ في قتالِ الإسلامِ وأهلِه، وجدَّ في التشمير، فالحكمُ للهِ العليِّ الكبير.

وقد كانَ- لعنهُ الله- لا يدخلُ في بلدٍ إلا قتلَ المقاتلةَ وبقيةَ الرجالِ وسبى النساءَ والأطفالَ، وجعلَ جامعتَها إصطبلًا لخيولِه. ولمْ يزلْ ذلكَ من دأبهِ حتى سلَّطَ اللهُ عليهِ زوجتَهُ فقتلتْهُ بجواريها في وسطِ مسكنهِ، وأراحَ اللهُ منهُ الإسلامَ وأهلَه.

أما أطماعُه وتطلعاتُه وعتوُّهُ واستكبارُه، فقد بلغتْ حدًّا كتبَ معه إلى الخليفةِ المطيعِ للهِ بقصيدةٍ تعرضَ فيها لسبِّ الإسلامِ والمسلمينَ، وتوعدَ فيها أهلَ حوزةِ الإسلام، بأنهُ سيملكُها كلَّها- حتى الحرمين الشريفين- عمّا قريب، قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: وهوَ أقلُّ وأذلُّ وأخسُّ وأضلُّ من الأنعام، ويزعمُ الخبيثُ أنهُ ينتصرُ في هذهِ القصيدةِ لدينِ المسيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وربما يعرِّضُ فيها بجنابِ الرسول ﷺ.

وحيثُ نقلَ ابنُ كثيرٍ هذه القصيدةَ بطولِها.. فأنقلُ لكمْ شيئًا منها يكفي للعلوِّ والاستكبارِ والسخرية والاستهزاء.. ومما جاءَ فيها قولُ ناظمها على لسانهِ:

سألقى جيوشًا نحوَ بغدادَ سائرًا	إلى باب طاق حيث دار القماقم
وأحرقُ أعلاها وأهدمُ سورَها	وأسبي ذراريها على رغمِ راغمِ
وأسري بجيشٍ نحو الأهوازِ	مسرعًا لإحرازِ ديباجٍ وخزِّ السواسم
وأشعلُها نهبًا وأهدُم قصورَها	وأسبي ذراريها كفعلِ الأقادمِ

ومنها إلى شيرازَ والريَّ فاعلموا خراسانَ قصرى والجيوش بحازمِ
وسابورَ أهدمُها وأهدمُ حصونَها وأوردُها يومًا كيومِ السمائمِ
وكرمانَ لا أنسى سجستانَ كلَّها وكابُلَها النائي وملكَ الأعاجمِ
أسيرُ بجندي نحوَ بصرتِها التي لها بحرٌ عجاجٌ رائعٌ متلازمِ
إلى واسطَ وسطَ العراقِ وكوفةٍ كما كان يومًا جندُنا ذو العزائمِ
وأخرجُ منها نحو مكةَ مُسرعًا أجرُّ جيوشًا كالليالي السواجمِ

إلى قوله:

أعودُ إلى القدسِ التي شُرفت بنا بعزٍّ مكينٍ ثابتِ الأصل قائمِ
وأعلو سريري للسجودِ معظمًا وتبقى ملوكُ الأرضِ مثلَ الخوادمِ
هنالكَ تخلو الأرضُ منْ كلِّ مسلمٍ لكل تقيِّ الدين أغلفِ زاعمِ

إلى أن يقول:

سأفتحُ أرضَ اللهِ شرقًا ومغربًا وأنشرُ دينًا للصليبِ بصارمي
فعيسى علا فوقَ السماواتِ عرشُهُ يفوزُ الذي والاهُ يومَ التخاصُمِ
وصاحبُكمْ بالتربِ أودى به الثرى فصارَ رفاتًا بينَ تلكَ الرمائمِ[١]

وهنا يردُ السؤال.. هل تحققَّ لهذا الصليبي حُلمُه؟ وكيفَ كانتْ نهايته؟

لقدْ كفى اللهُ المسلمينَ شرَّه، وحمى بلادَ الحرمينِ منْ صُلبانه، وماتَ ولمْ يحققْ أهدافَه، وشاءَ اللهُ أنْ يميتَه بأقربِ الناسِ إليه، وقتلَهُ أحدُ الضعيفين، ومنْ مأمنِهِ جاءَهُ ما يَحذرُ، وكانتْ نهايتُهُ على يدِ زوجتِهِ وفي بيته، قالَ ابن كثير: وما زالَ هذا المستكبرُ متسلِّطًا حتى سلَّطَ اللهُ عليهِ زوجتَهُ فقتلَتْهُ بجواريها في وسطِ مسكَنِه، وأراحَ اللهُ منهُ الإسلامَ وأهلَه[٢].

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٢٧٥، ٢٧٦.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٢٧٣.

أيها المسلمون: ونوقنُ -نحن المسلمين- أنَّ اللهَ يُملي للظالمِ حتى إذا أخذَهُ لم يفلِتْه، ونقرأُ في كتابِ ربِّنا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1].

ولكنا نقرأُ في مقابلِ ذلكَ خطابَه تعالى للمؤمنينَ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].



(١) سورة القصص، الآية: ٥٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

أشجُّ بني أمية ونجيبها(١)

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عنِ الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ وسلمْ تسليمًا كثيرًا.

أيها المسلمون: في تأريخِنا مفاخرُ العلماءِ، وعدلُ الأمراءِ، وزهدُ النُّبلاءِ.. ولكنْ ماذا عنْ مَن جمعَ هذهِ المكارمَ كلَّها؟!

طلب العلمَ في صباهُ فقادَهُ العلمُ إلى الخشيةِ والرضا واليقين، وكانَ به وريثَ الأنبياء، وتولى إمرةَ المدينةِ فكانَ نعمَ الأميرُ لها، ثمَّ تولى الخلافةَ فملأَ الأرضَ عدْلًا وبرًا وإحسانًا، أطبقَ ذكرُهُ في الخافقين، وملأتْ محبتُه قلوبَ المسلمين، وشهدَ له بالخيريةِ والصلاحِ غيرُ المسلمين، إنهُ الخليفةُ الزاهد، والعالمُ الراشد، أشجُّ بني أميةَ ونجيبُها عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ رحمه الله.

كانَ حسنةً من حسناتِ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ رحمه الله حيثُ خصَّهُ بالخلافةِ متجاوزًا نمطَ الولايةِ لأبناءِ الخليفةِ ثمَّ أبناءِ أبنائِه.

وكانَ منقبةً من مناقبِ العالمِ والوزيرِ والمستشارِ الناصحِ رجاءَ بنِ حَيْوَيَةَ رحمه الله.. حيثُ أشارَ على سليمانَ بكتابةِ العهدِ إلى عمرَ من بعدِه.

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢٩/ ١٠/ ١٤٢٣هـ.

أيها المؤمنون: وهلْ تعلمونَ أنَّ هذا الخليفةَ الذي ملأ الأرضَ عدلًا وذكرًا حسنًا ماتَ ولمْ يبلغِ الأربعين منْ عُمُره؟ وما يَضِيرهُ أنْ دفعَ حياتَه ثمنًا للعدلِ وإحقاقِ الحقِّ، وما بلغتْ خلافتُه ثلاثَ سنين؟

تقلّبَ في حياةِ النعيمِ، فما غرّهُ زهرةُ الدنيا عنْ نعيمِ الآخرة، وتربعَ على مناصبِ الوزارةِ والإمارةِ والخلافةِ فما داخلَهُ العجْبُ ولا فتنةُ الكبرياء، بلْ كانَ سيدَ العابدين، وإمامَ الزاهدين، ونموذجَ القانتين، أتتْهُ الخلافةُ على كُرهٍ منه، فاستشعرَ المسئوليةَ وأدّى الأمانةَ، ونصحَ للأمة، وطوّفَ بالإسلامِ في مشرقِ الأرضِ ومغربِها.. وشهدَ على عدلِه البَرُّ والفاجرُ، وأشادَ به أهلُ الكتابِ فضلًا عن المسلمين. كانَ لتربيتهِ في الصغر أثرٌ في حياتِهِ في الكِبَر.

وقدْ أحسنَ والدُه اختيارَ أمِّه- والعرقُ دسَّاسٌ، والعزُّ في أوراك النساء، كما يُقال- وأمُّهُ منْ بيتِ عمر الفاروقِ ﷺ؛ فهيَ أمُّ عاصمٍ بنتِ عاصمِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنهم أجمعين، فعمرُ جدُّه لأمهِ، ووالدُه عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ حينَ أرادَ أنْ يتزوجَ أمَّ عمرَ بنِ عبدِ العزيز قالَ لقيِّمه: اجمعْ لي أربعَ مئةِ دينار منْ طيِّبِ مالي، فإني أريدُ أنْ أتزوجَ إلى أهلِ بيتٍ لهمْ صلاح، فتزوجَ أمَّ عمر، وهكذا «**فاظفرْ بذاتِ الدينِ تَرِبتْ يداك**»[1].

معاشرَ المسلمين: والحديثُ يطولُ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ العالمِ الرباني، والخليفةِ الزاهد، والمجاهدِ الشهيد.. ولكنْ دعونا نقفُ على معالمَ مضيئةٍ من جوانبِ سيرتهِ تتمثل في ما يلي:

أولًا: أثرُ التربية.. لاشكَّ أنَّ اللهَ هو الهادي والموفقُ منْ شاء، ولكنْ لتربيةِ الوالدينِ وعنايتهمْ بالولدِ أثرًا لا يُنكر.. وليسَ يخفى أنَّ الغلامَ عمرَ أذنَ لهُ والده

---

(١) ابن سعدن الطبقات ٥/ ٣٣١.

بالخروجِ منْ دارِ الإمارةِ بمصرَ- حيثُ كانَ أبوه أميرًا على مصرَ- وتوجَّه إلى دارِ الهجرةِ والعلمِ، المدينة، وبها عكفَ على العلمِ وتأدبَ بأدبِ العلماء، فاشتهرَ بالعلمِ والعقلِ مع حداثةِ سِنِّه.. وللعلمُ نورٌ وبركةٌ لا تُخفى.

وحينَ بعثَهُ أبوهُ إلى المدينةِ ليتعلمَ ويتأدبَ بها، كتبَ إلى صالحِ بن كيسانَ يتعاهَدُه، وكان يُلزمه الصلوات، فأبطأ يومًا عنِ الصلاة، فقال: ما حَبسكَ؟ قال: كانت مُرجِّلتي تُسكِّن شعري، فقال: بلغَ منْ تسكينِ شعركَ أنْ تؤثرَه على الصلاة؟ وكتبَ بذلكَ إلى والده، فبعثَ والدُه رسولًا إليه، فما كلّمه حتى حلقَ شعرَه[١].

وهكذا شأنُ التربية، وكذلكَ تكونُ العنايةُ بالصلاةِ على وجهِ الخصوص.

ثانيًا: عمرُ وزيرُ صدقٍ يعظُ الخليفةَ ويبكيهِ وينصح للرعية؛ حينَ وليَ سليمانُ بنُ عبدُ الملكِ الخلافةَ قالَ لعمرَ بنِ عبدِ العزيز: أبا حفص، إنَّا وُلينا ما قدْ ترى، ولمْ يكنْ لنا بتدبيرِه علْمٌ، فما رأيتَ منْ مصلحةِ العامةِ فمُرْ به. فكانَ من ذلك عزلُ عُمالِ الحجّاج، وأُقيمتِ الصلواتُ في أوقاتها بعدما كانتْ أُمِيتَتْ عنْ وقتِها، معَ أمورٍ جليلةٍ كانَ يسمعُ منْ عُمرَ فيها.. وفي إحدى السنواتِ حجَّ سليمانُ فرأى الخلائقَ بالموقف فقالَ لعمرَ: أما ترى هذا الخلقَ الذي لا يُحصي عددَهم إلا اللهُ؟ قال (عُمر): هؤلاءِ اليومَ رعيتُك، وهمْ غدًا خُصماؤُك، فبكى (الخليفةُ) بكاءً شديدًا.

قال الذهبي: كانَ عمرُ لسليمانَ وزيرَ صِدْقٍ[٢]. وهكذا ينبغي أنْ يكونَ المستشارون وكذلكَ يكونُ الوزراءُ الناصحون.

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٦.

(٢) السير ٥/ ١٣٥.

ثالثًا: عُمرُ وَهَمُّ الأمةِ.. وُلِّيَ عمرُ الخلافةَ وهوُ لها كاره، فاستعانَ باللهِ، وأعانه. وإذا نظرَ غيرُ عمرَ إلى المسئوليةِ على أنها مغنمٌ فقدْ رآها الخليفةُ عمرُ مغرَمًا.. ومسئوليةً وهمًّا.. وطالما بكى- وحقَّ له البكاء- لعظمِ الحمالةِ التي يحملها.. وهذه زوجتهُ فاطمةُ بنتُ عبدِ الملك- رحمَها الله- تقول: دخلتُ على عمرَ وهوَ في مُصلاه واضعًا يدَهُ على خدِّه، سائلةً دموعَه، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين: ألشي حدَث (تبكي)؟! قال: يا فاطمةُ، إني تقلدتُ أمرَ أمةِ محمدٍ ﷺ، فتفكرتُ في الفقيرِ الجائع، والمريضِ الضائع، والعاري المجهودِ، والمظلومِ المقهور، والغريبِ المأسور، والكبيرِ وذي العيال في أقطارِ الأرض، فعلمتُ أنَّ ربي سيسألُني عنهم، وأنَّ خصمَهم دونَهم محمدٌ ﷺ، فخشيتُ ألا تثبتَ لي حُجَّةٌ عندَ خصومتهِ، فرحمتُ نفسي فبكيت[1].

رابعًا: ممَّ يخافُ عمر؟ في ترجمةِ عمرَ خوفٌ وبكاء، وتحسبٌ واعٍ ليومِ المعاد، فما كانَ يخافُ ذهابَ المُلك منْ يده.. وهو الذي قبلَ الخلافةَ على كُرْه، وما كانَ عمرُ يرهبُ الموتَ لذاتِ الموت، فقدْ كانَ يراهُ سُنةً ماضيةً في الأولينَ والآخرين[2]، وحينَ طلبَ منهُ نفرٌ أنْ يتحفظَ في طعامه، ويسألونهُ أنْ يكونَ لهُ حرسٌ إذا صلى، لئلا يُقتلَ غِيْلةً، وسألوهُ أن يتنحَّى عن الطاعون،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٣١، ١٣٢.

(٢) وهو القائل:

من كان حين تصيب الشمس جبهته ... أو الغبار يخاف الشين والشعثا

ويألف الظل كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يومًا راغمًا جدثًا

في قعر مظلمة غبراء موحشة ... يطيل في قعرها تحت الثرى اللبثا

تجهزي بجهاز تبلغين به ... يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثًا

ويخبرونهُ أنَّ الخلفاءَ قلَبه كانوا يفعلون ذلك. أجابَهم عمرُ قائلًا: فأينَ هؤلاء؟ فلما أكثروا عليهِ (التحوطَ) قال: اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أني أخافُ يومًا دونَ يومِ القيامةِ فلا تُؤمِّن خوفي(١).

لقدْ تكاثرَ الشهودُ على خوفِ عمرَ منَ الله، فهذا مزيدُ بنُ حَوْشَبٍ يقول: ما رأيتُ أخوفَ من الحسينِ وعمرَ بنِ عبدِ العزيز، كأنَّ النارَ لمْ تخلقَ إلا لهما(٢).

ومكحولٌ يقول: لو حلفتُ لصدقت، ما رأيتُ أزهدَ ولا أخوفَ للهِ منْ عمرَ بنِ عبد العزيز(٣).

وقالتْ زوجتُهُ فاطمة: حدَّثنا مغيرةُ أنهُ يكونُ في الناسِ مَنْ هوَ أكثرُ صلاةً وصيامًا من عُمرَ بن عبدِ العزيز، وما رأيتُ أحدًا أشدَّ فرَقًا منْ ربِّه منه، كانَ إذا صلى العشاءَ قعدَ في مسجده، ثمَّ يرفعُ يديهِ يبكي حتى تغلبَهُ عينُه، يفعلُ ذلكَ ليلَه أجمعَ(٤).

وعنْ عطاءٍ قال: كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز يجمعُ كلَّ ليلة الفقهاءَ، فيتذاكرونَ الموتَ والقيامةَ والآخرةَ ويبكون(٥).

وهكذا فمنْ كانَ باللهِ أعرفُ كانَ منهُ أخوفُ.. ومنْ خافَ في الدنيا أمِنَ في الآخرة، ومنْ خافَ أدْلجَ، ومَنْ أدلجَ بلغَ المنزلةَ.

خامسًا: عمرُ وسياسةُ الأمةِ واستغناءُ الفقراء: ما كانَ خوفُ عمرَ سلبيًا. وما

---

(١) الطبقات ٥/ ٣٩٨.

(٢) الطبقات ٥/ ٣٩٨.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٣٧.

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٣٧.

(٥) السير ٥/ ١٣٨.

أضاعَ عمرُ رعيته إذْ زهدَ وبكى وخافَ ربَّه، بلْ ترجمَ الخوفَ إلى عملٍ وأنتجَ زهدُ عمر زهدًا في الأمة.. وحينَ عفَّ عمرُ عفتْ رعيتُه.

وإذا كان الفقراءُ قد استغنوْا في خلافتهِ حتى جعلَ الرجلُ يأتي بالمالِ العظيمِ فيقول: اجعلوه حيثُ شئتم، فما يبرحُ حتى يرجعَ بمالهِ كلِّه، وذلكَ أنَّ عمرَ قدْ أغنى الناسَ.. فما عادَ محتاج، فالمتأملُ في خلافتهِ يرى أنَّ مواردَ الدولةِ ما زادتْ إلى حدٍّ يستغني معهُ كلُّ الناس، بل نقصَ منْ مواردِ بيتِ المال ما كانَ يؤخذُ منْ جزيةٍ على النصارى الذين أسلموا، وحينَ كتبَ إلى عمرَ عاملُه على مصرَ يقول: إنَّ أهلَ الذمةِ قدْ شرعوا في الإسلامِ وكسروا الجزيةَ، فكتبَ عمرُ يقول: إنَّ اللهَ بعثَ محمدًا داعيًا ولمْ يبعثْهُ جابيًا، فإذا أتاكَ كتابي فإنْ كانَ أهلُ الذمةِ أشرعوا في الإسلامِ وكسروا الجزيةَ فاطوِ كتابَك وأقبلْ[1].

أجلْ، لقدْ كانَ لزهدِ عمرَ في الدنيا ونزاهتِه في أموالِ المسلمين، ولقدْ سرتْ نزاهتُهُ على ولاته.. وسرى الزهدُ في أهلِ بيتِه.. وألزمَ عشيرتَه مما ألزمَ بهِ نفسَه.. ولمْ يقبلِ الشفاعةَ فيما أخذَ الأمةَ بهِ منَ العدلِ وإحقاقِ الحقِّ، ولقدْ فزعتْ بنو أميةَ وضجروا مما ألزمَهُمْ به منْ ردِّ المظالمِ وسياسةِ المال، حتى وسَّطوا عمَّتَه فاطمةَ بنتَ مروان، فقدَّرَ لها رحِمَها وحقَّها، ولكنهُ أبانَ لها عنْ سياستِهِ وعظيمِ مسئوليته، وما زالَ يُحدِّثُها حتى قالت: حَسْبُكَ، فلستُ بذاكرةٍ لكَ شيئًا، ورجعتْ إلى بني أميةَ وأبلغتْهم رسالتَه[2].

أجل، ما كانَ عمرُ رَحِمَهُ اللهُ يأمرُ عشيرَتَهُ بشيءٍ ويخالفُه.. وحَسْبُكَ أنْ تعلمَ رصيدَهُ قبلَ الخلافةِ وبعدَها، وهذا أحدُ أبنائِهِ عبدُ العزيز بنُ عمرَ يقول: دعاني

---

(١) السير ٥/ ١٤٧.

(٢) السير ٥/ ١٢٩.

المنصورُ أبو جعفرَ فقال: كمْ كانتُ غلةُ عمرَ حينَ استُخلِف؟ قلتُ: خمسونَ ألف دينار، قال: كمْ كانتْ يومَ موته؟ قلتُ: مائتا دينار[١].

مات الخليفة وكان آخر آية قرأها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

حدثت زوجته فاطمة عن آخر لحظاته فقالت: كنتُ أسمع عمر في مرضه يقول: اللهم اخف عنهم أمري ولو ساعة، قالت فقلت له: ألا أخرج عنك فإنك لم تنم، فخرجت فجعلت أسمعه يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ مرارًا، ثم أطرق، فلبث طويلًا لا يسمع له حسٌّ، فقلت لوصيف كان يخدمه، ويحك انظر، فلما دخل صاح، فدخلت فوجدته ميتًا، قد أقبل بوجهه إلى القبلة وغمضّ عينيه بإحدى يديه وضمَّ فاه بالأخرى[٢].



(١) الحلية ٥/ ٢٥٨، والسير ٥/ ١٣٤.

(٢) (حلية الأولياء ٥/ ٣٣٥، السير ٥/ ١٤١).

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، يُعزُّ منْ يشاءُ ويُذلُّ منْ يشاء، ويهدي منْ يشاءُ ويضلُّ منْ يشاءُ وهوَ العليمُ الحكيم، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، إذا أحبَّ عبدًا نشرَ محبَّته بينَ خلْقِه، ومنْ هَتَكَ أستارَ اللهِ وتعدَّى على محارمِهِ فَضَحَهُ اللهُ في الدنيا، والفضيحةُ في الآخرة أشدُّ وأنكى، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه إمامَ المتقينَ وسيدَ العابدين، وقائدَ المجاهدين، وخيرةَ الخلقِ أجمعين، اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليهِ وعلى سائرِ النبيينَ والمرسلين.

إخوةَ الإسلامِ: وسياسةُ عمرَ بنِ عبدِ العزيز للأمةِ لمْ تكنْ بالغلظةِ والشدة، بلْ كانَ يجتهدُ في مُدَاراتِهم حتى قال: لو أقمتُ فيكمْ خمسينَ عامًا ما استكملتُ فيكمُ العدلَ، إني أُريدُ الأمرَ من أمرِ العامَّةِ، فأخافُ ألا تحملَه قلوبُهم، فأخرجُ معه طمعًا منْ طمعِ الدنيا، فإنْ أنكرَتْ قلوبُكُم هذا سكنتُ إلى هذا[1].

سادسًا: أهلُ الكتابِ يشهدونَ لعمرَ بنِ عبدِ العزيز:

لم يكتفِ عمرُ بالإحسانِ إلى أهلِ الإسلام، بلْ شملَ بعدلِهِ وإحسانِهِ أهلَ الكتاب.. ولم يكنْ إحسانُ عمرَ لأهلِ الكتابِ مصانعةً، أو تبعيةً لهم، لكنها الجديةُ في الدعوةِ والعدلُ في المعاملة؛ فمن أسلمَ رفعَ عنه الجزيةَ. ومنْ أعرضَ أو جهلَ الإسلامَ بعثَ لهُ بالدعوةِ للدينِ الحقِّ..

ولقدْ بعثَ عمرُ وفدًا إلى (قيصر) يدعوهُ إلى الإسلام، فتهيأَ للوفد، وأقامَ البطارقةَ على رأسه، ثمَّ استدعى واحدًا من وفدِ عمرَ إليه، وأخبرهُ أنَّ أحدَ رجالِهِ كتب إليهِ يقول: إنَّ الرجلَ الصالحَ عمرَ بنَ عبدِ العزيز مات، قالَ يزيدُ- وهو

---

(١) السير للذهبي ٥/ ١٣٠.

وافدُ المسلمينَ على (قيصرَ)- فبكيتُ واشتدَّ بكائي وارتفعَ صوتي، فقالَ (قيصرُ): ما يبكيك؟ ألِنَفْسِك تبكي، أمْ له، أم لأهلِ دينِكَ؟ قلتُ: لكلٍّ أبكي، قال: فابكِ لنفسكَ ولأهلِ دينك، فأما عمرُ فلا تبكِ له، فإنَّ اللهَ لمْ يكنْ ليجمعَ عليهِ خوفَ الدنيا وخوفَ الآخرة، ثمَّ قال: ما عجبتُ لهذا الراهبِ الذي تعبدَ في صومعته وتركَ الدنيا، ولكن عجبتُ لمن أتتْهُ الدنيا منقادةً حتى صارتْ في يدِهِ ثمَّ خلّي عنها[١].

سابعًا: منْ سلوكياتِ عمرَ، يروعكَ في شخصيةِ الخليفةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ عدةُ جوانبَ سلوكيةٍ مضيئة.. فهو الصادقُ الأمين، وما حملتْهُ مسئولياتُه وتعاملاتُه على الكذب، بلْ قالَ عنْ نفسه: ما كذبتُ منذُ علِمتُ أنَّ الكذبَ يضرُّ أهلَه[٢].

وهو المتواضعُ رغمَ ما قدَمهُ لإسلامِهِ وأمَّتِهِ، وقدْ قالَ رجلٌ لعمر جزاكَ اللهُ عن الإسلامِ خيرًا، قال: بلْ جزى اللهُ الإسلامَ عني خيرًا[٣].

وهو الزاهدُ رغمَ أبَّهةِ الملكِ وسلطانِ الخلافة، ولذا قالَ مالكُ بنُ دينار: الناسُ يقولونَ: مالكُ بنُ دينارَ زاهدٌ، إنما الزاهدُ عمرُ بنُ عبدِ العزيز الذي أتتْهُ الدنيا فتركَها[٤].

وهوَ الصائمُ القائمُ رغمَ أعباءِ الخلافة، والقارئُ لكتابِ اللهِ وإنْ كَثُرتْ مسئولياتُهُ، فقدْ وردَ أنهُ كانَ يصومُ الاثنينِ والخميسَ[٥] وكان قلَّما يَدَعُ النظرَ في المصحف[٦].

---

(١) السير ٥/ ١٤٣.
(٢) السير ٥/ ١٢١.
(٣) السير ٥/ ١٤٧.
(٤) الحلية ٥/ ٢٥٧.
(٥) الطبقات ٥/ ٣٣٣.
(٦) الطبقات ٥/ ٣٦٦.

ثامنًا: عمرُ الناصحُ لولاتِهِ وأمتهِ: لم يألُ، عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ النصحَ لولاتهِ وعمومِ المسلمين، كتبَ يومًا إلى أحدِ عمالِهِ يقول: أما بعدُ، فإني أوصيكَ بتقوى اللهِ ولزومِ طاعته، فإنَّ بتقوى اللهِ نجا أولياءُ اللهِ منْ سخطِه، وبها تحقَّق لهمْ ولايتُه.. التقوى عصمةٌ في الدنيا منَ الفتن، والمخرجُ منْ كربِ يومِ القيامة.. إلى أنْ يقول: فقدْ رأيتُ الناسَ كيفَ يموتونَ وكيفَ يتفرقون، ورأيت الموتَ كيفَ يعجلُ التائبَ توبَته، وذا الأملِ أملَه، وذا السلطانِ سلطَانه، وكفى بالموتِ موعظةً بالغةً وشاغلًا عن الدنيا، ومرغبًا في الآخرة إلخ...[1].

ونصحَ عمرُ المستترينَ بالمعاصي عنْ أعينِ الخلقِ، وعينُ اللهِ ترقبُهم فقال: يا معشرَ المستترين، اعلموا أنَّ عندَ اللهِ مسألةً واضحة، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2][3].

ونصحَ عمرُ عمومَ المسلمينَ بعدمِ الاغترارِ بالدنيا... وقدْ تصورَ حالَ أهلِ القبورِ وما آلوا إليهِ وما كانوا مشغولينَ به، وحذرَ من الغفلةِ، والغرورِ، وتمثلَ قولَ القائل:

تُسَرُّ بما يفنى وتُشغلُ بالصِّبا ... كما غُرَّ باللذاتِ في النومِ حالمُ
نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُكَ نومٌ والردى لكَ لازمُ
وتعملُ فيما سوفَ تكره غِبَّهُ ... كذلكَ في الدنيا تعيشُ البهائمُ[4]

ولمْ ينسَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ نصيحةَ منْ سيخلفُه، فقدْ كتبَ إلى يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ حينَ حضرهُ الموتُ يقول: سلامٌ عليكَ أما بعد، فإني لا أراني إلا

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٧٨.
(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢، ٩٣.
(٣) الحلية ٥/ ٢٨٨.
(٤) السابق ٥/ ٢٦٣.

لما بي، ولا أرى الأمرَ إلا سيُفضي إليك، واللهَ اللهَ في أمةِ محمدٍ النبيِّ ﷺ، فتدعُ الدنيا لمنْ لا يَحْمَدُك، وتفضي إلى منْ لا يعذِرُك، والسلامُ عليك[١].

تاسعًا: قالوا عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيز: الناسُ شهودُ اللهِ في أرضه.. وقدْ أثنى كثيرٌ على عمرَ وخلافته، بلْ تحققَ فيه مقولةُ جدِّهِ لأمهِ عمرَ بنِ الخطابِ- وإنْ لمْ يَرَهُ- حيثُ وردَ أنهُ قال: منْ ولدي رجلٌ بوجْهِه شَجَّةٌ يملأُ الأرضَ عدلًا..[٢].

وسئلَ محمدُ بنُ عليِّ بنِ الحسينِ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيز فقال: هوَ نجيبُ بني أُميةَ، وإنه يُبعثُ يومَ القيامةِ أمةً وحدَه[٣].

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ: كانتِ العلماءُ معَ عمرَ بنِ عبدِ العزيز تلامذةً[٤].

وقالَ مالكُ بنُ دينار: لمّا وليَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز قالتْ رعاءُ الشاءِ: منْ هذا الصالحُ الذي قامَ على الناس خليفةً؟

عدلُه كفَّ الذئابَ عنْ شائِنا[٥].

عاشرًا: جلساءُ عمرَ وأصحابُ مشورتِهِ: كانَ العلماءُ والفقهاءُ والناصحون هُمْ جلساءَ عمرَ وأصحابُ مشورته، ومنذ كانَ واليًا على المدينةِ استدعى عشرةً منْ خيارِ أهلِ المدينة وفقهائِها، وقال: إني دعوتُكمْ لأمرِ تؤجَرونَ فيه، ونكونُ فيه أعوانًا على الحقِّ، ما أريدُ أنْ أقطعَ أمرًا إلا برأيكمْ أو برأيِ منْ حضرَ منكم، فإنْ رأيتمْ أحدًا يتعدَّى، أو بلغَكم عنْ عاملٍ ظُلامةٍ، فأُحرِّجُ باللهِ على منْ بلغهُ

---

(١) الطبقات ٥/٤٠٦.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٦٣.

(٣) المصدر السابق/ ٣٦٥.

(٤) السابق/ ٣٦٥.

(٥) السابق/ ٣٧٠.

ذلكَ إلا بلّغني، فجزَوْهُ خيرًا وتفرقوا[١].

أما الشعراءُ والمدَّاحونَ فلمْ يكنْ لهمْ سوقٌ في خلافةِ عمرَ، وعنهمْ يعبرُ الشاعرُ جريرٌ الذي قدمَ إلى عمرَ وطالَ مقامُه على بابِ عمرَ، ولم يلتفتْ إليهِ فكتبَ إلى عونِ بنِ عبدِ الله وكانَ خصيصًا بعمر يقول:

يا أيها القارئُ المرخّي عمامتَهُ   هذا زمانُكَ إني قدْ مضى زمني
أبلغْ خليفتَنا إنْ كنتَ لاقِيَهُ   أني لدى البابِ كالعصفورِ في قرنِ[٢]

أيها المسلمون: هذه نماذجُ غاليةٌ في تاريخِنا.. وأولئكَ النبلاءُ منْ رجالِنا، وحقَّ للتاريخِ أنْ يسطرَ مآثرَهم بمدادٍ منْ ذهب، وحقَّ للمسلمينَ أن يفخروا بمثلِ هؤلاء، إنهمْ رجالٌ عرفوا قيمةَ الدنيا وقدرَ الآخرة، افتخروا بالإسلامِ فافتخرَ بهمُ المسلمون، ومثَّلوا الإسلامَ فاستجابَ لهمْ غيرُ المسلمين.

أولئك آبائي فجئني بمثلِهمْ   إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

وليسَ عمرُ فلتةً في التاريخ، بل لهُ نظائرُ قبلَه وبعده، ولا يزالُ الخيرُ في هذهِ الأمة، ولئنْ غَفَتْ هذه الأمة فترةً من الزمن، فما أسرعَ ما يستيقظُ النائمُ، ولئنْ ذَلَّتْ وعَزَّ أعداؤُها فالأيامُ دولٌ.. والعاقبةُ للمتقينَ ولا عدوانَ إلا على الظالمين.

ولكنْ قراءةُ التاريخِ بعمقٍ واحدةٌ من سبلِ نهضةِ المسلمين وعزتِهم؛ ففي التاريخِ عبرةٌ، وفي أحداثِ الزمانِ موعظةٌ لأولي الألباب.



(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٨.
(٢) السيوطي/ ٣٧٩.

مكر الأعداء في القرآن الكريم(١)

الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ القويِّ العزيزِ، لهُ العزةُ جميعًا ولهُ المكرُ جميعًا، وهوَ الكبيرُ المتعالُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، أهلكَ عادًا الأُولى وثمودَ فما أبقى والمؤتفكةَ أهوى، وبأسُه لا يُردُّ عن القومِ المجرمينَ قديمًا وحديثًا ومستقبَلًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أحاطتْ بهِ الأعداءُ ومَكَرَ بهِ الماكرونَ وتطاولَ عليهِ المجرمونَ فما وَهَنَ ولا استكانَ، بلْ صبرَ وجاهدَ حتى نصرَهُ اللهُ، وردَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهِمْ لمْ يَنالوا خيرًا، وكفى اللهُ المؤمنينَ القتالَ وكانَ اللهُ قويًا عزيزًا..

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، ورضيَ اللهُ عنِ الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ. أوصيكمْ ونفسي بتقوى اللهِ.

أيها المسلمون: يتكالبُ أعداءُ الإسلامِ في كلِّ زمنٍ محاربينَ دِينَ اللهِ ورسلَه والمؤمنينَ، ويتفنَّنُ أولئكَ الأعداءُ في كلِّ عصرٍ بما يُناسبُه منْ وسائلِ الحربِ والعداءِ.

وفي أيامِنا هذهِ تشتدُّ هجمةُ الأعداءِ، ويتجدّدُ مكرُهمْ، وتتوحَّدُ قُواهم لضربِ المسلمينَ وحِصارِهمْ.. والمسلمونَ كلَّما دهمتْهم الخطوبُ رجعوا إلى كتابِ اللهِ فوجدوا فيهِ الشفاءَ والهدى والنورَ والضياءَ..

وحديثُ اليومِ عنْ مكرِ الأعداءِ من خلالِ آياتِ الكتابِ العزيزِ.. ذلكَ الكتابُ المُعجزُ المتجدِّدُ في عرضِه وعِبَرِه، فماذا نجدُ فيهِ عنْ مكرِ الأعداءِ وعاقبتِهمْ ونهايتِهم؟

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٧/ ١١/ ١٤٢٣هـ.

أولًا: العداءُ والمكرُ سُنّةٌ جاريةٌ، وقَدَرٌ إلهيٌّ، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وكما جعلْنا في قريتِكَ يا محمدُ أكابرَ منَ المجرمينَ، ورؤساءَ ودعاةً إلى الكفرِ والصدِّ عنْ سبيلِ اللهِ، وإلى مخالفتِكَ وعداوتكَ، كذلكَ كانتِ الرسلُ منْ قَبْلِك يُبتلَوْنَ بذلكَ، ثمَّ تكونُ العاقبةُ لهمْ.. وقالَ تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ﴾[2].

ثانيًا: هذا المكرُ والعداءُ يتعاونُ عليهِ شياطينُ الإنسِ والجنِّ، كما قالَ ربُّنا تباركَ وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾[3].

عنْ أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهوَ في المسجدِ، فجلستُ، قالَ: «**هلْ صلَّيتَ**»؟ قلتُ: لا، قالَ: «**قُمْ فصلِّ**»، قالَ: فقمتُ فصلَّيتُ، ثمَّ جلستُ، فقالَ: «**يا أبا ذرٍّ! تعوَّذْ باللهِ منْ شرِّ شياطينِ الإنسِ والجنِّ**»، قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ وللإنسِ شياطينُ؟ قال: «**نعمْ** ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾».

ثالثًا: وهذا المكرُ مع غرورهِ تَصغَى إليهِ أفئدةُ مَن لا يؤمنونَ ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[4].

إن هؤلاءِ المغرورينَ بالزُّخرفِ يَعملونَ ما يعملونَ منَ العداوةِ للهِ ولرسلهِ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٣.

وللمؤمنينَ، فهمْ لا يكتفونَ بالإصغاءِ والسَّماعِ.. ولا يَقِفُونَ عندَ حدِّ الرِّضاءِ والقبولِ، بل يقترفونَ ويخطِّطون ويَعملون.

إنها آيةٌ ظاهرةٌ في تعاونِ الأعداءِ فيما بينهمْ ضدّ الإسلامِ والمسلمينَ، والمعركةُ التي يقودُها الباطلُ والمبطِلون ضدَّ الحقِّ يتجمَّعُ فيها أصنافُ الشياطينِ، ويتعاونونَ لإمضاءِ خطّةٍ مدبَّرةٍ. فبعضُهمْ يوحِي إلى بعضٍ، وبعضُهم يُغوي بعضًا.

رابعًا: ولكنَّ هذا الكيدَ والمكرَ مهما بلغَ شأنُه واجتمعَ لهُ الخصومُ منْ كلِّ صوبٍ فليسَ طليقًا.. بلْ هوَ مقيَّدٌ بقَدَرِ اللهِ، ومُحاطٌ بمشيئتِهِ سبحانَه ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾[1]، إنهُ لا ينطلقُ كما يشاءُ بلا قيدٍ ولا ضابطٍ، ولا يصيبُ مَن يشاءُ بلا مُعقِّبٍ ولا رادعٍ.. وإنَّ الأعداءَ مهما بلغتْ قوتُهم وإرادتُهمْ فهيَ مقيَّدةٌ بمشيئةِ اللهِ ومحدودةٌ بقَدَرِ اللهِ.. وهنا يتعلَّقُ المؤمنُ باللهِ ويُسلّي نفسَه موقِنًا بأنَّ القوةَ للهِ جميعًا.. وأنَّ الخَلْقَ مهما صَنعوا فهمْ لا يشاءونَ إلا أنْ يشاءَ اللهُ، فيعتصمُ المؤمنُ باللهِ وحدَه، ويتوكَّلُ عليهِ وحدَهُ، ويخافُه وحدَهُ، ويرجوهُ وحدَه، معَ فعلِ الأسبابِ والأخذِ بسُبلِ النجاةِ.

خامسًا: والماكرونَ لهمْ عذابٌ شديدٌ، ومكرُهمْ يبورُ، ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ﴾[2]، قالَ أبو العاليةِ: همُ الذينَ مكروا بالنبيِّ ﷺ لمّا اجتمعوا في دارِ النَّدْوةِ[3].

ونهايةُ مكرِهمْ في تبابٍ، واللهُ يدافعُ عنْ أوليائهِ المؤمنينَ ويحفظُهمْ منْ مكرِ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٣) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٣٢.

الماكرينَ، وهذهِ قريشٌ تجتمعُ وتُخطِّطُ وتُدبِّرُ المكائدَ وتصنعُ المؤامراتِ لإنهاءِ الرسولِ ﷺ، ثمَّ يُبطِلُ اللهُ كيدَهمْ ويُفشلُ مخطَّطَهم، ويوحي إلى نبيِّهِ ﷺ بما ائتمروا بهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1].

سادسًا: المكرُ السيئُ يَحيقُ بأهلِهِ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[2] وفي أمثالِ العربِ: «مَنْ حفرَ لأخيهِ جُبًّا، وقعَ فيه مُنْكبًا»، وروى الزهريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا تمكرْ ولا تُعِنْ ماكرًا، فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ:** ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾»[3].

وربُّك يُمهلُ الظالمَ حتى إذا أخذَهُ لم يُفلتْه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[4].

سابعًا: والعاقبةُ للمكرِ والماكرينَ هيَ الهلاكُ والتدميرُ عاجلًا في الدنيا ومؤجَّلًا في الآخرةِ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[5].

أجلْ لقدْ تجاوزَ التدميرُ التسعةَ الرهطَ المفسدينَ إلى قومِهمْ أجمعينَ، وكذلكَ يُحيطُ عذابُ اللهِ بالمفسِدينَ والمتعاونينَ والساكتينَ الراضينَ.. وما ربُّكَ بغافلٍ عمّا يعملونَ.

أيها المسلمونَ: ومَنْ تأمَّلَ في آياتِ القرآنِ وَجَدَه يَعرِضُ عنْ أُممٍ مَكرتْ

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٣) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٦٠.

(٤) سورة هود، الآية: ١٠٢.

(٥) سورة النمل، الآيتان: ٥١، ٥٢.

فحلَّتْ بها عقوبةُ اللهِ في الدنيا، وما ينتظرُها في الآخرةِ أشدُّ وأخزى، وهذا محمدٌ ﷺ يُسلِّي ويسرِّي عنه ربُّه ويُصبِّرُه على مَكْرِ قريشٍ بذكرِ مكرِ الأُمم الماضيةِ ومصيرِهم، ويقولُ تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾(١).

نَعَمْ لقدْ مكرَ الذينَ منْ قَبْلِ قريشٍ، ومكرتْ قريشٌ، ومكر من بعد قريش وما يزال المكرُ ساريًا والنتيجة واحدة ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ فانهدمَ عليهمُ البنيانُ الذي شيَّدوهُ، وكانَ مقبرةً لهمْ، ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٢)، وكذلكَ يحيقُ المكرُ السيئ بأهلهِ، وتلك سُنَّةُ اللهِ معَ جميعِ الماكرينَ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾(٣).

إخوةَ الإيمانِ: قدْ يُزيَّنُ للماكرينَ مكرُهمْ، وقدْ يغترُّ المبطِلون بباطلهمْ، ولكنَّ ذلكَ لا يُلغي حقيقةً قرآنيةً بأنهمْ -هؤلاءِ الماكرينَ- صدُّوا عنِ السبيلِ، وبأنهم ضالُّون عنِ الطريقِ الحقِّ، ومَنْ يضلِلِ اللهُ فما لهُ منْ هادٍ، اسمعْ إلى ذلكَ كلِّه في قولهِ تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(٤)، والنتيجةُ المُرتقبةُ لهؤلاءِ: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾(٥)، فهمْ إنْ أصابتْهم قارعةٌ، أو حلَّتْ قريبًا من

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٤٢.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٣.

(٥) سورة الرعد، الآية: ٣٤.

دارِهمْ فهوَ الرعبُ والقلقُ والتوقُّعُ وإلا فجفافُ القلبِ منْ نورِ الإيمان عذابٌ، وحيرةُ القلبِ بلا طمأنينةِ الإيمانِ عذابٌ، ومواجهةُ كلِّ حادثٍ بلا إدراكٍ للحكمةِ الكبرى وراءَ الأحداثِ عذابٌ، ثمَّ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾(١).

أمّا المؤمنونَ الصادقونَ في إيمانِهمْ فقدْ ينالُهم بأسٌ منْ مكرِ الماكرينَ، وقدْ يتعرَّضونَ لأذىً منْ كيدِ الكائدينَ، وذلك ليبتليَ اللهُ المؤمنينَ ويُمحِّصَهمْ ويَمحقَ الكافرينَ ويكشفَ المنافقينَ.. إنها البأساءُ والضرّاءُ يُمتحنُ بها المسلمونَ للثباتِ على الإسلامِ وإنْ هُوجمَ.. وللصبرِ على الحقِّ وإن طُورِدَ، وعدمِ الفتنة بالباطلِ وإنْ علتْ رايتُه فترةً منَ الزمنِ، والنصرةِ للمسلمينَ وإن كانوا قِلّةً مُضطهدينَ.

إنَّ ممّا يُسلِّي المؤمنينَ ويُصبِّرُهم ويُكثّرُ قلتَهم، ويُقوّي ضعفَهمْ أنهم لا يخوضونَ المعركةَ معَ الكافرينَ وحدَهمْ، بلِ اللهُ معهمْ، وهو حسبُهمْ وناصرُهم والمدافعُ عنهمْ والمنتقمُ منْ أعدائهمْ، تجدونَ مصداقَ ذلكَ في عددٍ منْ آياتِ القرآنِ: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾(٢)، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾(٣)، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٦٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٤.

(٣) سورة الأنفال، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٤) سورة الحج، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

وبعدَ هذا العرضِ لشيءٍ منْ آياتِ المكرِ في القرآنِ يَرِدُ السؤالُ: وأينَ المسلمونَ منْ هذهِ التوجيهات وغيرِها في القرآنِ؟ أينَ هُمْ منها عِلمًا وعملًا.. ومعرفةً ويقينًا.

وصدق اللهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

اللهمَّ انفعْنا بهَدْيِ القرآنِ.



(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٩، ١٠.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولا عدوانَ إلا على الظالمينَ، ومَنْ يُهِنِ اللهُ فما لهُ منْ مُكرِمٍ.

إخوةَ الإسلامِ: ونحنُ هذهِ الأيامَ أمامَ هجمةٍ شرسةٍ بكلِّ المقاييسِ وأنواعِ الهجومِ، وفي ظلِّ أزمةٍ لا يعلمُ مَداها إلا اللهُ فالمستقبلُ مظلمٌ، ومؤشِّراتُ الملاحمِ والفتنِ تملأُ الآفاقَ، والمصيبةُ أنَّ المسلمينَ في غفلةٍ عنْ هذا، على حينِ يتحرَّكُ الأعداءُ ويجتمعونَ ويخطِّطونَ، والبوارجُ الكبرى تمخرُ عُبابَ البحرِ محمَّلةً بأنواعِ الأسلحةِ.. وأساطيلُ الجوِّ تتحرَّكُ منْ مغربِ الأرضِ إلى مشرقِها.. والمناوراتُ العسكريةُ منْ قِبَلِ جنودِ النصارى واليهودِ على أشُدِّها، أيستحقُ العراقُ كلَّ هذهِ الحشودِ؟ وما هيَ الخطوةُ الأخرى بعدَ العراقِ؟ وهلْ يسوغُ أنْ يظلَّ المسلمونَ يتفرَّجون والعدوُّ يحتل بلادَهمْ، ويقتلُ أبناءَهمْ، ويسيطرُ على مقدَّراتِهم؟ تلكَ أسئلةٌ كثيرًا ما تُثارُ.. فمنْ يجيبُ عنها بصدقٍ؟

لقدْ أصيبَ المسلمونَ بُذلٍّ، وهمُ الأعزّاءُ، وتفرَّقتْ كلمتُهمْ وهمُ الأمّةُ الواحدةُ.. وأصبَحوا هدفًا للغزوِ بعدَ أنْ كانوا قادةَ الفتحِ، والإسلامُ لا خوفٌ عليهِ ولكنَّ الخوفَ على المسلمينَ، فاللهُ يقولُ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾[1] فإلى متى يظلُّ المسلمونَ هدفًا لمخططاتِ الأعداءِ؟

إنَّ الإسلامَ يأبى الذوبانَ في المِللِ الأخرى.. بلْ يظلُّ مدُّه حتى في الأزماتِ.. واليومَ يشهدُ الناسُ أنَّ دينَ اللهِ يسيحُ في أرضِ اللهِ رغمِ المطاردةِ والتهمِ والإرجافِ والإرهاب، وفي بلادِ الغربِ نفسِها نطالعُ كلَّ يومٍ خبرًا عنْ

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٨.

إسلامِ مجموعةٍ مِنْ غيرِ المسلمينَ، ولمْ يَعُدِ الأمرُ قصرًا على الرجالِ بلْ شملَ النساءَ ناهيكَ عنْ مدِّهِ في آفاقِ الأرضِ كلِّها.

ولعلَّ هذا المدَّ الإسلاميَّ بشكلٍ عامٍّ أحدُ المخاوفِ الكبرى التي أثارتِ الغربَ فرأَوا تعجيلَ الضربةِ للمسلمينَ قبلَ أنْ يكتسحَهم الإسلامُ.. أمّا في البلادِ الإسلاميةِ فتستمرُّ ثمارُ الصحوةِ لتغطّيَ مساحةً أوسعَ ولتشمل كافةَ القطاعاتِ المدنيةِ والعسكريةِ وعلى مستوى الرجالِ والنساءِ.. ولعلَّ هذهِ الحملاتِ الغربيةَ.. وتلكَ الصورَ اليهوديةَ المأساويةَ لإبادةِ المسلمينَ تزيدُ مِنْ تنامي الصحوةِ وتعجِّلُ بيقظةِ المسلمينَ.. وهكذا يمكرُ الأعداءُ ويمكرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرينَ، وكلَّما ظنُّوا أنهمْ أوشكوا على القضاءِ على المسلمينَ وإذا بالإسلام يُثبِّتُ أقدامَهم، ويُوقظُ عزائمَهمْ.

أيها المسلمونَ: والنصرةُ للمسلم حقٌّ مشروعٌ، والرسولُ ﷺ يقول: «**انصُرْ أخاكَ ظالمًا أوْ مظلومًا**».. وحينَ يُبيتُ شعبُ العراقِ المسلمُ (مظلومًا) منْ ليلٍ أو نهارٍ فلا يسوغُ للمسلمينَ أن يَسكتوا.. ومنْ حقِّهمُ الدفاعُ عنْ أنفسِهمْ وإخوانِهم بكلِّ ما يستطيعونَ.

إخوةَ الإيمانِ: وإذا أصرَّ المتجبِّرونَ على طغيانِهم وحقَّقوا ضربتَهم، فلعلَّها أن تكونَ بدايةَ النهايةِ.. وعساها أنْ تكونَ مرحلةً لضعفِ القوةِ ونهايةِ الظُّلمِ والغطرسةِ.. وسُنَنُ اللهِ ماضيةٌ في الفناءِ والهلاكِ على كلِّ مستكبرٍ ظالم غشوم جاحدٍ بآياتِ اللهِ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.

قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[١].

أيها المسلمونَ: هلْ تُوقِظُ هذهِ الملاحمُ والفتنُ المتوقَّعةُ ضمائرَ المسلمينَ فيحاسبوا أنفسَهمْ ويعودوا إلى بارئِهمْ.. ويبادروا بالأعمالِ الصالحةِ كما أوصاهم حبيبُهمْ وناصحُهم ونبيُّهمْ ﷺ إذ يقولُ: «**بادِرُوا بالأعمالِ فِتَنًا كقِطَعِ الليلِ المُظلِمِ**».

وهلْ تدعوهمْ هذهِ الأزماتُ وتجمعُ الأعداءِ إلى نَبْذِ الفُرقةِ واجتماعِ الكلمةِ وتوحيدِ الهدفِ، فتلكَ القوةُ التي لا تُغلَبُ.

ومنْ مخارجِ الأزمةِ: الإيمانُ باللهِ واليقينُ بنصرِه والتوكلُ عليهِ وحْدَه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[٢].

أجلْ حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، قالَها إبراهيمُ عليه السلام حينَ أُلقيَ في النارِ، فكانَ الجوابُ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[٣].

وقالها المؤمنونَ معَ محمدٍ ﷺ حينَ قيلَ لهمْ: إنَّ الناسَ قد جَمَعوا لكمْ فاخشَوْهم، في حمراءِ الأسدِ، فكانَ الجوابُ: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[٤].

وما زالَ التوكلُ على اللهِ واليقينُ بنصرهِ سلاحًا يتدرَّعُ بهِ المؤمنونَ كلَّما

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٩، ٧٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.

اشتدتِ الأزماتُ وتكالبَ الأعداءُ، ولكنْ لا بدَّ معَ الإيمانِ منْ عملٍ، ومعَ اليقينِ منْ جهدٍ يُبتلى فيهِ الإيمانُ ويتميَّزُ الصادقونَ من الكاذبين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

إنَّ منْ معوِّقاتِ النفسِ عن الجهادِ: حبَّ الآباءِ والأبناءِ والإخوانِ والأزواجِ والعشيرةِ والأموالِ والتجارةِ التي يُخشى كسادُها، والمساكنِ التي تُرضى، وإيثارَ السلامة والإخلادِ للراحةِ والدَّعَةِ.. وتلكَ التي حذَّرَ اللهُ منها المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

إنَّ ما عند اللهِ خيرٌ وأبقى.. وهذهِ الحياةُ الدنيا متاعٌ، والآخرةُ هيَ دارُ القرارِ.

وماذا بعدَ أنْ تُهانَ كرامةُ المسلمينَ ويُسخَرَ بدينِهِمْ ونبيِّهم، ويُهدَّدوا بالاحتلالِ في قعرِ ديارِهِمْ.. إنَّ المسلمينَ وُعِدوا إحدى الحسنَيَيْن: فإمّا النصرُ وإمّا الشهادةُ.

مَنْ لَمْ يمُتْ بالسيفِ ماتَ بغيرِهِ   تنوَّعتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ
فإمّا حياةٌ تسرُّ الصديقَ   وإمّا مماتٌ يَغيظُ العِدا

ولنْ تموتَ نفسٌ حتى تستكملَ رزْقَها وأجلَها، لقدْ أصيبَ المسلمونَ بالوهنِ، وطغى عليهم حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموتِ، ومن عجبٍ أنَّ غيرَ المسلمينَ باتوا يُفادُونَ بأنفسِهِمْ وهمْ على الباطلِ، ويَرحلونَ منْ بلادِهم ويهاجِمونَ دونَ هدفِ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

خيرٍ، على حينِ يبخلُ المسلمونَ بأنفسِهم، وهمْ على الحقِّ.. ويَعجزونَ عنِ الدفاعِ عن أنفسِهمْ وإخوانِهم وبلادِهمْ ومقدَّساتِهم، وهمْ يُهاجَمونَ.. وللهِ في خَلْقِه شئونٌ.. ومهما بلغتْ قوةُ الأعداءِ.. ففيهمْ منَ الرعبِ والخوفِ والضعفِ والَخوَرِ.. ما اللهُ بهِ عليمٌ.. فلوْ صدقَ المسلمونَ لأرهبوهمْ، ولوِ اجتمعتْ كلمتُهمْ لأخافوهمْ.. ولوْ دافعوا عنْ دينِهمْ وحُرُماتِهم لدافعَ اللهُ عنهمْ.

اللهمَّ انصرْ دِينَكَ، وعبادَكَ.. وانتقمْ ممنْ أرادَ بالمسلمينَ سوءًا، يا عزيزُ يا جبَّارُ.



النعمان وفتح الفتوح، والمستقبل للأمة[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئات أعمالِنا، من يَهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسَلين، وارضَ اللهم عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعِيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإيمان: صحابيٌّ جليلٌ ومعركةٌ كُبرى من معاركِ المسلمين، بل (فتحُ الفتوح)، أذكِّرُكم ونفسيَ بها، شاء اللهُ لهذا الصحابيِّ أن يكون قائدَ المعركةِ وأولَ الشهداءِ فيها، وجمعَ اللهُ له بينَ النصرِ والشهادة كما تمنّى ودعا، كان هذا الصحابيُّ مُجابَ الدعوة، وسألَ ربَّه الشهادةَ فأعطاه إياها، وكانت هذه المعركةُ التي خاض غِمارَها -والمسلمون معه- نهايةً للفُرسِ وبدايةً للمدِّ الإسلامي في أرضِ المشرِق.. ومع انتصارِ المسلمين في هذه المعركةِ وفرحتِهم إلا أن ذلك لم يَمنعْهم من البكاءِ على قائدِهم وقد ضرَّجَتْه الدماءُ في أرضِ المعركة.. بل بَكَى المسلمون في المدينةِ وفي مقدّمتِهم الخليفةُ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه حين بلغهم استشهادُ هذا الصحابيِّ -رضي الله عنهم أجمعين-، فمن يكونُ هذا الصحابيُّ؟ وما هي المعركةُ ولماذا انتصرَ المسلمون؟

هو أبو حكيم، وقيل: أبو عَمْرو النعمانُ بن مُقرِّنٍ المُزنَي، وفدَ إلى رسول الله ﷺ في المدينة، مع وفدِ قبيلتِه (مُزَيْنَة) وشاركَ مع رسولِ الله ﷺ في

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ١٤/ ١١/ ١٤٢٣هـ.

جهادِه ومغازِيه وكان إليه لواءُ قومِه يومَ فتحِ مكة[١].

وبعدَ أن لَحِقَ رسولُ الله ﷺ بالرفيقِ الأعلى، استمرَّ النعمانُ ﷺ في عهدِ أبي بكرٍ مجاهدًا في سبيلِ الله مشارِكًا في الفتوحِ الإسلامية، حتى إذا كان عهدُ عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ فَتَحَ (النعمانُ) مدينةَ (كَسكَر) فولّاه الخليفةُ إمارتَها.. ولكنَّ النعمانَ لم يرغبْ في حياةِ الإمارةِ الهادئةِ فكتب إلى عمرَ يستعفيهِ من هذِه المهمّةِ ويطلبُ منه الإذنَ له بالانضمامِ إلى صفوفِ المجاهدينَ في سبيل الله، النعمان هو بشير عمر بفتحِ القادسية، وهو فاتحُ أصبهان.. وشهيدُ نَهاوَنْدَ[٢].

وبعدَ انتصاراتِ المسلمين في (القادسيةِ) (والمدائنِ) انحازَ (يَزدَجَرْدُ) ملكُ الفُرس على (نهاوند) -وهي في وسَطِ إقليمِ فارسَ، وفي قِبْلة همذانَ- وجمع هذا الملكُ الفارسيُّ كلَّ ما يستطيعُ جمعَه، واعتبر هذا المكانَ والمعركةَ (نهاوندَ) معركةً مصيريَّةً مع المسلمين.

أما الخليفةُ عمرُ ﷺ فقد أهمَّه أمرُ (يزدجردَ) وجمعُه في (نهاوندَ) فجمع المسلمين واستشارَهم، وهمَّ أن يرحلَ بنفسِه ليكون قريبًا من منازلةِ مَلِك الفُرْس، ولكن المسلمين لم يُشِيروا عليه بتركِ المدينة، وإنما أشاروا عليه أن يختارَ قائدًا للمعركةِ يَكْفيهِ هذه المهمةَ ونَثَرَ الفاروقُ كِنانتَه ليختار -وكلُّ الصحابةِ أخيار- ولكنّ الاختيارَ هذه المرةَ وقع على النعمانِ، ودعاه عمرُ لقيادةِ جيشِ المسلمين في نهاوندَ وقال له: «إذا أتاكَ كتابي هذا فسِرْ بأمرِ الله، وبنَصْر الله بمن مَعَك من المسلمينَ ولا تُوطِئهم وَعْرًا فتؤذيَهم، ولا تمنعْهم حقًّا

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٥٦، ٣٥٧.

(٢) الإصابة ١٠/ ١٧٠.

فتكفِّرَهم . . »[١].

واستجابَ النعمانُ لأمير المؤمنين وسار إلى أرضِ المعركةِ ومعه عددٌ من وجوهِ الصحابة فيهم: حُذَيفةُ بن اليَمانِ وعبدُ الله بنُ عمرَ، وجَرِيرُ بنُ عبدِ الله البَجَلِي، والمغيرةُ بن شُعْبة. . وسِواهم -رضي الله عنهم أجمعين.

وحين وَصَلَ النعمانُ إلى (نهاوندَ) نظَّمَ أصحابَه وهم ثلاثون ألفًا، وجعلَ على المقدّمةِ نُعَيم بنَ مقرِّنٍ المُزَني، وعلى الميمنةِ حذيفةَ بنَ اليمانِ، وعلى الميسرةِ سُويدَ بن مقرِّن، وعلى الساقةِ مُجاشعَ بنَ مسعودٍ ﷺ، وابتدأت المعركةُ يومَ الأربعاءِ سنةَ إحدى وعشرين للهجرة- وكان الفُرسُ قد تحصَّنوا بخنادقَ حفروها وربطوا أنفسَهم بالسلاسل حتى لا يَفِرُّوا . . وفرقٌ بين أولئكَ الجبناءِ وهم في أرضِهم وبين طلائعِ الشهادةِ من المسلمين وقد وَطِئوا أرضَهم، أولئك الذي آلَوا على أنفسِهم أن يقتتِلوا مع عدوِّهم حتى يموتَ الأعجلُ منهما . . أو أن يُذعِنوا للإسلام الدينِ الحقِّ فيكونَ لهم ما للمسلمينَ وعليهم ما عليهم . .

وطال الحصارُ، واستشار النعمانُ قادتَه فأشاروا عليه باستدراج الفُرسِ والتظاهرِ بالهروب حتى إذا ابتعدَ الجندُ المُختَفُون عن حصونِهم وخنادقِهم نَشِبَت المعركةُ . . وقد كان . . فقد وافقَ النعمانُ على هذا الرأيِ وقال: إني مُكبِّرٌ ثلاثًا، فإذا كانت الثالثةُ فابدءوا القتالَ، ودعا النعمانُ ربَّه -وكان كما يقول الذهبي: مُجابَ الدعوة- فبماذا دعا؟ وكيف قال؟ لقد رفعَ يديهِ إلى السماء، وتعلَّق قلبُه بخالقِه وتاقت نفسُه إلى الجنة، وعزَّ عليه أن يُغلَبَ المسلمون ويُخذَلَ الإسلام وقال: «اللهم أعزَّ دينَك، وانصُرْ عبادَك، اللهم إني أسألُك أن تُقِرَّ عيني بفتحٍ يكون فيه عزُّ الإسلام واقبِضْني شهيدًا» وسمع الناسُ الدعاءَ فبَكَوْا . . وحُقَّ

---

(١) محمد العبدة: وذكرهم بأيام الله، ص١٢.

لهم أن يَبكُوا.

وابتدأَت المعركةُ على إثرِ تكبيرِ القائد الشهيدِ (النعمان) وكانت شديدةً، ولكن فرسانَ المسلمينَ كانوا يَشقّون الصفوفَ وفي طليعتِهم (النعمانُ) والذي كان أولَ شهيدٍ في أرضِ المعركةِ، فما وَهَنَ المسلمون وما استكانوا بل استلمَ بعد النعمانِ (حذيفةُ بن اليمانِ) وأخفى خبرَ (النعمان) وهكذا شأنُ المسلمين، فكلَّما غاب منهم سيدٌ قام سيدٌ، وهكذا حتى تمَّ النصرُ المؤزَّرُ للمسلمين، وهرب (الفيرزانُ) قائدُ الفُرْس، فلحِقَه القعقاعُ بن عمرو ﷺ وقتله، وقُتل (يزدجردُ) ملكُ الفرس، وتفرَّق جمعُ الفُرس حينَها، بل انتهى أمرُ الفرسِ على إثرِ هذه المعركةِ التي سُمِّيت بـ (فتحِ الفتوح).

وهلَّل المسلمون- في أرضِ فارسَ- للنصرِ وكبَّروا.. ثم التفتوا يسألون عن قائدِهم (النعمانِ) ليبارِكُوا له النصرَ، ويهنِّئوه بما فتح اللهُ على يديه.. ولكن القائدَ قد فاضتْ روحُه إلى بارئِها وأقرَّ اللهُ عينَه بنصرِ الإسلام وعزِّ المسلمين- كما دعا- وحين أخبرهم أخوه (نُعَيم بن مقرِّن) قائلًا: هذا أميرُكم خُتِمَ له بالشهادةِ؛ لم يتمالكِ المسلمون أنفسَهم من البكاءِ لأميرِ نهاوندَ الشهيدِ، فبكَوْه بكاءً شديدًا.

أما المسلمون في المدينةِ، فكانوا بشَوْقٍ إلى معرفةِ الأخبارِ، وكان الخليفةُ عمرُ ينتظر نتائجَ معركةِ (نهاوند) بقلقٍ كبيرٍ، أجل لقد أَسهرتْهُ ليالي نهاوندَ، وكان يخرج إلى ضواحي المدينةِ في حرِّها القاسي ينتظرُ أخبارَ الفتحِ ويستنصرُ، وكان الناسُ مما يرونَ من استنصارِه ليس لهم همٌّ إلا (نهاوندُ) و(ابن مُقرِّن) فجاء إليهم أعرابيٌّ مهاجِر، فلما بلغ البقيعَ قال: ما أتاكم عن (نهاوند)؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: لا شيء، فأرسل إليه عمرُ، فأتاه، فسأله فقال: أقبلتُ بأهلي مهاجرًا حتى وَرَدْنا مكانَ كذا وكذا، فلما صَدَرْنا إذا نحن براكبٍ على جملٍ أحمرَ ما رأيتُ

مثله، فقلتُ: يا عبدَ الله، من أين أقبلتَ؟ قال: من العراق، قلتُ: ما خبرُ الناس؟ قال: اقتتل الناسُ (بنهاوند) ففتحها الله، وقُتل ابنُ مُقرِّن، والله ما أدري أيُّ الناسِ هو، ولا ما نهاوندُ. وما زال الخليفةُ عمرُ يسأل الأعرابيَّ حتى قال له: لعلك تكونُ لقيتَ بَرِيدًا من بُرُد الجنِّ، فإن لهم بُرُدًا[1].

وبعد فترةٍ وجيزةٍ جاء البشيرُ إلى عمرَ وكان السائبَ بن الأقرع.. فقال له عمر- بلهفٍ-: ما وراءَك؟ قال: فتحَ اللهُ عليك واستُشهِدَ الأمير.. واختلطتْ المشاعرُ وتداخلتِ الأحاسيسُ عند عمرَ.. فرَحٌ وحزنٌ، ودموع للنصرِ وأخرى لاستشهادِ القائدِ المظفَّر.. واعتلى عمرُ المنبرَ، ونعى إلى المسلمين النعمانَ بن مقرِّن، وبكى.. وبكى حتى نَشَجَ.. وشاركه المسلمون البكاءَ.. ولكنَّ عمرَ والمسلمين استبشروا بالنصرِ والفتح.

أما النعمانُ بن مقرِّن ففي سهلٍ فسيحٍ ممتدٍّ في نهاوندَ دُفن، ودُفن معه جنودُه الشهداءُ الأوفياء- يُشهِدون الناسَ على أنهم الأوفياءُ لدِينِهم ويَشهَدُ اللهُ على أنهم المجاهدون في سبيل الله، المتعالُون على حُطامِ الدنيا وزينتِها، وبمثلِ أولئك الرجالِ ينتصرُ الإسلام... وبمثلِ هذه العيِّناتِ يُرجَف بالأعداء، وبمثل هذا الصدقِ والإخلاص ينتصرُ المسلمون، ينتصرون وإن قدَّموا أنفسَهم شهداءَ، ويفرَحون وإنْ خُيِّلَ للعدو أنه ألقاهم صَرْعى، وصدق اللهُ العظيم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٥٧، قال المحقق: إسناد الرواية ثقات.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩، ١٧٠.

الخطبة الثانية:

أيها المسلمونَ: كيف انتصرَ المسلمون على أعدائِهم في الماضي، وكيف هُزِموا بعدُ، وكيف ينتصرُ المسلمون اليومَ وغدًا على عدوِّهم؟ تلك أسئلةٌ سَهلةٌ صعبة.. فما أسهلَ الحديثَ عنها، وما أعظمَ القيامَ بها.. وبكلِّ سهولةٍ يمكن القولُ: إنَّ المسلمين أسلافَنا انتصروا على عدوِّهم حين انتصروا على أنفسِهم، وخافهم عدوُّهم حين خافوا من ربِّهم، نَصَروا دينَ الله فنصرهم الله، وجاهدوا في سبيلِ الله مخلِصين فتحقَّقَ على أيديهم من النصرِ والتمكينِ والفتحِ المبينِ ما يشهدُ به العدوُّ والصديق، كانوا يبحثون عن الموتِ فتُوهَبُ لهم الحياةُ، وكانوا يتطلَّعون إلى الشهادة ويسألونَ ربَّهم أن يُبلِّغَهم إياها.. لقد قذفَ الله في قلوبِهم العزةَ بالإسلام وقال قائلهم: «نحن قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلام، ومهما ابتَغَيْنا العِزةَ بغيره أذلَّنا الله»، فقذف الله في قلوبِ أعدائِهم الرعبَ والمهابةَ منهم؛ والرعبُ بدايةُ الهزيمةِ.

تاقتْ نفوسُهم وتعالَتْ في الدنيا.. فكانت الآخرةُ همَّهم، وهجروا الأرضَ والأوطانَ والعشيرة والأزواجَ جهادًا في سبيل الله ودعوةً إلى دينه.. ووقف فارسُهم على جانب البحر وقال: واللهُ لو أعلمُ أن هناك أرضًا وقومًا خلفَ هذا البحرِ لم تبلُغْهم دعوةُ الإسلام، وتستطيعُ الخيلُ أن تصلَه، لأوطأْتُها إياه.

كانوا يتسابقون إلى الجهادِ في سبيل الله ومقارعةِ الأعداء.. يستوي في ذلك الشبابُ والكهولُ والأسوياءُ وأهلُ الأعذار، فالأعرجُ يأتي النبيَّ ﷺ وقد منعه أبناؤه من القتالِ ويقول: يا نبيَّ الله إني أريدُ أن أطأَ بعَرْجتي هذه الجنةَ، فلا تَحرِمْني من الجهادِ. فيأذنُ اللهُ فيُستشهَد! والأعمى يقول لأصحابه: إنني رجلٌ أعمى لا أستطيعُ الفرار، فأعطوني الرايةَ أحملها. فيُستشهَد والشبابُ بين يديْ

رسول الله ﷺ يتصارعون ليُثبتوا مقدرتَهم على القتال، فيَقبَلُ من يَقبَل منهم، ويرجئُ آخرين لعدمِ بلوغهم ومقدرتِهم حتى يبلُغوا في المعركة القادمة، وهكذا.

بل حتى النساء لهذا الجيل- وهنَّ ممن عَذَرَ اللهُ عن الجهاد- كنَّ يشاركنَ في الجهاد، يداوِينَ الجَرحى ويَسقِينَ العطشى من المسلمين المجاهدين- وربما حملنَ السلاح ونكَأْنَ العدوَّ، بل ربما استحقَّت إحداهن لقب (المجاهدة) كنُسَيْبة بنت كعب التي شهدت أُحدًا وقال عنها رسولُ الله ﷺ: «**لَمُقامُ نسيبةَ بنتِ كعبِ اليومَ خيرٌ من مُقامِ فلانٍ وفلان**»، وشهدتْ حمراءَ الأسدِ ودمُها ينزِف وشهدت الحديبيةَ، ويومَ حُنينٍ، ويومَ اليمامة، وبها قُطِعَت يدُها، وجُرحت يدها، وجُرحت سوى ذلك أحدَ عشرَ جُرحًا.. -رضي الله عنها وأرضاها[١].

أما المُوسِرون وأهلُ الثراءِ من المسلمين فكانوا يَبذُلون أموالَهم رخيصةً في سبيل الله وتجهيزِ المجاهدين، وربما تسابقَ اثنان منهم فأتى أحدُهما بنصفِ ماله، وجاء الآخر بمالِه كلِّه، ذلك شأن الخيِّرينِ (أبي بكر وعمر) رضي الله عنهما، أما عثمانُ وابن عوفٍ وأمثالُهما فما ضَرَّهُم ما فعلوا بعد تجهيزِ جيشِ العُسرة، وتبقى في المجتمع فئةٌ شاذَّةٌ منافقة يَلمِزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات.

أما الفقراءُ الذين لا يجدون ما ينفقون، ولا ما عليه يحملون، فتفيضُ أعينُهم بالبكاء حزنًا ألاَّ يجدوا ما ينفقون، ولا يَضِيرُهم سُخْريةُ الساخرين بهم، فأولئك سَخِرَ اللهُ منهم.

نعم لقد كان أولئك الفاتحونَ يقاتلون في سبيلِ الله ولا يخافون لَوْمةَ لائمِ كتب اللهُ في قلوبِهم الإيمانَ فكانوا يُوالُون أو يعادُون في الله ولله، ويقاتلون من يَكفُر ولا يُوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٨.

عشيرتَهم، ذلك الجيلُ كانوا باختصار: فرسانًا بالنهار، رهبانًا بالليل.

وجيلٌ تلك بعضُ سِمَاتِه حَرِيٌّ بالنصر، وخليقٌ بأن يخافَهم العدوُّ، ويفتحوا الأقاليمَ وينشروا دينَ الله. لكن ماذا جرى على مَن بعدَهم ممن هزمهم الأعداءُ وفرَّقوهم شِيَعًا، لقد أضاعوا الصلاةَ واتَّبعوا الشهواتِ، تعلَّقوا بالدنيا وتنافسوها، كَرِهوا الموتَ وأُصيبوا بالوَهْن، الشبابُ طَغَوْا بشبابِهم، بل ربما أمضَوْه في اللهوِ والترف، والكهولُ تعاجزوا وتباطئوا، والأغنياءُ بَخِلوا، والفقراءُ ذلُّوا بالمسألةِ وتشاغلوا بها، والنساءُ تسابقنَ إلى المُوضةِ وتعلَّقنَ بالتوافهِ من الأمور، بل أصبح بعضُهنَّ مَثارًا للفِتْنة ومحطةَ للتقليد وزُبالةِ القيَم والأفكارِ البالية المستورَدة. طاش ميزانُ الولاءِ والبراءِ.. وأصبح استِجداءُ العدوِّ وتقديمُ العونِ له أمرًا ظاهرًا. استهان بهم العدوُّ فاحتلَّ أرضَهم، بل تطاولَ إلى التدخُّل في شئونِهم الخاصة، واتَّهمهم بل تطاولَ على دينِهم ونبيِّهم ﷺ.

وجيلٌ تلك بعضُ سِمَاتِهم أنَّى يُنصَرون.

أيها المسلمون: ومع ذلك فالخيرُ باقٍ في هذه الأُمةِ، وثَمَّةَ من يَأنَفُون من هذا الواقعِ، والمسلمون بشكلٍ عامٍّ باتوا يتململون ويُدرِكون أكثرَ حجمَ الخَطَر المُحدِق، والفرصةُ أمامهم للإصلاح والعَوْدة إلى الله مُشرَعة الأبواب، والنماذجُ الصادقة للسلفِ والخَلَف تَغْذُو سيرَهم، وفي تجاربِ المسلمين- عبرَ القرون- مع أعدائهم ما يُحفِّزُهم على النهوضِ والاستعلاء، واللهُ غالبٌ على أمره، ولَيَنصرنَّ اللهُ من ينصرُه، وجندُ الله هم الغالبون، والعاقبةُ للمتقين.

عباد اللهَ: وكم هو جميلٌ هذا العنوانُ الذي عبَّر به الكاتبُ عن وصفِ أحوالِ المسلمين اليومَ بهذا التعبير (المستَضعَفُون الأقوياءُ) ثم قال: مُخطئ من يظنُّ أن المسلمين الصادقين أصبحوا لُقْمةً سائغةً في أيدي أعدائهم، ومغرورٌ من يُمنِّي نفسَه بسهولةِ المعركة الطويلةِ معهم، وواهمٌ أو مُغفَّل من يعتقدُ أن تلك المعركةَ

ستنتهي بإنهائِهم أو احتوائِهم أو إلجائِهم إلى التخلِّي عن رسالتِهم الموكولة من الله إليهم بأن يُخرِجوا الناسَ من الظُّلماتِ إلى النور، ويملئوا الأرضَ قِسطًا وعدلًا بعد أن مُلِئت جَوْرًا وظُلْمًا.

فهؤلاء المسلمون -رغمَ استضعافِهم- أداةٌ إلهيَّة قَدَريّة سيُجري اللهُ تعالى بهم سُنَّته، ويحقِّق بهم وعدَه بانتشار نورِه وانتصارِ دينه وانكسار أعدائه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1]. ثم يقول الكاتب -وفَّقه اللهُ-: صحيحٌ أن المسلمين الآن ضُعفاءُ في تفرُّقِهم، مشتَّتون بجراحِهم، ضائعون بفِقدانِ القيادةِ العالمَية الواحدة الرائدة، وصحيحٌ أن ظِلالًا من الذُّلّ لا تزالُ تخيِّم على رءوس الأُمة بعد طولِ مخاصمةٍ لمَعقِد العزِّ والتمكين المتمثِّل في ذُرْوةِ سنامِ الإسلام، ولكنْ هذه كلُّها أعراضٌ لأمراضٍ سرعانَ ما تزولُ بزوال أسبابِها، والأيامُ تُثبِت هذا، فلا تزال العودة إلى الله تعالى بالمسلمين رويدًا رويدًا إلى آفاقٍ رَحْبةٍ من رحمة الله.

ثم استعرضَ الكاتبُ مكرَ الأعداء وماذا حقَّقَ من إيجابياتٍ للمسلمين، وجالَ جولاتٍ متعددةً في عددٍ من المناطق الملتهبةِ، وتفاءَل بمستقبلٍ مشرقٍ للإسلام والمسلمين من خلال مسمَّياتِه التالية:

١- فلسطينُ عَطاءٌ بلا غِطاء.

٢- أفغانستان: طالِبان وغلامُ الأخدود.

٣- الشِّيشان دورٌ كبير لشعبٍ صغير.

٤- أكرادُ العراق ووميضُ أملٍ في الآفاق.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

٥- الفِلِبِّين أولُ الغيثِ قَطْرة.

وتحتَ كلٍّ مسمًّى تحدَّث الكاتبُ وفصَّل عبرَ رُؤًى وإحصائياتٍ حَرِيَّةٍ بالقراءَة والتأمُّل كما جاء في (مجلة البيان) في عددها الأخير: ذي القَعْدة **١٤٢٣** هـ.

وما أحوجَ المسلمين اليومَ إلى نظرةٍ متفائلة تَنظُر بنورِ الله.. وتتعامل مع كيدِ الأعداء وَفْقَ سُننِ الله، ألا وإن دين الله منتصرٌ.. ولكنَّ السؤالَ المهمَّ لكل واحدٍ منا: ماذا قدَّم لنُصرةِ هذا الدينِ؟ وما دور إيمانِنا بحقائق القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2] ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[3] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾[4] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[5].



(١) سورة النحل، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٧٣.

(٣) سورة الطارق، الآيات: ١٥-١٧.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٥٩.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

ظاهرةٌ، وموسم[1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله أَمَرَنا بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبى، ونهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، حرَّمَ الظلم على نفسِه وجعله بين عبادِه محرَّمًا، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، جاءت شريعتُه بحفظِ الأنفُس والأموالِ والأعراض، والمفلِسُ من أُمّته من جاء يومَ القيامة وقد سفكَ دمَ هذا وضربَ هذا وأخذ مالَ هذا.

اللهم صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائر النبيين.

عبادَ الله: ظاهرةٌ اجتماعيةٌ مقلِقةٌ، يتفاقمُ خَطَرُها، ويكثُر جَرْحاها وقتلاها، وتعمُّ ببلواها فتتجاوزُ الفاعلين إلى الأبرياءِ الآمنين، نشتركُ جميعًا في مسئوليتها، ولا بدَّ أن نتعاونَ جميعًا في علاجِها.. ضحيتُها أولادُنا، ووَقودُها أموالُنا، إنها تستفزُّ مشاعرَنا، وتحرقُ أعصابَنا، وطاقَمُها في بيوتِنا وأبطالُها المتهوِّرون فَلَذَاتُ أكبادِنا، كم أيتمتْ، وأرملتْ، وأقعدتْ وشلّتْ، وكم أحزنتْ وأبكتْ، وآلمتْ وفرّقتْ وآثارُها مزيجٌ من الدماءِ النازفةِ، والأشْلاءِ المتناثرةِ، والجثثُ الهامدة هنا وهناك، فهل عرفتُم هذه الظاهرةَ؟

إنها ظاهرةُ حوادثِ السياراتِ عمومًا.. وأخصُّ منها تلك التي تَحدُث نتيجةَ تهوُّرٍ في القيادة، واستخفافٍ بالأنفُس البشرية، وتطاوُلٍ على الأنظمة المروريّة كسرعةٍ جنونية، أو قَطعٍ للإشارة دون مبالاتٍ بالنتيجة، أو نوعٍ من القيادة ذاتِ الحَرَكات البهلوانية والتي تؤدِّي إلى الإضرارِ بالآخرين، وقد يكون هذا القائدُ

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢٨/ ١١/ ١٤٢٣هـ.

المتهوِّرُ أولَ الجرحى، وربما كان أولَ واحدٍ في عِدَاد الموتى.

وهذه الظاهرةُ الأخيرة- أعني ظاهرةَ ما يُسمَّى (بالتفحيط)- هي المقصودةُ بحديثِ اليوم، لأن سُوقَها يَرُوج- أكثرَ- في أيامِ الامتحانات، وعلى مشارفِ الإجازات.. ولقد فُتِنَ بها أبناؤُنا حتى شكَّلوا جمهورَها المتفرِّج، وتفنَّن بها أبناؤنا (المتهوِّرون) حتى عاد مِقودُ السيارةِ بأيديهم أشبهَ بمُسدسٍ في يدِ مهووسٍ أو مجنون؟

والسؤالُ الذي يطرَحُ نفسَه: ما دورُنا- نحن الأولياءَ- في هذه الظاهرةِ وجودًا أو عدمًا؟ وما دَورُ المؤسساتِ التربويةِ والتعليميةِ- قبل الأَمنية- تربيةً وتعليمًا ونُصحًا، ثم أين دورُ الجهاتِ الأَمنية الفاعل تجاهَ هذه الظاهرةِ رصدًا ومتابعةً وتوعيةً ومنعًا؟

أيها الآباءُ.. وأيها المربُّون، ويا رجالَ الأمنِ- تعالَوْا بنا نضعُ النِّقاطَ على الحروفِ في سبيل علاجِ هذه الظاهرة، وتجنيبِ مجتمعِنا وأبنائنا من كوارثَ تُهِيل فيها لغةُ الأرقام.. ويُصدَم الغافلُ حين يطَّلعُ على إحصاءاتِ الحوادثِ وعددِ الموتى، فضلًا عن المعاقِينَ والمشلولينَ وأصحابِ العاهاتِ الأخرى.. ولقد ذُهَلتُ حين طالعتُ في إحدى صحفِنا المحلية جريدةِ الرياض في يوم الثلاثاء ٢٥/ ١١/ ١٤٢٣هـ- وبها مقالٌ يتحدَّثُ عن آثارِ الحوادث ونسبتِها وكثرتِها، ويُحصي المقالُ حوادثَ هذا العامِ الذي نودِّعُه ٢٠٠٢م وتقول: إن عددَ الحوادثِ زاد ليصلَ إلى ثلاثمائة وعشرين (٣٢٠) ألفَ حادثٍ، بمعدَّل ثمانمائةٍ وعشرين (٨٢٠) حادثًا في اليومِ الواحدِ، مع ستٍّ وثمانين إصابةً، وثلاثةَ عشرَ (١٣) وفاةً في اليومِ ثم يقولُ الكاتبُ معلقًا: هذه المعلوماتُ والأرقامُ والحقائقُ كشفَتْها إحصائياتٌ رسمية أُعلِنَ عنها في الصحفِ، وكَشفتْ الإحصائياتُ أرقامًا مُروِّعةً ومخيفةً لعدد القتلى والمصابين جرَّاءَ الحوادثِ

المروريةِ الناتجة عن السرعة واللامبالاةِ والتهوُّر في القيادةِ وقَطْع الإشارات، وفوقَ كلِّ هذا لا يزال للأسفِ حصادُ الأنفُسِ مستمرًّا، بل وفي تصاعدٍ مُذهِلٍ[١].

أيها الناسُ: ودعونا نقفْ على لونٍ واحدٍ من هذه الممارسات الخاطئةِ في القيادةِ وما يُسمَّى بـ (التفحيط) أو (حربِ الشوارع) ولنبدأْ بدَوْرِ الأسرةِ وممثِّلِها الأول (الأب) وأكتفي هنا بطرحِ عددٍ من الأسئلةِ على الآباء، وكلٌّ يختارُ الإجابةَ التي يراها مناسبةً له ولأولادِه وللمجتمعِ من حولِه.

فهل ابنُكَ -أساسًا- مؤهَّلٌ للقيادةِ وأهلٌ لتحمُّل مسئوليةِ السيارة؟ وإياك أن تقول: هذه مسئوليةُ رجالِ الأمن وحدَهم.. فأنت بكلّ تأكيدٍ أدرى وأعرفُ بابنِك من غيرِك، لا سيَّما في تعقُّلِه وتحمّلهِ للمسئولية، وتقديرِه لمصلحة نفسِه والآخرين، وإذا لم يبقَ إلا قدرتُه على القيادةِ فنيًّا فتلك مسئوليةُ رجالِ الأمن.. لكنْ إياك أن تشفعَ أو توسِّط أو تضغطَ عليهم للتجاوزِ عن شروطٍ لا بدَّ منها للقيادة.

وهل ينتهي دورُك -أيها الأبُ- عند شراءِ السيارةِ ثم تسليم الابنِ مقاليدَها دون شرطٍ أو قيد، ودون معرفةِ أين يذهبُ، ومن يصطحبُ.. وأين يُمضِي سَحابةَ النهار وعتمةَ الليل على هذه السيارةِ، هل لديك متابعةٌ وسؤالٌ ومعرفةٌ وتوعيةٌ؟ أم أنك محاسِبٌ تدفع فاتورةَ الوَقُود.. وقد يحرق نفسَه أو غيرَه بهذا الوقود.

هل ابنُك أصلًا محتاجًا للسيارةِ أم أنك تُباهي أن في البيت عددًا وأنواعًا من السياراتِ، بقطعِ النَّظَر عن مدى الحاجةِ إليها، وبِصرفِ النظر عن من يقودُها.

---

(١) جريدة الرياض، عدد ١٢٦٣٦ في ٢٥/ ١١ / ١٤٢٣هـ.

إن العاطفةَ قد تأخذُنا -أحيانًا- لتوفيرِ السيارة للابنِ.. وقد نُدفَعُ من داخلِ البيت -ممن قد لا يُقدِّرون العواقبَ- فهل نحتاطُ لذلك كلِّه؟

وحين تتابعُ -أيها الأبُ- أبناءَك.. وتُعلِّم وتحذِّر، وتُنذِر.. فهل يصعبُ عليك أن تسحبَ السيارة من ابنِكَ حين لا يسمعُ لنُصحِك.. وتكثُر الشكاوَى عليه من الآخَرين.. أم تظنُّ أن هذا الحقَّ من اختصاصِ رجالِ الأمنِ فقط؟

وبالجملةِ فعلينا معاشرَ الآباءِ كِفلٌ من مسئوليةِ هذه الآثار التي نتوجَّعُ لها، ولا يكفي أن نُرحِّلَ المشكلةَ إلى غيرِنا.. بل نقومُ بدورِنا ثم نطالبُ الآخرين بدَورهم، أما المَحاضنُ التربوية -وفي طليعتها المدارسُ- فهي تملك التوعيةَ لهؤلاءِ الشبابِ قولًا وفعلًا.. فالندوةُ والمحاضرةُ عن آثارِ الحوادثِ.. ودَوْرِ الشبابِ الفاعلِ في أُمتهم.

وفي طابورِ الصباح كلمةٌ مختصَرةٌ أو قُصاصةٌ معبِّرة من جريدةٍ أو مجلَّة، أو قصيدةٍ مُوحِيَة.. أو تجربة مذكِّرة وهكذا.. من ألوانِ التوعية وأساليبِها المؤثِّرة، وتستطيعُ المدرسةُ أن تتابعَ المتهوِّرين في القيادةِ فتتحدَّثُ إليهم على انفراد.. فإن نفعَ أسلوبُ اللِّينِ والترغيب.. وإلا فالتلويحُ بالترهيب والعقوبة.. وقد يصلُ الأمرُ إلى التهديدِ بالفَصْل من المدرسة إنِ استمرَّ هذا المتهوِّرُ في تهوُّره.. والمنعُ من دخولِ الامتحان يسبِقُه كعقوبةٍ أوَّلية رادعةٍ، ودرجاتُ (السلوك) المهمَّشةُ ينبغي أن يُعادَ لها اعتبارُها ويَشعُر الطالبُ بأثرِها في معدَّلِه، وأثرِها في قَبُولِه في المرحلةِ اللاحقة لمرحلتِه.

ولستُ أدري، ألاَ تفكِّرُ مدارسُ البنينِ بإبقاءِ الطلبة بعد الامتحانِ في المدرسة، وتكثيفِ المناشطِ اللاصفِّيّة المقبولةِ والتوعويةِ المؤثِّرة في هذه الفترةِ الضائعة، والتي كثيرًا ما يستغلُّها الشبابُ بالتجمُّعات الفارغةِ والتي لا تخلُو من سلوكياتٍ غير مُرضيةٍ، إن هذه لو فُكِّر فيها بجدٍّ لإفادةِ الطلبة من جهةٍ، ومُنِعت

هذه التجمعاتُ التي ينتظرُها المتهوِّرون في القيادةِ ليستعرِضوا أمامَها . . من جهةٍ أخرى. وفوقَ ذلك كلِّه فقد أصبحت الثقافةُ الأمنيّةُ ضرورةً مُلحَّةً في مناهجِنا التعليمية، بشكلٍ يُسهِم في إيقافِ نزيفِ الدماء، ويقلِّلُ بإذنِ الله من الجَرْحى والموتى.

أمّا أنتم يا رجالاتِ الأمنِ فعلى الرَّغمِ من الجهدِ الذي تقومون به، فالمجتمعُ يلومُكم على عددٍ من الجرائم التي تقعُ في غفلةٍ منكم، والمجتمعُ يتطلَّع إلى جهدٍ أكثرَ وفاعليةٍ أقوى. . وأساليبَ متجدِّدةٍ ومؤثِّرة للتوعية المروريةِ عمومًا، ولمعالجةِ مثل هذه الظاهرة على الأخصِّ، فزيارتُكم للمدارس لا ينبغي أن تُحصَرَ في أسابيع المرورِ لتكون حوليةً. . ولا يكفي أن تكونَ محاضرةً أو ندوةً إلقائيةً مرتَجَلةً وإنشائيةً، فنحن في زمنِ المعلومات. . وفي زمنِ تأثير الصورةِ المرئيّة، وبالتالي فلا بدَّ من لغة الأرقامِ تخاطبون وتحذِّرون بها الطلاب، ولا بدَّ من عرضِ الصُّور وإن كانت مفزِعةً ليرى المشاهِدُ كيف تكونُ المأساةُ حين لا تُضبَطُ القيادة، لا بدَّ من قراءةِ الآثار والمعدَّلاتِ الناجمةِ عن الحوادث. . ولا بدَّ من عرضِ الأسبابِ بوضوحٍ ورسمِ العلاج بحَزْمٍ، هل تعجزُ قطاعاتُنا الأمنيةُ عن محاصرةِ هذه الظواهر. . ومعاقبةِ من لا يبالي بالأرواحِ والممتلكات؟ وهل يكفي مطاردةُ هؤلاءِ المتهوِّرين -وقد يَنجُم عنه أضرارٌ أكبرُ- أم أن هناك دراسةً للظاهرةِ وعلاجًا لها بوسائلَ وآلياتٍ جديدةٍ وجيدة وآمنةٍ تقطعُ دابرَ المشكلة، وتمنعُ مشكلاتٍ مماثلةً؟ ألا يُفكَّر في وجودِ نقاط أمنيّةٍ فرعيّة في الأحياءِ الكبيرة، وكذا في الشوارع المزدحمةِ ليَسهُل تعاملُ رجلِ الأمن مع القضايا والحوادثِ الأمنية بشكل عامّ- ومنها هذه الظاهرةُ وظاهرةُ السرقةِ، لا بدَّ من عقوباتٍ رادعةٍ لمن يتكرَّرُ خطؤُه، ولا بدَّ من توعيةٍ مروريةٍ مكثَّفةٍ لتصلَ إلى البيوتِ والمدارسِ تذكِّر وتحذِّرُ وتوعِّي وتُنذِر- وبالجملةِ فبإمكانِنا مجتمعين

ومتعاونين أن نصنعَ شيئًا، وأن نجنِّب أولادَنا ومجتمعَنا من ويلاتِ هذه الحوادثِ المفزِعة.

وهمسةٌ أخيرةٌ في أُذنِ من بُليَ بهذه القيادةِ المتهوِّرة من الشبابِ نقول: فكِّروا في العواقبِ جيدًا، واحمُوا آباءكم وأمهاتِكم ومجتمعَكم.. وأنتم زهورٌ فلا تَذبُل الزهرةُ فجأةً، وأمامَكم المستقبلُ فلا تُضيِّعوه بهذه الممارساتِ الخاطئةِ، وحين تفكِّرون أو يفكِّرُ غيرُكم في كَسْب الزمن في قَطْع الإشارة ففكِّروا كذلك أنكم ربما خَسِرتُم الحياةَ كلَّها، وإذْ كنّا في زمنٍ نحاصَرُ فيه بالأعداء، فهل تكون مساهمتُكم في دفعِ العدوِّ ترويعَ الآمنين وإعلانَ الحربِ على إخوانِكم المسلمين؟ اللهمَّ انفَعْنا بهَدْي القرآنِ وسُنَّةِ محمدٍ عليه الصلاةُ والسلام، أقولُ ما تسمعونَ وأستغفر الله لي ولكم..



الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ يسَّر لعبادِه من فُرَص الطاعةِ ما يَبلُوا همَمَهم ويُعظِّم أجورَهم، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، خصَّ هذه الأُمةَ بخصائصَ، واختار لها مناسباتٍ وأيامًا فاضلةً، الموفَّقُ من وفَّقَه اللهُ لاستثمارِها، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، بيَّن للأُمةِ ما يُسعِدُها، وحثَّها على ما فيه بِرُّها وخيرُها، ومن يُطعِ الرسولَ فقد أطاع الله، ومن تولَّى فما أرسلناك عليهم حفيظًا -صلَّى الله وسلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبهِ أجمعين.

إخوةَ الإسلام: موسمٌ عظيمٌ وسُوقٌ من أسواقِ الجنة، وتجارةٌ رابحةٌ تحلُّ بها- قريبًا- رحماتُ ربي على المسلمين، فهل من مُشترٍ؟ وهل من مُتاجرٍ؟ ألا ويحَ من غُبِنوا حين يكسبُ الناسُ، ومساكينُ من فرَّطوا حين يَجِدُّ الناسُ!

عشرُ ذي الحِجَّة قابُ قوسين أو أدنى -بلَّغنا اللهُ إياها، وأعاننا على عمل الصالحاتِ فيها- وما أدراك ما عشرُ ذي الحجَّة؟ أقسمَ اللهُ بها في كتابِه العزيز فقال: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ثم قال بعدُ ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ والمعنى: إن في ذلك لقِسمة لكلِّ ذي لُبٍّ وعقل[1].

أي: إن ما في هذه الأيامِ العشرِ من فُرصٍ للطاعةِ ومناسباتٍ للعبادة، وإغاظةٍ للشيطان، وأشياءَ معظَّمةٍ، تستحقُّ أن يقسِمَ اللهُ بها.. لكن منَ يعقلُ ويعملُ أولئك هم أُولُوا الألباب ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾[2].

عبادَ الله: وهذه العشرُ حثَّ على اغتنامِها نبيُّ الهدى والرحمةِ، فقد أخرج

---

(١) تفسير القرطبي، ٢٠/ ٤٣.

(٢) تفسير السعدي (بتصرف) ٧/ ٦٢٢.

الإمامُ أحمدُ وغيرُه بإسنادٍ صحيح عن عبدِ الله بن عمرِو بن العاص ﵄ قال: كنتُ عندَ رسولِ الله ﷺ، قال: فذُكِرَت له الأعمالُ، فقال: ما من أيامٍ العملُ فيهنَّ أفضلُ من هذه العشرِ، قالوا: يا رسولَ الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟ فأكبره، فقال: «**ولا الجهادُ، إلا أن يخرجَ رجلٌ بنفسِه ومالِه في سبيلِ الله، ثم تكونَ مهجةَ نفسِه فيه**»(١).

يا عبدَ الله، الفرصُ غاليةٌ، والعمرُ قصيرٌ، والفتنُ متلاحقةٌ، وسِلعةُ الله غالية.. فهل تضعُ لك سهمًا وافرًا في المبادرة؟ وهل تتساوى عندَك الأيامُ، أم أنك تشعرُ بالتقصيرِ وتفرَحُ بهذه الأيامِ لتسدِّدَ وتقاربَ وتكسبَ مع من يكسبُ في الموسم؟

هذه الأيامُ العشرُ فرصتُك -يا أخا الإيمانِ- في تجديدِ العزمِ على القيامِ بالفرائض، فهي أحبُّ ما تَقرَّب به العبدُ إلى ربِّه، وفرصتُك في الزيادةِ من النوافلِ فهنَّ جابراتٌ ومكمِّلاتٌ للنقص- ولئن كانت فرصُ الطاعةِ كثيرةً من صلاةٍ وصيام، وذِكرٍ وتلاوةٍ للقرآن، وصِلَةٍ ودعوةٍ، وأمرٍ بالمعروفِ ونهيٍ عن المنكر، وصدقةٍ وبرٍّ وإحسانٍ وحجٍّ وأضاحيَ، فقد أرشدَ المصطفى ﷺ إلى كثرةِ الذِّكر في هذه الأيام، وقال: «**فأكثِروا فيهنَّ من التهليلِ والتكبيرِ والتحميدِ**» ورغَّبك في الصيامِ، وصيامُ عَرَفةَ يكفِّرُ سنتين، وللدعاءِ مَزِيّةٌ في العشرِ لا سيما في يوم عرفةَ، فخيرُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفة -كما أخبر النبيُّ ﷺ- وكم لكَ من حاجةٍ، وكم بالمسلمينَ من فاقةٍ ومِحنةٍ، فهل ترفعُ أكُفَّ الضراعةِ وقلبُكَ خاشعٌ وعينُك تدمعُ لتدعوَ لنفسِك والأقربين وللمسلمين، وربُّك يجيبُ المضطرَّ إذ دعاه؟ ويكشفُ السوءَ، وهو قريبٌ يستجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعاهُ، ألا فليُعلَمْ أن

(١) المسند ١٠/ ٦٧ بتحقيق أحمد شاكر.

الدعاءَ سلاحٌ يملكُه المسلمون دون عناءٍ فهل يستثمرونَه؟ وهل يتحيِّنونَ فرصَ الإجابةِ؟

أيها المسلمُ والمسلمةُ: وليس لأحدٍ منكما بلغَ سنَّ التكليفِ وهو قادرٌ على الحجِّ أن يتراخَى، فهذا ركنٌ من أركانِ الإسلام لا يَسُوُغ التفريطُ أو التراخي فيه.. وقد يمرضُ السليم، أو تحلُّ بالمقتدرِ اليومَ حاجةٌ غدًا.. إلى غيرِ ذلك من عوارضَ قد تعرِضُ للمسلم فتمنعُه عن الحجِّ[(١)]، فالبِدارَ البِدارَ لأداءِ الفرض؛ والمسابقةُ والمتابعةُ بين الحجِّ والعمرة لمن أَفرضَ سنَّةٌ وقُرْبة، فالرسولُ ﷺ يقول: «**تابِعُوا بين الحجِّ والعمرةِ، فإنهما ينفيانِ الفقرَ والذنوبَ كما ينفي الكِيرُ خَبَثَ الحديدِ والذهبِ والفضةِ، وليس لحَجَّةٍ مبرورةٍ ثوابٌ إلا الجنة، وما من مؤمنٍ يَظَلُّ يومَه مُحرِمًا إلا غابتِ الشمسُ بذنوبِه**» أخرجه الترمذيُّ، وأخرج النسائيُّ بعضَه[(٢)].

إن الحجّ والعمرةَ جهادُ الكبيرِ والصغيرِ والمرأةِ- كما أخبرَ النبيُّ ﷺ؛ أخرجه النسائيُّ، وإسناده صحيح[(٣)].

وعن عائشةَ ﵂ قالتُ: قلت: يا رسولَ الله، نرى الجهادَ أفضلَ الأعمالِ، أفلا نجاهدُ؟ قال: «**لَكُنَّ أفضلُ الجهادِ وأجملُه: حجٌّ مبرورٌ، ثم لزومُ الحُصُرِ**» قالت: فلا أَدعُ الحجَّ بعدَ إذْ سمعتُ هذا من رسولِ الله ﷺ[(٤)].

---

(١) وفي الحديث الصحيح قال ﷺ: «**تعجلوا إلى الحج فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له**» رواه أحمد وابن ماجه وهو في الجامع الصحيح (٣/ ٤٣ ح ٢٩٥٤).

(٢) جامع الأصول ٩/ ٤٦١.

(٣) جامع الأصول ٩/ ٤٦٧.

(٤) رواه البخاري والنسائي، جامع الأصول ٩/ ٤٦٠، والفتح ٣/ ٣٨٢.

عبادَ الله: ويبقى بعدَ ذلك إشاراتٌ وتنبيهاتٌ للحجِّ والأضاحي أَعرِضُ لها في الجمعةِ القادمةِ بإذن الله..

وتنبيهٌ آخرُ يتعلَّقُ بالتوبةِ من الذنوب.. فكما تستدعي هذه الأيامُ الفاضلةُ المسارعَةَ بالطاعاتِ.. تستدعي كذلك المبادرةَ بالتوبةِ عن الماضي، والكفَّ قدرَ المُستطاعِ عن عملِ السيئات، ولقد سُئِلَ شيخُ الإسلام ابنُ تَيْمِيَّةَ- يرحمه الله- عن أثرِ المعصيةِ في الأيام المباركةِ هل تزيدُ أم لا؟ فأجاب: نعم، المعاصي في الأيامِ المفضَّلةِ والأمكنةِ المفضَّلةِ تُغلَّظ وعقابُها بقَدْرِ فضيلةِ الزمان والمكان[1].

ألاَ فعَظِّموا حرماتِ الله معاشرَ المسلمين.. ومن يُعظِّمْ حرماتِ الله فهو خيرٌ له عند ربِّه، وأَنِيبُوا إلى ربِّكم وأَسلِموا له، وتزوَّدوا فإن خيرَ الزادِ التقوى، وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرض أُعِدَّت للمتقين، واستقبِلوا أَيامَ العشرِ بالفرح والبُشْرى، وأَرُوا اللهَ من أنفسِكم خيرًا، ولا تأخذْكم الغفلةُ، وتشغلْكم الدنيا عن نعيمِ الآخرة، فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرة إلا قليلٌ، ومن تزكَّى فإنما يتزكَّى لنفسِه وإلى اللهِ المصيرُ.



(١) نص عليه في الفتاوى ٣٤/ ١٨٠.

وقفات للحجاج وغيرهم وعن الهدي والأضاحي والأيام الفاضلة[١]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله، جعلَ لكلِّ أمةٍ منْسكًا هُمْ ناسِكوه، وفضَّلَ هذهِ الأمةَ على غيرِها مِنَ الأممِ بأكملِ الشرائعِ وأوفى المناسك، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، جعلَ لأمةِ الإسلامِ أعيادًا تعتزُّ بها وتكفيها عمّا سواها منْ مُبتدعاتٍ في الدين، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، أنزلَ عليهِ عشيةَ عرفةَ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢].

اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ ومنْ تبعهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدين. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٤].

أيها المسلمون: في هذهِ الأيامِ التي نعيشها ونستقبلُها مناسباتٌ وعِبَرٌ، ومواسمُ وفرصٌ وقرباتٌ وطاعات، وإقبالٌ وإدْبار، وذكرٌ وغفلةٌ.. والسؤالُ المطروحُ المهمُّ يقول: أينَ موقعكَ -أخي المسلم وأختي المسلمة- منْ هذهِ أو

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة يوم الجمعة الموافق ٣/ ١٢/ ١٤٢٣هـ، وأعيدت في ٦/ ١٢/ ١٤٢٣هـ

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣. وانظر تفسير ابن كثير للآية ٣/ ٢٤، متفق عليه.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

تلك، وما مد تقديركَ للفرصِ وما حجمُ استثماركَ للمَغْنم؟

وأقفُ اليومَ مُذِّكرًا نفسي وإياكمْ ببعضِ ما ينبغي التذكيرُ به، والذكرى تنفعُ المؤمنين، ومنْ تذكرَ فإنما يتذكرُ لنفسه، وأرجو أنْ تكونَ هذهِ الوقفاتُ مُذكِّرةً للحُجاجِ وغيرِ الحُجّاج.

الوقفةُ الأولى: رغمَ كثرةِ الحديثِ عنْ «عشرِ ذي الحجة» وفضلِها ومَزِيّةِ عملِ الصالحاتِ فيها، إلا أنَّ هناكَ نفرًا منَ المسلمينَ لا يَقْدُروها حقَّ قدْرِها، فهيَ عندَ هؤلاءِ فرصةٌ للرحلةِ والاستجمامِ داخلَ البلادِ أو خارجَها- لا شك أنَّ الاستجمامَ المنضبطَ بضوابطِ الشرعِ لا حرج فيه ولكنَّ التفريطَ في الوقتِ، والتقصيرَ في عملِ الصالحات، والغفلةَ عنْ الذكرِ في هذهِ الرحلاتِ لا يليقُ بالمسلمِ في كلِّ وقت، ولا سيما في الأزمانِ الفاضلةِ كهذهِ العشر، أمّا إنْ صحِبَ هذهِ الرحلاتِ محظوراتٌ شرعيةٌ ومنكراتٌ منَ القولِ أو الفعل، واستهانةٌ بالحُرمات، وتجاوزٌ على سياجِ المحرَّماتِ.. فذلكَ خللٌ بلْ سَفَهٌ، وعلى المسلمِ أنْ يعصمَ نفسَهُ منه، ويفطمَها عنهُ في كلِّ حين ولا سيما في وقتٍ يشتغلُ المسلمونَ فيهِ بالذكرِ ويتسابقونَ إلى القربات.

الوقفةُ الثانية: وعلى الذين يعيشونَ نعمةَ الأمن ورغدَ العيشِ أنْ يتذكروا إخوانًا لهمْ منَ المسلمينَ ضاقتْ عليهمُ الأرضُ بما رَحُبتْ؛ فلا أمنَ يتنفَّسونَ في أجوائه، ولا رَغَدَ منَ العيشِ يُعينُهم على مزيدٍ منَ البذلِ والقُرباتِ، وهؤلاءِ وأمثالهمْ ممنْ يعيشونَ ظروفًا صعبةً منَ المسلمين، منْ أقلِّ حقوقهمْ علينا أنْ لا ننساهمْ بالدعاء، وإنِ امتدتْ أيدينَا إليهمْ بشيءٍ منَ المساعدة، فهمْ أحوجُ ما يكونونَ إلى الإغاثةِ والمساعدة، ونحنُ في مثلِ هذهِ الأيامِ الفاضلةِ أحوجُ ما نكونُ إلى ثوابِها.

الوقفةُ الثالثة: والحجُّ نداءٌ ربانيٌّ ومؤتمرٌ عالمي، ومنذْ أنْ قيلَ لإبراهيمَ عليه السلام

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾[1] وهذا الوعدُ الربانيُّ يتحققُ عبرَ قوافلِ الحجيجِ منْ مشرقِ الأرضِ ومغربها.. واليومَ، ومعَ اتساعِ العالمِ وتعدُّدِ وتطوُّرِ وسائلِ النقلِ، وتأمينِ سُبل الحجِّ، يتكاثرُ الحجاجُ وتتكاثرُ الجنسياتُ والوفودُ المسلمةُ منْ أقصى مغربِ الأرضِ إلى أقصى المشرقِ فيها.. وهلْ تعلمُ أخي المسلمَ أنَّ ثمةَ مسلمينَ آخرينَ يحركهمْ هذا النداءُ الربانيُّ -سواءَ استطاعوا الحجَّ أمْ لمْ يستطيعوا- وهمْ قُربَ القطبِ الجنوبي.. ونسألُ اللهَ أن يبلغهمْ حجَّ بيتهِ الحرامِ -فإذا كانتْ (أستراليا) تقعُ في الأقصى الشرقيِّ للكرةِ الأرضية، فثمةَ مسلمونَ في (نيوزيلاند) التي تبعدُ عنْ (أستراليا) بما يقاربُ عشرةَ آلافِ كيلو متر- منْ ناحيةِ الجنوبِ الشرقيِّ لأستراليا، وهيَ عبارةٌ عنْ جزيرتينِ يُقدرُ عددُ سكانهما بثلاث مئةٍ وخمسينَ ألفِ نسمة، أما عددُ المسلمينَ منْ هؤلاءِ فيقربْ منْ عشرينَ ألفِ نسمة[2].

هذا نموذجٌ للمدِّ والوجودِ الإسلاميِّ في الجنوبِ الشرقيِّ للكرةِ الأرضية، وهناكَ وجودٌ إسلاميٌّ في الغربِ والشمالِ -ولا شك- وبالتالي فإنَّ الحجَّ يمكنُ أنْ يكونَ مؤتمرًا عالميًا يستثمرُه المسلمونَ فيه أفضلَ استثمار، ويتعرفُ بعضهمْ على ظروفِ بعض، ويعينُ القادرونَ منهمُ الضعفاءَ والمضطهدين.

الوقفة الرابعة: وفي الحجِّ فرصٌ للدعوةِ إلى دينِ اللهِ عبرَ الكلمةِ الطيبةِ والمساعدةِ الماديةِ أو المعنوية، وعبرَ الهديةِ النافعةِ لكتيب أو شريطٍ أو مطويَّة، ومنْ خلالِ الاستماعِ إلى الوفودِ الحاجةِ ونقلِ أخبارهمْ واحتياجهمْ إلى إخوانهم المسلمينَ أوْ نحوِ ذلكَ منْ وسائلِ الدعوةِ التي يعتبرُ الإعلامُ الإسلاميُّ لا يزالُ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

(٢) د. عبد العزيز العمري، خدمات المملكة في استراليا وما جاورها.

مُقصِّرًا في خدمتِها ونقلِها.

الوقفة الخامسة: أيها الحجاجُ، وهناك سُننٌ في الحجِّ يجدرُ بكمْ العنايةُ بها، وربما غفلَ عنها كثيرٌ منَ الحُجّاج، ومنْ هذهِ السنن: الحمدُ والتسبيحُ والتكبيرُ عندَ الإحرام، وفي «صحيح البخاري» (بابُ التحميدِ والتسبيحِ والتكبيرِ قبلَ الإهلالِ عندَ الركوبِ على الدابة). وبهِ ساقَ الحديثَ عنْ أنسٍ ﵁، قال: «.. ثمَّ ركبَ حتى استوتْ به على البَيْدَاءِ، حمدَ اللهَ وسبَّحَ وكبَّر، ثمَّ أهلَّ بحجٍّ وعُمرةٍ..»(١).

قالَ ابنُ حجر: وهذا الحكمُ هو استحبابُ التسبيحِ وما ذكرَ معه قبلَ الإهلال- قلَّ منْ تعرَّضَ لذكرهِ معَ ثُبوتِه..»(٢).

ومنْ هذهِ السُّنن -كذلك- الدعاءُ عندَ الجمرتينِ الأُوليين، وفي «صحيح البخاري» -أيضًا- (بابُ الدعاءِ عندَ الجمرتين) ثمَّ ساقَ الحديثَ: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا رمى الجمرةَ التي تلي مسجدَ مِنىً، يرميها بسبعِ حصَيَاتٍ يُكبرُ كلَّما رمى بحَصَاة، ثمَّ تقدمَ أمامَها فوقفَ مستقبلَ القبلةِ رافعًا يديهِ يدعو، وكانَ يُطيلُ الوقوفَ، ثمَّ يأتي الجمرةَ الثانيةَ فيرميها بسبعِ حَصَياتٍ يُكبرُ كلَّما رمى بحَصَاة، ثمَّ ينحدرُ ذاتَ اليسارِ مما يلي الوادي، فيقفُ مستقبلَ القبلةِ رافعًا يديهِ يدعو، ثمَّ يأتي الجمرةَ التي عندَ العقبةِ، فيرميها بسبعِ حَصَياتٍ يُكبُر عندَ كلِّ حَصَاةٍ، ثمَّ ينصرفُ ولا يقفُ عندَها..»(٣).

وقد روى ابنُ أبي شيبةَ بسندٍ صحيح- كما قالَ ابنُ حجر- في مقدارِ الوقوفِ

---

(١) ح ١٥٥١، انظر الفتح ٣/ ٤١١.
(٢) الفتح ٣/ ٤١٢.
(٣) ح ١٧٥٣.

للدعاء، عنْ ابنِ عمرَ ﵄ أنه كانَ يقومُ عندَ الجمرتيْنِ مقدارَ ما يقرأُ سورةَ البقرةِ.

ومنَ السننِ: الزيادةُ في الهَدْيِ بنحرِ أكثرَ منْ فِدْية، وذلكَ للمُتمتِّع والقارِن، وقدْ أهدى رسولُ الله ﷺ مائةً، فذبحَ بعضَها ثلاثًا وستين بَدَنَة[١] وأوكلَ إلى عليٍّ ﵁ ذبحَ ما بقيَ منها[٢].

الوقفة السادسة: أيها المقيمون، وثمةَ سُننٌ طالَما هجرها البعضُ منكم، فهلْ تُحيونَها في هذهِ الأيامِ الفاضلة، فالصيامُ- غيرُ الواجبِ- سنةٌ، بلْ هوَ طريقٌ إلى الجنة، وقدْ قالَ أبو أُمامةَ ﵁ للنبيِّ ﷺ: دُلَّني على عملٍ أدخلُ بهِ الجنةَ، قال: «**عليكَ بالصومِ لا مثلَ له**» رواهُ النسائيُّ والحاكمُ وسندهُ صحيح[٣]. فهلْ يتذكَّرُ الصيامَ- في هذه الأيامِ الفاضلةِ- منْ لا يصومونَ إلا منْ رمضانَ إلى رمضان؟

وتلاوةُ القرآنِ قُربةٌ وطاعةٌ لله.. وكذا السُّننُ والنوافلُ والصدقاتُ، فكثيرٌ من الناسِ تتحركُ هِمَّتهُ للصدقةِ في رمضان، فأينَ المتصدقونَ في هذه الأيام، وقدْ سمعتمْ أنها موازيةٌ في الفضلِ للعشرِ الأخيرِ منْ رمضان، بل ربما فضَّلَ نهارها على نهارِ العشرِ الأخيرِ طائفةٌ من العلماء[٤].

إلى غيرِ ذلكَ منْ سننٍ وطاعاتٍ يجدرُ بالحريصِ على آخرتهِ أنْ يُنافسَ فيها حينَ يتنافسُ المتنافسون.

الوقفة السابعة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن

---

(١) رواه مسلم، المجالس/٨٨.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٣١٤.

(٣) الفوزان: مجالس عشر ذي الحجة/١٩.

(٤) ابن القيم، ابن كثير...

شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[(١)]. إنها آيةٌ في كتابِ اللهِ تحكي موقفًا وحدثًا منْ أحداثِ السيرةِ النبوية، وتعلِّمُ المسلمينَ كيفَ يكونُ الفَرجُ بعدَ الشدة، وكيفَ يتحقَّقُ وعدُ اللهِ ونصرةُ أوليائه -ولو بعدَ فترة- والمسلمونَ الذينَ نزلتْ عليهمْ هذهِ الآياتُ كانوا يتطلَّعونَ إلى اليومِ الذي يصلونَ فيه إلى البيتِ الحرامِ بعدَ أنْ أخرجَهمُ المشركونَ منهُ ومنعوهمْ من الطوافِ فيه، وقد أُري الرسولُ ﷺ في المنامِ أنهُ دخلَ مكةَ وطافَ بالبيت، فأخبرَ أصحابَهُ بذلكَ وهوَ في المدينة، فلما وقعَ الصلحُ وعادَ المسلمون دونَ أنْ يدخلوا المسجدَ الحرام، وقعَ في نفوسِ بعضهم منْ ذلكَ شيءٌ حتى نزلتِ الآيةُ مؤكِّدةً دخولَهم، ثمَّ تحقَّقَ الوعدُ في العامِ الذي يليهِ في عُمرةِ القضاءِ، وعلى رغمِ أنوفِ المشركين، وشاعرُ المسلمين يردِّدُ:

باسمِ الذي لا دينَ إلا دينُه ... باسمِ الذي محمدٌ رسولُه
خَلُّوا بني الكُفّارِ عن سبيلِهِ ... اليومَ نَضْرِبْكُمْ على تَأويلِه
كما ضربْناكمْ على تنزيلِهِ ... ضَرْبًا يُزيلُ الهامَ عن مَقِيلِه
ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِه ... قدْ أنزلَ الرحمنُ في تنزيلِهِ
في صُحُفٍ تُتلى على رسُولِهِ ... بأَنَّ خيرَ القتلِ في سبيلِهِ

يا ربِّ إني مؤمنٌ بقِيلِه[(٢)]

ولقد كانَ محمدٌ ﷺ يربي أصحابَهُ على الصبرِ على الشدائد، ويعلِّمُهمْ كيفَ يكونُ الأملُ بعدَ الألم، وكيفَ يأتي النصرُ والفرجُ بعدَ الهزيمةِ والشدة، وفي مصابِ أُحدٍ، ورغمَ الشهداءِ والجرحى وانتفاشِ قريشٍ وفرحتِها لِما وقعَ

(١) سورة الفتح، الآية ٢٧.
(٢) تفسير ابن كثير للآية ٧/ ٣٣٧- ٣٣٨.

بالمسلمين.. يقولُ الرسولُ ﷺ لعمرَ وبكلٍّ ثقة: «**يا ابنَ الخطاب، إنَّ قريشًا لنْ ينالوا مِنَّا مثلَ هذا اليومِ حتى نستلمَ الرُّكنَ**»[1].

وقدْ تحققَ الوعيدُ وانتصرَ المسلمون وذلَّ الشركُ والمشركون، وجاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ، ودخلَ الناسُ في دينِ اللهِ أفواجًا، ووعدُ اللهِ باقٍ، ونصرُهُ لأوليائِهِ مستمرٌّ ولوْ كرهَ المشركون، فهلْ يعي المسلمونَ هذه الدروسَ؟



(١) الواقدي: المغازي ١/ ٣١٨.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ مُستحقِّ الحمدِ وأهلِ الثناء، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، يدعوكم للطاعةِ ليغفرَ لكمْ ذنوبَكم ويرفعَ درجاتِكم، والموفَّقُ منِ استجابَ للدعوة: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[(١)].

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، كانَ يدلُّ الأمةَ على الخيرِ ويسبقُهم إلى فِعْلِه، وكذلكَ كانَ ينافسُ أصحابُه في الصالحاتِ اقتداءً به.. اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليهِ وارضَ عن أصحابه..

إخوةَ الإسلام:

يومُ عرفةَ من الأيامِ الفاضلةِ في هذا العَشْرِ، لأنهُ يومُ مغفرةِ الذنوبِ والتجاوزِ عنها ويومُ عيدٍ لأهلِ الموقف، ويُستحبُّ صيامُه لأهلِ الأمصار، وفي صيامِهِ تكفيرُ سنتين، وهذا اليومُ يومٌ أكملَ اللهُ به الدينَ، وأتمَّ بهِ النعمةَ على المسلمين..

وعنْ عمرَ ﷺ أنَّ رجلًا منَ اليهودِ قال: يا أميرَ المؤمنين، آيةٌ في كتابِكم، لو علينا- معشرَ اليهود- نزلتْ لاتَّخذْنا ذلكَ اليوم عيدًا، قال: أيُّ آيةٍ؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[(٢)]، قالَ عمر: قدْ عرفنا ذلكَ اليومَ والمكانَ الذي نزلتْ فيهِ على النبيِّ ﷺ وهوَ قائمٌ بعرفةَ يومَ الجمعة[(٣)].

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ١١، ١٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٣) رواه البخاري ٤٥، ومسلم ٣٠١٧.

وفي روايةٍ عندَ الطبريِّ أنَّ السائلَ كعبُ الأحبار، وفيها أنَّ عمرَ قال: نزلتْ في يومِ جمعةٍ ويوم عرفةَ، وكلاهم بحمدِ اللهِ لنا عيدٌ[١].

تُرى هلْ يُقدِّرُ المسلمونَ هذا اليومَ حقَّ قدْره، فيبتهلُ الحجاجُ فيه إلى اللهِ بالذكرِ والدعاء، «**وخيرُ الدعاءِ دعاءُ عرفةَ، وخيرُ ما قلتُ أنا والنبيونَ منْ قَبْلي: لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قدير**»[٢].

قالَ ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي الحديثِ دليلٌ على أنَّ دعاءَ يومِ عرفة مُجابٌ في الأغلب، وأنَّ أفضلَ الذكرِ لا إله إلا الله..»[٣].

وإذا كانَ الحُجَّاجُ يتهيءُ لهمْ فضلُ عرفةَ بعرفة، فغيرُ الحُجَّاجِ منْ الصائمينَ يجتمعُ لهمْ فضلُ الصيامِ مع فضلِ عرفة، وهمْ كذلكَ حريُّونَ بإجابةِ الدعاء.

فلنحرصْ جميعًا حجَّاجًا كنا، أو غيرَ حُجّاج. على استثمارِ هذا اليومِ وخاصةً في الدعاءِ لنا ولوالدينا وأولادِنا وأهلِينا والمسلمين (الأحياءِ منهم والميتين).

أيها المسلمون: ويومُ النحرِ يومُ الحجِّ الأكبر، وفي الحديث: «**إنَّ أعظمَ الأيامِ عندَ الله تعالى يومُ النحرِ ثمَّ يومُ القَرِّ**»، ويومُ القَرِّ هوَ اليومُ الحادي عشرَ منْ ذي الحجة، لأنَّ الناسَ فيه يقِرُّون بمنى، قاله صاحبُ «النهاية» (٤/ ٣٧).

وأيامُ التشريقِ كذلكَ أيامٌ فاضلةٌ عندَ الله، وهيَ منْ أيامِ عِيْدنا، قالَ ﷺ: «**يومُ عرفةَ ويومُ النحرِ وأيامُ التشريق عيدُنا أهلَ الإسلام**» أخرجه أبو داودَ

---

(١) تفسير الطبري، تحقيق أحمد شاكر ٩/ ٥٢٦، الفوزان: مجالس عشر ذي الحجة/ ٩٣.
(٢) أخرجه مالك، والترمذي، والبيهقي، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني ٤/ ٦.
(٣) التمهيد ٦/ ٤١.

والترمذيُّ والنسائيُّ، وهوَ حديثٌ صحيح[١].

عبادَ الله؛ أهلَ الإسلام: وفضلُ اللهِ علينا في هذه الأيامِ يمتدُّ.. وقُرُباتُه تكثرُ. . وإذا كانَ الحُجَاجُ يتقربونَ إلى اللهِ بذبحِ النُّسُك، فغيرُ الحُجّاجِ يتقربونَ إلى اللهِ بذبحِ الأضاحي. . والأضاحي مشروعةٌ بالكتابِ والسُّنةِ والإجماع، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَـرْ﴾[٢].

ومنْ هَدْيهِ ﷺ أنهُ لمْ يَدَعِ الأُضْحيةَ، قالَ عبدُ الله بنُ عمرَ ﵄: أقامَ النبيُّ ﷺ بالمدينةِ عشرَ سنينَ يُضحِّي. رواهُ أحمدُ والترمذيُّ وسندهُ حسن[٣].

ومنْ هَدْيهِ ﷺ اختيارُ الأضحيةِ واستحسانُها، وسلامتُها من العيوب، وهوَ القائل: «**أربعٌ لا تُجزئُ في الأضاحي: العوراءُ البيِّنُ عَوَرُها، والمريضةُ البيِّنُ مرضُها، والعرجاءُ البيِّنُ عرجُها، والكسيرة (التي لا تُنقي، والعجفاءُ التي لا تنقي**» -أي منْ هُزالِها لا مخَّ فيها[٤].

ومنْ هَدْيهِ ﷺ أنْ يضحي بالمصلّى، وفي «الصحيحين» وغيرِهما: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يذبحُ وينحرُ بالمصلَّى[٥].

قال ابنُ بطال: الذبحُ بالمصلى هو سنةٌ للإمامِ خاصةً عند مالك، وقال: إنما يفعلُ ذلكَ لئلا يذبحَ أحدٌ قبلَه، زادَ المهلبُ: وليذبحوا بعدَهُ على يقين، وليتعلموا منهُ صفةَ الذبح[٦].

---

(١) الفوزان، المجالس ٩٦.

(٢) سورة الكوثر، الآية: ٢.

(٣) المجالس، ٦٩.

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وإسناده صحيح. زاد المعاد ٢/ ٣٢١.

(٥) زاد المعاد ٢، ٣٢٢.

(٦) زاد المعاد ٢، ٣٢٢، ٣٢٣ هامش رقم ٣.

ومنْ هَدْيِهِ ﷺ أنَّ الشاةَ تجزئُ عنِ الرجلِ وعنْ أهلِ بيتِهِ ولوْ كثرَ عددُهم[١] لكنْ منْ قدرَ منَ الزوجةِ والأولادِ على الأضحيةِ بمالهِ فإنَّه يُضحي عنْ نفسه، لأنها قربةٌ، والأصلُ في الأضاحي أنها عنِ الأحياء، ولهمْ أنْ يشركوا في ثوابِها منْ شاءوا منَ الأحياءِ والأموات، وأما الظنُّ بأنَّ الأضحيةَ للأمواتِ فقط، فهذا خطأٌ -ومع ذلك- فالأضحيةُ عن الميتِ عملٌ طيبٌ لأنها نوعٌ من الصدقة، والأمواتُ بحاجةٍ إلى الثواب، وثوابُ الأضحيةِ عن الميتِ أفضلُ من الصدقةِ بثمنها، كذا اختار ابنُ تيميةَ في «الاختيارات الفقهية»[٢].

وينبغي للمسلمِ والمسلمةِ المضحِّي أنْ يختارَ أضحيتَه، وتطيبَ نفسُهُ بها مهما غلا ثمنُها، قالَ ابنُ تيميةَ رحمه الله: والأجرُ في الأضحيةِ على قدرِ القيمةِ مطلقًا.

ومنَ السُّنةِ أنْ يتولى المضحِّي نحرَ أضحيتِه، ولو كانت امرأةً، قالَ البخاري: أمرَ أبو موسى بناتِهِ أنْ يُضحينَ بأيديهن»[٣].

وتجوزُ الاستنابةُ في الذبح، لأنَّ النبيَّ ﷺ ذبحَ ثلاثًا وستين بَدَنةً بيده، واستنابَ عليًا رضي الله عنه في نحرِ ما بقيَ منْ بُدْنِهِ[٤].

وعند الذبحِ يسمي اللهَ وجوبًا بقوله: بسمِ الله، ويكبرُ (استحبابًا) قائلًا: اللهُ أكبر، ولا تُشرعُ الصلاةُ على الرسولِ ﷺ في هذا الموضع، ولا زيادة: (الرحمنِ الرحيم) في البسملة.

ويسنُّ لهُ أنْ يأكلَ ويُهدي ويتصدقَ، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[٥].

---

(١) السابق ٢/ ٣٢٣.

(٢) ص ١٢٠، انظر: الفوزان، المجالس ٧١، ٧٣.

(٣) الفتح ١٠/ ١٩.

(٤) أخرجه مسلم، الفوزان، المجالس/ ٨٨.

(٥) سورة الحج، الآية: ٢٨.

ويجوزُ أنْ يُعطى الكافرُ منها لفقرِهِ أو قرابتِهِ أو جوارِه أو تأليفِ قلبه، وهذا منْ محاسنِ الإسلام[١].

أمةَ الإسلام: اشكروا اللهَ على نعمِهِ يزدْكم، وتذكروا إخوانًا لكمْ يحتاجونَ للأضاحي فلا يجدونَ ما به يضحون، فأشرِكوهم في فرحةِ العيدِ يومَ النحر، واجعلوا منْ هذه الأضاحي وسيلةً للصلةِ بهمْ والعطفِ عليهم، وهناكَ- بفضل الله- مؤسساتٌ وهيئاتٌ إسلاميةٌ توصلُ أضاحيكم وصدقاتِكم لهؤلاءِ المحتاجينَ منَ المسلمين، وبثمنٍ يسير، وبحدودِ المائة أو المائتين- والحمدُ لله.

أيها المسلمون: واتَّخِذوا منْ أيام العيدِ فرصةً للصلةِ والزيارةِ والذِّكرِ والشكر، فهي أيامُ أكلٍ وشربٍ وذكرٍ لله.

نسألُ اللهَ أنْ يعيدَ أعيادَنا والأمةُ المسلمةُ ترفلُ بأثوابِ العزةِ والكرامة، ورايةُ الإسلامِ خفاقةً في كلِّ مكان، وأنْ يعوِّضَ منْ لمْ يفرحْ بالعيدِ منَ المسلمينَ خيرًا، وأنْ يرفعَ عنهمْ كلَّ محنةٍ وبلوى.



(١) المغني ١٣/ ٣٨١، الفتح ١٠/ ٤٢٢، عون المعبود ١٤٦١، مفيد الأنام ٢/ ٥٠٤.

بشارتان وختام التوبة(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾(٢)، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، يُجزلُ المثوبةَ ويغفرُ الخطيئةَ ويفرحُ بتوبةِ عبدهِ إليهِ وهوَ غنيٌّ عنْ عبادته، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، كانَ يستغفرُ ربَّهُ في كلِّ يومٍ أكثرَ منْ سبعينَ مرةً، وهوَ المغفورُ له ما تقدَّمَ منْ ذنبه وما تأخَّر، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وإخوانهِ.. ورضيَ اللهُ عنِ الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ ومنْ تبعهمْ بإحسانٍ إلى يوم الدين.

اتقوا الله معاشرَ المسلمين، فتقوى اللهِ أقومُ وأقوى، وتقوى الله مخرجٌ من الكروب، وفيها تكفيرٌ للسيئاتِ والذنوب، وهي وصيةُ اللهِ للأولين وللآخرين.

حجاجَ بيتِ اللهِ الحرام، تقبلَ اللهُ حجَّكمْ وغفرَ ذنبَكُمْ وجعلَ الجنةَ مثواكم، أيها المقيمون، تقبلَ اللهُ طاعتِكمْ، وآجرَكمْ وجعلَ الجنةَ متقلَّبَكُمْ ومثواكم.

أيها المسلمون: ومنْ فضلِ اللهِ ورحمتهِ بكمْ أنَّ مشاريعَ الخيرِ لا تنقطعُ، والطرقَ الموصلةَ إلى الجنةِ لا تُوْصَدُ في كلِّ حين.. فأينَ المشمِّرونَ وأينَ المقبلونَ على الله؟ ومنْ تقربَ إلى اللهِ شبرًا تقربَ إليهِ ذراعًا، ومنْ جاءَ إليه يمشي أتاهُ يُهروِل، ومنْ تقربَ إلى اللهِ بفرائضهِ أحبَّهُ اللهُ، ومنْ أكملَ بالسننِ والنوافلِ سدَّدَ ما في الواجباتِ منْ نقصٍ وتقصير، ألا وإنَّ التوبةَ تجُبُّ ما قبلَها، ومنْ يستغفرِ اللهَ يجدِ اللهَ غفورًا رحيمًا.

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢٠/ ١٢/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة غافر، الآية: ٣.

إخوةَ الإسلام: وإليكمْ أسوقُ بشارتين: إحداهما على شكلِ قصةٍ لرجلٍ فيمنْ كانَ قبلَنا، وأخبرَ عنها رسولُنا، والأخرى على هيئةِ خبرٍ أخبرَ به الصادقُ المصدوقُ ﷺ، واستحلفَ عليه عمرُ بنُ عبدِ العزيز رَحِمَهُ اللهُ الراويَ له ثلاثًا.. ولكنَّ البشارتين كلتيْهما تَسُرَّانِ ولا تغران، وتُحفِّزانِ على التوبةِ ولا تُقْعدانِ عنِ العمل.

أما الأولى: فقد روى الإمامُ مسلمٌ رَحِمَهُ اللهُ في «صحيحه» عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قال: **«كانَ فيمنْ كانَ قبلَكم رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفسًا، فسألَ عنْ أعلمِ أهلِ الأرض، فدُلَّ على راهبٍ فأتاه، فقال إنهُ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفسًا، فهلْ لهُ منْ توبة؟ فقالَ: لا، فقتلَه، فكمَّل به مئةً، ثم سألَ عنْ أعلمِ أهلِ الأرض فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ، فقالَ إنهُ قتلَ مئةَ نفسٍ فهلْ لهُ منْ توبة؟ فقال: نعم، ومنْ يحولُ بينهُ وبينَ التوبة؟ انطلِقْ إلى أرضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أُناسًا يعبدون اللهَ فاعبدِ اللهَ معهم، ولا ترجعْ إلى أرضِك فإنها أرضُ سوءٍ، فانطلَقَ حتى إذا نَصَفَ الطريقَ أتاهُ الموتُ، فاختصمتْ فيهِ ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب، فقالتْ ملائكةُ الرحمةِ: جاء تائبًا مقبلًا بقلبهِ إلى الله، وقالتْ ملائكةُ العذاب: إنهُ لمْ يعملْ خيرًا قطّ، فأتاهمْ مَلَكٌ في صورةِ آدميٍّ فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بينَ الأرضيْن فإلى أَيَّتِهما كانَ أدنى فهوَ له، فقاسوا فوجدوهُ أدنى إلى الأرضِ التي أراد فقبضتْهُ ملائكةُ الرحمة»**[1].

أيها المسلمون: ولنا على هذا الحديثِ أكثرُ منْ وقفة:

الأولى: فضلُ اللهُ وسَعَةُ رحمتِهِ مهما كانَ ذنبُ العبد، فاللهُ تعالى يغفرُ الذنوبَ جميعًا.. وهو يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرْغِر، ومَنْ حَجَبَ المذنبَ عنْ

(١) ح ٢٧٦٦.

رحمةِ الله وأَيَّسَهُ مِنَ التوبةِ فهوَ مخطئٌ في حقِّ نفسهِ وحقِّ غيره، ومهما كانتْ ذنوبُ العبدِ فعفوُ اللهِ أوسعُ.. ولكنَّ الحبلَ الموصلَ إلى هذهِ الرحمةِ هوَ التوبةُ الصادقةُ والإنابةُ إلى الله، والشعورُ بعِظَمِ الذَّنْبِ.

الثانية: فضلُ العالمِ على العابد، فالمسئولُ الأولُ راهبٌ متعبدٌ غَابت عنه سعةُ رحمةِ الله، فأفتى هذا القاتلَ بعدمِ قبولِ توبتهِ فقتَلَهُ مكمِّلًا به المائة، ولكنْ حينَ استفتى العالِمَ فتحَ لهُ آفاقَ التوبةِ، وأرشدَهُ إلى ما يُعينهُ إلى ذلك.. وكانَ سببًا في نجاةِ نفسهِ وفي تخليصِ هذا المذنبِ من ذنوبه، وفي هذا تأكيدٌ على فضيلةِ العلمِ وقدرِ العلماء، وفضلُ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكب.

الوقفةُ الثالثة: حاجةُ المذنبِ التائبِ إلى تغييرِ البيئةِ التي مارسَ فيها جرائمَهُ.. وحاجتُه كذلكَ إلى تغييرِ الخِلّانِ الذين كانوا سندًا له في ارتكابِ الموبقات.. فالقرينُ مؤثِّرٌ، والصاحبُ ساحبٌ، ومنْ جالسَ المُصلينَ صلَّى، ومنْ عاشَ مع الغافلينَ أعرضَ وتولى.. ولذا قالَ العالمُ لهذا التائب: (انطلِقْ إلى أرضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أناسًا يعبدونَ اللهَ فاعبدِ اللهَ معهم، ولا ترجعْ إلى أرضكَ فإنها أرضُ سوء).

نعم، إنَّ كثيرًا مِنَ التائبينَ الذينَ يعودونَ إلى ما كانوا عليهِ إنما عادوا لأنهمْ لمْ يَصْدُقوا في توبتهم، ولم يهجُروا أصحابَ السوءِ منْ أقرانهم، فلا يزالُ بهمْ هؤلاءِ الأقرانُ يوسوسونَ لهمْ ويتهمونَهم على توبتهم حتى يَنْكُصُوا على أعقابِهم.. ويعودوا إلى سالفِ منكراتهم، ولذا قالَ العلماءُ تعليقًا على هذا الحديث:

وفي الحديثِ استحبابُ مفارقةِ التائبِ المواضعَ التي أصابَ بها الذنوب، والأخْدانَ المساعدينَ لهُ على ذلك، ومقاطعتِهمْ ما داموا على حالِهم وأنْ

يستبدلَ بهمْ صحبةَ أهلِ الخيرِ والصلاحِ والعلماءِ المتعبدينَ الورعينَ ومنْ يُقتدى بهم ويُنتفعُ بصحبتهمْ وتتأكدُ بذلكَ توبتُه(١).

إنَّ قرينَ السوءِ لنْ ينفعَ نفسَه، فأنَّى لهُ أنْ ينفعَ غيرَه، وكمْ منْ عزيزٍ كريمٍ غرّهُ خِلّانُ السوءِ فأوْقعوه وأرْدوه، وإذا تذكرتَ -يا أخا الإسلام- أثرَ قرينِ السوءِ فلا تقعدْ بعدَ الذكرى معَ القومِ الظالمين.

الوقفة الرابعة: والحديثُ يطيبُ عن التوبةِ في كلِّ حين، والدعوةُ إلى التوبةِ لم يُستثنَ منها المؤمنون، والله يقول: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

وغيرُ المؤمنين بالتوبةِ أولى وهمْ إليها أحوجُ.. ولكنَّ التوبةَ يطيبُ التذكيرُ بها في مثل هذه الأيام التي تُكَّفرُ بها السيئاتُ وتعودُ الصحائفُ بيضاءَ نقيةً على إثرْ حجِّ بيتِ اللهِ الحرام، أو على إثرِ عملِ الصالحاتِ في الأيامِ الماضيةِ وما فيها منْ تكفيرٍ للسيئات، فالحاجُّ الموفقُ يرجعُ منْ ذنوبهِ كيومِ ولَدَتْهُ أُمُهُ، والصائمُ ليومِ عرفةَ يكفرُ اللهُ عنهُ بهِ سنتين.

كما يطيبُ الحديثُ عن التوبةِ في نهايةِ عامٍ حملَ كلُّ واحدٍ منا ما حملَ من الآثام والسيئات.. وما أجملَ العامَ يُختمُ بالتوبةِ والاستغفار، واللهُ تعالى يبسطُ يَدَهُ بالليلِ ليتوبَ مسيءُ النهار، ويبسطُ يَدَهُ بالنهارِ ليتوبَ مسيءُ الليل، والأعمالُ بالخواتيم، وفرقٌ بينَ منِ استحضرَ عظمةَ الله، وأدركَ عفوَهُ وسعةَ رحمتهِ فأناب وتابَ واستغفرَ مدركًا أنهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا الله، ومنْ لجَّ في عَمَاه واستغواهُ الشيطانُ وهواه.. فاستمرَّ يُحادِدُ اللهَ بمعاصيهِ وختمَ عامَهُ بأقبحِ

(١) النووي شرح مسلم ١٧/ ٨٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

ما عنده، وإذا كنتَ يا عبدَ الله تغارُ على محارمِك، فاللهُ يغارُ على حُرماتِه، وفي الحديثِ الصحيحِ قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ يغارُ، وإنَّ المؤمنَ يغارُ، وغَيْرَةُ اللهِ أنْ يأتيَ المؤمنُ ما حَرَّمَ عليه**»(١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).



(١) مسلم ح ٢٧٦١.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، ولا عُدوانَ إلا على الظالمين، والعاقبةُ للتقوى والمتقين، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، نِعمَهُ على خَلْقِهِ لا تعدُّ ولا تُحصى، ومن أعظمِ النِّعمِ نعمةُ الإسلام، والمسلمونَ همُ السعداءُ في الدنيا، وهمُ الفائزونَ والآمنونَ منْ عذابِ اللهِ في الآخرة، ومهما تصنَّعَ غيرُ المسلمينَ السعادةَ في الدنيا، فهمْ يتقلَّبون في ضيقٍ ونكَدٍ، وأمراضٍ وقلقٍ لا يعلمُها إلا الله.. أما في الآخرةِ فالأمرُ أدهى وأمرّ، وهذا نبيُّ الهدى والرحمةِ صلى الله عليه وسلم يكشفُ لنا شيئًا منْ خسارتهمْ في الآخرة، وكيفَ يكونُ اليهودُ والنصارى فداءً للمسلمينَ عنِ النار.

وفي «صحيح مسلم» عنْ أبي موسى الأشعريِّ ﵁ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«إذا كانَ يومُ القيامةِ دفعَ اللهُ ﷻ إلى كلِّ مسلمٍ يهوديًا أو نصرانيًا فيقولُ: هذا فِكاكُكَ منَ النار»**[١].

وفي الحديثِ الآخر، أنَّ أبا بُرْدَةَ حدَّثَ عمرَ بنَ عبد العزيزِ عنْ أبيه (أبي موسى) عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**لا يموتُ رجلٌ مسلمٌ إلا أدخلَ اللهُ مكانَهُ النارَ يهوديًا أو نصرانيًا**»، قال: فاستحلفَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيز باللهِ الذي لا إلهَ إلا هوَ ثلاثَ مراتٍ أنَّ أباهُ حدَّثَهُ عنِ النبيِّ ﷺ، قال: فحلفَ له..[٢].

تلكمْ هيَ البشارةُ الثانية، وكمْ فرحَ المسلمونَ بهذا الحديث، حتى جاءَ عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ والشافعيِّ رحمهما اللهُ أنهما قالا: هذا الحديثُ أرجى حديثٍ للمسلمين، قال النووي: وهو كما قالا، لما فيهِ منَ التصريحِ بفداءِ كلِّ

---

(١) ح ٢٧٦٧.

(٢) مسلم ح ٢٧٦٧.

مسلمٍ وتعيمِ الفداء، ولله الحمدُ[١].

عبادَ الله: وما بالُ المسلمينَ لا يفرحونَ بهذا الحديث، وقدْ جاءَ في روايةٍ أخرى: «**يجيءُ ناسٌ منَ المسلمينَ بذنوبٍ أمثالَ الجبال، فيغفرُها اللهُ لهمْ ويضعُها على اليهودِ والنصارى**»[٢].

وفي هذا المعنى يردُ حديثُ أبي هريرةَ ﷺ يرفعُه: «لكلِّ أحدٍ منزلٌ في الجنةِ ومنزلٌ في النار، فالمؤمنُ إذا دخلَ الجنةَ خلَفَه الكافرُ في النار..».

قال العلماءُ في معنى هذه الأحاديث، والجمعِ بينها وبينَ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٣]: إنَّ المسلمينَ يغفرُ اللهُ لهمْ ذنوبَهمْ ويُسقِطُها عنهمْ بإسلامهم، ويضعُ على الكفارِ بكفرِهمْ وذنوبهمْ مثلَها، فصارَ الأمرُ وكأنَّ الكفارَ حمِّلوا ذنوبَ المسلمين، وإنما حمَلوا ذنوبَهمْ ولمْ يغفرْها اللهُ لهمْ لكُفرِهم.

ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ آثامًا كانَ للكفار سببٌ فيها بأنْ سنّوها للمسلمين فاحتمَلوا وِزْرَها ووزْرَ من عملَ بها[٤].

عبادَ الله: وسواءٌ قيلَ هذا أو غيرَهُ منْ تأويلاتِ فكاكِ الكفارِ عنِ المسلمينَ يومَ القيامة، فلا ينبغي للمسلمِ أنْ يستهينَ بأمرِ اللهِ ويعتدي على حُرُماتِه، لكنهُ يعملُ الصالحاتِ ويرجو رحمةَ ربِّه، ويدركُ نعمةَ الإسلامِ التي هو فيها، وحُرِمَ غيرُه إياها، وفضلُ المسلمِ على الكافر حيًّا وميتًا، وفي الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ، فيدعوهُ ذلكَ للاستمساكِ بالإسلامِ والاعتزازِ به، ودعوةِ غيرِهِ إليه، ولا

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم ١٧/ ٨٦.

(٢) النووي ١٧/ ٨٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٤) النووي، شرح مسلم ١٧/ ٨٥.

يغترُّ بما عليهِ الكفارُ من باطلٍ وما همْ متلبِّسونَ به ظاهرًا منْ نعمةٍ وأمن، فاللهُ يقولُ وهوَ أصدقُ القائلين: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١٩٦ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾(١) ويقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٢).

إنَّ منْ لا يفهمُ آياتِ الكتاب، ولا يعيشُ معَ هديِ المصطفى ﷺ تغيبُ عنهُ هذهِ المعاني والحقائقُ في نظرتهِ لنفسهِ وللكفارِ منْ حوله. ألا فاشكروا نعمةَ اللهِ عليكمْ إذْ جعلكمْ مسلمينَ، واختموا عامَكمْ بالتوبةِ والاستغفارِ وتلكَ التي تُسهمُ في استصلاحِ ما سبقَ وتهيأةِ ما يستجدُّ ويلحق، وما تدري نفسٌ ماذا ستكسبُ غدًا ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت، إنَّ اللهَ عليمٌ خبير.

اللهمَّ اختمْ لنا عامَنا بالتوبةِ والغفرانِ والقبول، وأعِنَّا على عملِ الصالحاتِ فيما نستقبلُ منْ أيامنا، واجعلْ عامَنا القادمَ عامَ خيرٍ وبركةٍ علينا وعلى المسلمين.



(١) سورة آل عمران، الآيتان ١٩٦، ١٩٧.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

نهاية العام موعظة وذكرى[1]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينُه ونستغفره، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ ومنْ تبعهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[3].

أيها الناس: تجري عوائدُ التجارِ وأصحابُ المؤسساتِ الحكوميةِ والأهليةِ على جردِ حساباتهمْ في نهايةِ العام، وكتابةِ تقريرٍ سنويٍّ عما أُنجز، فثمةَ تقريرٌ مالي، وتقريرٌ إداري، وتقويمٌ للعملِ وحسابٌ وتدقيقٌ للمكاسبِ والخسائر، وتفكيرٌ في التطويرِ المستقبلي، وتجاوزٌ لسلبياتِ الماضي.. وهكذا مما يحتاجُ له العملُ الدنيوي، وتفرضهُ ظروفُ الحياة، ولا ضَيْرَ في الحزمِ ولا جُناحَ في الدقةِ والمتابعة، ومنْ فكَّر أبصر، ومنْ خططَ أثمر.. ولكنْ ماذا عنْ حساباتِ الآخرة؟ كم مِنَ الناسِ مَنْ يكتبُ تقريرًا لنفسهِ عنْ مشاريعهِ الخيريةِ وأعمالهِ الصالحة؟ وكمْ منَ الناسِ أغنياءَ كانوا أمْ فقراءَ يجردُ ما أسعفتْهُ ذاكرتُه منْ

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ١٢/ ١٤٢٣هـ.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

أخطائهِ وزلاّتهِ وكبواتِهِ خلالَ العام؟ ومنْ ذا الذي يتذكرُ مشاريعَهُ في الدعوةِ والإصلاحِ وتقديمِ الخيرِ للناس، فيحاولُ الزيادةَ عليها وتطويرَها في العامِ الآخر؟ كمْ يقفُ المرءُ منا -في نهاية العام- على أعمالٍ مشينةٍ مارسَها وقفةَ تحسرٍ وتألمٍ وندم، عسى اللهُ أنْ يغفرَها.. وعسى أنْ تكونَ هذه الوقفةُ المتحسرةُ ضمانًا لعدمِ تكرارها.. وربَّ سيئةٍ قادتْ صاحبَها إلى الجنة، لأنهُ لا يملكُ عينيهِ منَ البكاءِ خشيةً للهِ إذا تذكرَها، ولا يملكُ قلبَه منَ الإخباتِ والانكسارِ وهو يتذكرُ جُرأتَهُ في الإقدامِ عليها، وعفوَ اللهِ وفضلَه في سترهِ عليهِ إذ مارسها.

يا عبدَ الله: ليستْ حياةُ المسلمِ لهوًا وعبثًا.. ولا فراغًا مملًا ولا فسحةً إلى الا يد.. فلستَ تدري متى تبلغُ الروحُ الحلقومَ، وما عندكَ ضمانٌ ببلوغك الأمانيَ وطولَ الأمل، وفسحةَ الأجل، ومن ذا الذي يضمنُ لكَ خطَّ الرجعةِ إذا وقعتْ بكَ الواقعة؟

كمْ أنتَ عجيبٌ والفواجعُ والقوارعُ منْ حولكَ صباحَ ومساء، ونُذُرُ الموتِ تخطفُ بمرأى منكَ القريبَ والبعيد، والصغيرَ والكبير، والذكرَ والأنثى!!

ترى كمْ يُثير فيكَ منْ ذكرياتٍ آخرُ شهرٍ في السنة.. بلْ آخرُ يومٍ في السنةِ الماضيةِ وأولُ يومٍ في السنةِ القادمة؟

أتُرى الحياةَ ستستمرُ لكَ صفوًا دونَ كَدَر.. وصحةَ دونَ سقَمٍ وأمانًا دونَ خوف، قُلْ لي بربكَ: هلْ فكرتَ أنْ تكونَ في العامِ القادمِ أرحمَ بنفسكَ وأخشى لربكَ منْ أعوامٍ خلَت؟ أمْ أنكَ ستستبدلُ مُفكرةَ التقويمِ الماضيةَ بمفكرةِ العامِ الجديدِ دونَ أيِّ وقفةٍ وتأمل آه.. وسؤالٌ يقول: فيمَ ستفتتحُ العامَ الجديد، وبماذا اختتمتَ العامَ المنصرم؟

وموعظةٌ وذكرى تناديكَ- يا أخا الإسلام- وتقولُ: الأوراقُ تتساقطُ والنباتُ الأخضرُ ينصرمُ، ثم يعودُ هشيمًا تذروهُ الرياحُ، والجديدُ يبلى، والصغيرُ يكبرُ ويهرمُ والموتُ نهايةُ كلِّ حيٍّ.. وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ.. لكنْ ماذا بعدُ؟ هلْ أيقنتَ أنَّ الأنفاسَ تُحصى، والرقيبُ لا يغفلُ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1] والربُّ يُحصي ولا ينسى ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[2] وهو يُجازي على القِطْمير والنَّقير، وهو يعدلُ ولا يظلم ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[3] والكتاب يُوضع ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[4].

هل ستنفعُكَ المعذرةُ... أمْ ستدافعُ عنكَ العشيرةُ أو القبيلةُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[5] ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[6].

هلكَ المالُ، ولمْ ينفعِ الجاهُ والسلطان، وتمنى المغرورُ أنه لمْ يقفْ هذا الموقفَ العصيبَ الرهيب. إنها مشاهدُ غيبيةٌ يعرضها القرآنُ، وكأنها رأيُ العين، فاستمعْ إليها ما دامَ السماعُ ممكنًا، واعقِلْها بأهوالها ومشاهدِها وأقمْ لها وزنًا وفي القرآن معتبرٌ ومدَّكر ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[7].

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٦.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٥) سورة المدثر، الآية: ٣٨.
(٦) سورة عبس، الآيات: ٣٤-٣٧.
(٧) سورة الحاقة، الآيات: ١٣-١٨.

يا عبدَ الله: واخترْ لنفسكَ أيَّ المنزليْن ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾[1].

يا أخا الإسلام: الأرضُ تميدُ منْ حولك، والأممُ والشعوبُ باتتْ تبحثُ عنْ هُويتِها- وإنْ كانتْ مزوَّرةً- وتلتفتُ إلى أديانها وقيمِها- وإن كانت ساقطةً ومنحطةً- فما موقُعكَ في هذا العالمِ المَريجِ؟ وماذا عن اعتزازِك بهويتكَ الأصلية، وثباتِكَ بلْ ودعوتِكَ لدينكَ الحقِّ.. أيسوغُ أن يموتَ إخوانُ القردةِ والخنازيرِ مدافعينَ عنْ دينهمْ وهويتِهمْ.. وأنْ يتفانى عبَّادُ الصليبِ والبقر، وأصحابُ بوذا وكنفوشيوس، بلْ وعبَّادُ الشياطين والفروج، وأممٌ وشعوبٌ أخرى أضلَّها الله، أيسوغُ أنْ يتفانى هؤلاءِ في الدفاعِ عنْ دياناتهم، ويثبتوا على نِحَلهمُ الباطلةِ ويبخلُ المسلمُ في تقديمِ شيءٍ يستطيعُ تقديمَه.. فكيفَ إذا عاشَ المسلمُ غافلًا سادرًا في الشهوات، مرتكبًا للمحرمات حائرًا هائمًا، إنها نكسةٌ وحَوْرٌ بعدَ الكَوْر.. وضلالةٌ بعدَ الهدى، وعمًى بعدَ الإبصارَ، نسألُ اللهَ لنا ولإخوانِنا المسلمينَ السلامةَ والعافية.

يا مسلمُ يا عبدَ الله: أتريدُ خَيرَي الدنيا والآخرة؟ شيئانِ إذا عملتَ بهما

(١) سورة الحاقة، الآيات: ١٩-٣٧.

أصبت بهما خَيرَي الدنيا والآخرة، تحملُ ما تكرهُ إذا أحبهُ الله، واتركْ ما تحبُّ إذا كرهَهُ الله- كذا قالَ أبو حازمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ(١).

وهلْ تعلمُ معوقاتِ إصلاحِ النفوس؟ يجيبكَ أبو الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لولا ثلاثٌ لصلُحَ الناسُ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوًى مُتبعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسه.

أيها العقلاء: فكِّروا فيما يبقى ويُثمرُ ولو كانَ على أنفسكمْ ثقيل، ولا يغرنَّكم ما ألهى وأضحك، فالحزنُ بعدهُ طويل.. قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الحقُّ ثقيلٌ مريءٌ، والباطلُ خفيفٌ وبيءٌ، وربَّ شهوةِ ساعةٍ أورثتْ حزنًا طويلًا.

استكثِروا منَ الطاعاتِ كلما أفسحَ اللهُ لكمْ في الأجل وأمدَّكمْ بالصحةِ وأنعمَ بالأمن، فذاكَ الرصيدُ الحقُّ يومَ تُبلى السرائر، وتتطايرُ الكتب، وتنُشرُ الصحائفُ، وما أعمارُكمْ فيمنْ سَبقكمْ منْ الأممِ إلا نَزْرٌ يسيرٌ، وذلكَ يستدعي استثمارَ الأوقاتِ والمسارعةَ إلى أبوابِ الخيرات، وتحسينَ العمل، وحسنَ الظنِّ بالله..، لا ريبَ أنَّ سعادةَ المرءِ في طولِ عمرهِ وحسنِ عملهِ، وتعاستُه بطولِ عمرهِ وسوءِ عملهِ، كذا أخبرَ المصطفى ﷺ حين سُئل: أيُّ الناسِ خيرٌ؟ فقال: «**منْ طالَ عمرُهُ وحَسُنَ عملُه**»، قيل: وأيُّ الناسِ شرّ؟ قال: «**منْ طالَ عمرُهُ وساءَ عملُه**»(٢).

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيم: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٣).

---

(١) شرح السنة ١٤/ ٣٠٧.

(٢) البغوي، شرح السنة ١٤/ ٢٨٧ ورجاله ثقات.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ٧١، ٧٢.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ غافرِ الذنوبِ وساترِ العيوب، والصلاةُ والسلامُ على إمامِ المستغفرين، وداعي الناسِ للتوبةِ أجمعين.

أيها المسلمون: والاستغفارُ عبادةٌ وقُربة، ورحمةٌ ورِفْعةٌ، ودفعٌ للشرورِ والبلاء، حتى قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه الله: شهادةُ التوحيدِ تفتحُ بابَ الخير، والاستغفارُ يُغلقُ بابَ الشر[١].

وقالَ الحسنُ رحمه الله: أكثِروا منَ الاستغفار، فإنكمْ لا تدرونَ متى تنزلُ الرحمةُ.

والاستغفارُ خيرُ رفيقٍ في الدنيا، وفي ظلماتِ القبر، وحينَ العرضِ على الله، فمنْ لزمَ الاستغفارَ جعلَ اللهُ لهُ منْ كلِّ همٍّ فرَجًا، ومنْ كلِّ ضيقٍ مخرجًا، ورَزَقَهُ منْ حيثُ لا يحتسبُ.. هذا في الدنيا.

وفي القبرِ، قالَ أبو المنهال رحمه الله: «وما جاورَ عبدٌ في قبرِهِ منْ جارٍ أحبَّ إليهِ منْ استغفارٍ كثير»[٢].

يا عبدَ الله: منْ أهمَّتهُ ذنوبُهُ أكثرَ لها منَ الاستغفار، ومنْ استشعرَ نعمةَ اللهِ ختمَ ذلكَ بالاستغفار.. وهذا رسولُ اللهِ ﷺ حينَ وفّى تبليغَ الرسالةِ ونصرَه اللهُ، وفتحَ لهُ ما فتح، ودخلَ الناسُ في دينِ الله أفواجًا، أُمِرَ بالاستغفار، فكانَ الجهادُ والدعوةُ عبادةً أداها، وشُرِعَ له الاستغفارُ عُقيبها.

ومنْ وصايا لقمانَ لابنه: يا بني، عوِّدْ لسانَكَ الاستغفارَ، فإنَّ للهِ ساعاتٍ لا يَردُّ فيهن سائلًا[٣].

---

(١) محمد الحمد، رمضان، ١٩٤.

(٢) السابق/ ١٩٣.

(٣) السابق/ ١٩٣.

يا عبدَ الله: إني مرشدُكَ ونفسي إلى عدَّةِ أمور:

١- اختمْ عامكَ بالاستغفار.. فطالما أخطأْنا وطالما قصَّرْنا، وفي بعضِ الآثار: إن إبليسَ قال: أهلكتُ الناسَ بالذنوب، وأهلكوني بـ: «لا إلهَ إلا اللهُ» والاستغفارِ.

٢- واستقبلْ عامَكَ الجديدَ بهمَّةٍ صادقةٍ وعزيمةٍ متجدِّدةٍ على فعلِ الخيرِ، واحرصْ على أنْ يكونَ لكَ في كلِّ ميدانٍ من ميادينِ الخيرِ سهمٌ قلَّ هذا السهمُ أو كَثُر، وضَعْ نفسَكَ في منافسةٍ معَ كلِّ منْ رأيتَ يتقدمُ في أبوابِ الخير، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1].

٣- تذكرْ أرجى عملٍ عملتَه في عامِكَ المنصرمِ، فافرحْ بهِ دونَ أنْ تغترَّ أو تَمُنَّ، واشكرِ اللهَ إذْ وَفَّقك لعملِه، واسأَلْهُ القَبُولَ عليه، ثمْ حاولْ أن تكررَ مثلَهُ أو أحسنَ في عامِكَ الجديدِ، فمنْ علائمِ قبولِ الحسنةِ عملُ الحسنةِ بعدَها.

٤- وتذكرْ أَسْوَأَ عملٍ عملتَهُ فيما مضى، فابكِ على خطيئتِكَ، واسألْ ربَّكَ المغفرةَ، وإياكَ أنْ تكرر الخطيئةَ أو ما يُشبهها، فالندمُ توبةٌ، والاستغفارُ يُحرقُ الخطيئةَ، ومنْ تابَ وأنابَ فإنَّ الله يُبدِّلُ سيئاتِهِ حسناتٍ، وكانَ اللهُ غفورًا رحيمًا.

٥- فتِّشْ في أحوالِك كلِّها واسألْ عنْ نوعِ علاقتكَ بربِّكَ وبالناسِ منْ حولك، ما درجةُ الإيمانِ باللهِ واليقينِ بوعدِهِ ووعيده، وما قدرُ الصلاةِ عندكَ، وكيفَ حالُكَ معَ الصيامِ وقيامِ الليل، وكيفَ خُلُقُكَ وأسلوبُ تعاملُكَ معَ الناس، هلْ أنتَ وَصولٌ للرحم، محسنٌ للخَلْق، رطبُ اللسانِ بذكرِ الله، كثيرُ التلاوةِ لكتابه، تحبُّ للآخرينَ منَ المسلمينَ ما تحبُّهُ لنفسك، يهمكَ أمرُ

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

الإسلامِ ويشغَلُ بالَكَ حالُ المسلمين؟؟ كريمٌ صبورٌ حييٌّ، حليم.. فتلكَ ومثلُها خصالٌ يحبُّها اللهُ ويتمناها خَلْقُ الله وما لَمْ يكنْ منها خلقٌ متأصِّلٌ فيمكنُ بالتخلُّقِ والمجاهدةِ وترويضِ النفسِ، فالعلمُ بالتعلُّم والحِلْمُ بالتحلُّمِ وهكذا..

٦- أيها الشابُ: لا تغترَّ بشبابكَ فحبلُ المنايا قصيرٌ، وقطارُ الموتِ لا ينتظرُ الشابَّ حتى يكبرَ، ألا فلتعلمْ أنَّ الشبابَ أوسعُ ميدانٍ وأقوى سلاحٍ لزرعِ الآخرة، أما إذا انحنى الظهرُ وتعثرتِ القدمان عنِ الخطوِ وضَعُفَ البصرُ وثَقُلَ السمعُ، فما أقلَّ الجهدَ وإنْ توفرتْ دواعي الخير، ولو طلبتَ من شيخٍ عاجزٍ أنْ يتمنى، لقال: أنْ تُوهبَ لي قوتكَ فاستعنْ بها على طاعةِ الله، وليسَ يخفاكَ أنَّ في ظلِّ اللهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ متسعٌ لشابٍّ نشأ في طاعةِ الله، فشمِّرْ عنْ ساعدِ الجِدِّ واستثمرْ شبابَكَ قبلَ هرَمِك.

٧- أيها المسرفُ على نفسه بالمعاصي لا تَجعلْ من سترِ اللهِ عليك سببًا لمبارزتهِ بالمعاصي، فقدْ تؤخذُ على حينِ غَفلةٍ، ألا فاعلم أنهُ لا يَحُولُ بينك وبينَ اللهِ أحدٌ، فبادِرْهُ بالتوبةِ ما دامَ في الأمرِ مهلةٌ، ولا تظنَّ أنَّ عظيمَ ذنوبِكَ مانعةٌ منْ عفوِ اللهِ ومغفرته، فاللهُ لا يغفرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاء وإياكَ والقنوطَ، وربكُ ينادي ويقول: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

٨- صاحبَ الدنيا: لا تَغُرنَّكَ بزُخْرفِها؛ فهي الغدَّارةُ، إياكَ أنْ تجمعَ الشوكَ فيؤذيكَ حيًا وميتًا.. ألا وإنَّ في الحلالِ غُنيةً عنِ الحرام، وإذا كانَ الحسابُ دقيقًا على الحلال فما ظنُّك بالحساب على الحرام وإن أغناك الله فحذارِ من

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

الكبر والغُرور، فالمالُ مالُ الله وأنت مستأمَنٌ عليه وانظر -يَرْعاكَ اللهُ- كيف تكسبه وفيمَ تنفقُه؟

٩- أيها المسلمون تفاءلوا ولا تشاءموا وثِقُوا بنصرِ الله وغَلَبة الإسلامِ وكلَّما ادلهمَّت الخطوبُ فالفرجُ في ثناياها يلوحُ، فالكرب معه الفرجُ، والنصرُ مع الصبرِ والتقوى، وكلما اشتدت فُرجت، والجنةُ غالية وهي سلعةُ الله، وقد قيل لمن هم خيرٌ منا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١).

أما أعداؤنا منَ الكفار فمتاعُهم غرورٌ، وكبرياؤهم يزولُ، وأموالهم التي ينفقونها ليصدُّوا بها عن سبيل الله ستكون عليهم حسرةٌ ثم يُغلبون، وفي النهاية إلى جهنم يُحشرون. . وليسوا بمأمنٍ من عذاب الله في الدنيا وأخذَهم على حينِ غفلةٍ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

وفي القرآن نماذجُ لنهايةِ الطُّغاة والمستكبرين ودروسٌ وأمثالٌ للأولين والآخِرين: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾(٣) ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٤٤- ٤٥.

(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٥٥- ٥٦.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.

ألا فاستمسِكوا بدينكمُ الحقِّ -معشرَ المسلمين- وكونوا على ثقةٍ بنصرِ اللهِ لكمْ في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ، وذلك وعدٌ غيرُ مكذوب: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾(١)، بَشِّروا وأبشِروا، ويسِّروا ولا تُعسِّروا، وادعوا ربَّكم خوفًا وطمَعًا ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

اللهمَّ انصرْ دينَكَ وعبادَك المسلمين، اللهمَّ لا تجعلْ للكافرينَ سبيلًا على المسلمين.



(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

الثلاثة الذين خلفوا[(١)]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله.

اللهم صلِّ وسلمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين، وارضَ اللهمَّ عنِ الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ وسلمْ تسليمًا كثيرًا.

إخوةَ الإيمان: لكلِّ أمةٍ رجالٌ تفخرُ بهمْ وتكثرُ مناقبُهم، ويحلو الكلامُ في سِيَرهم، وما منْ نبيٍّ إلا كانَ له حواريونَ وأصحابٌ، يؤمنونَ بما جاءَ به، ويجاهدونَ معه، وإنْ كانَ يوجدُ النبيُّ الذي يأتي يومَ القيامةِ وليسَ معهُ أحد؟

ولكنَّ رجالَ هذهِ الأمةِ الأوَّلينَ فاقوا غيرَهم.. وكُثَر عددُهم، وشهدَ النبيُّ ﷺ على خيريَّتِهمْ فقال: «**خيرُ الناس قَرْني**»، وأثنى اللهُ عليهمْ في أكثرَ منْ موضعٍ منْ كتابِهِ العزيز، منْ مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[(٢)].

ومن السنةِ -كما يقولُ الإمامُ أحمدُ رحمه الله- في كتابه «السنة»: ذكرُ محاسنِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ كلِّهمْ أجمعين، والكفُّ عنِ الذي جرى بينهم، فمنْ سبَّ أصحابَ رسول الله ﷺ أو واحدًا منهمْ فهوَ مُبتدعٌ رافضيٌّ.. إلى أنْ قالَ

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٤/ ١/ ١٤٢٤هـ.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

الإمام: حبُّهمْ سُنَّةٌ، والدعاءُ لهمْ قُرْبةٌ، والاقتداءُ بهمْ وسيلةٌ والأخذُ بآثارهمْ فضيلة[١].

أخوةَ الإسلام: وصحابةُ رسولِ اللهِ ﷺ جاهدوا بأموالهمْ وأنفسِهمْ في سبيلِ الله، وفدَوْا رسولَ اللهِ ﷺ بأرواحهم، وحملوا الإسلامَ إلى أصقاعِ الأرض، وهمْ يحملونَ أرواحهمْ على أكُفِّهم، فمنهمْ منْ قضى نحبَهُ في ساحاتِ الجهادِ ومنهمْ منِ انتظرَ حتى توفاهُ اللهُ وما بدَّلوا تبديلًا.

كانوا قِمَمًا في إيمانهمْ وصِدْقِهم، وكانوا كذلكَ قِمَمًا حين يخطئونَ فيتوبون، وحديثُ اليوم عن الثلاثةِ الذينَ خُلِّفوا، جاءَ ذكرهمْ في القرآنِ وأفاضتِ السيرةُ النبويةُ في تفصيلِ خبرهمْ -وإنْ لمْ نجدْ في كتب الطبقات والتراجم مزيدَ تفصيل عن حياتهم- وهم: كَعبُ بنُ مالك -وهوَ أصغرُهمْ سنًا وأشهرهمْ ذِكرًا- ومُرارةُ بنُ الربيعِ العمريِّ، وهلالُ بن أميةَ الواقفيُّ، والثلاثةُ من الأنصارِ، والاثنان الأخيران بَدْرِيَّان.

أما كعبٌ فهوَ خزرجيٌّ عَقَبيٌّ أُحُديّ -يعني منَ الخزرجِ وشهدَ العقبةَ وأُحدَ، كانَ منْ أهلِ الصُّفَّة- كما قالَ ابنُ أبي حاتم[٢]، شهدَ العقبةَ وبايعَ بها، وتخلَّفَ عنْ بدر- ولمْ يعاتب الرسولُ ﷺ منْ تغيّبَ عنها وشهدَ أحدًا وكانَ لهُ موقفٌ فيها، ثمَّ شهدَ ما بعدَها، وتخلَّفَ في تبوكَ، وقصتُهُ وصاحباهُ مشهورةٌ فيها[٣].

كان كعبٌ أحد شعراءِ النبيِّ ﷺ المشهورينَ وهم: حسانٌ، وابنُ رواحةَ وكعبٌ، وخدمتُهمْ للإسلامِ في شعرهمْ لا تُنكر، قالَ ابنُ سيرين: أما كعبٌ فكانَ

---

(١) العباد، الانتصار للصحابة الأخيار ص١٣٣.

(٢) الجرح والتعديل ٧/ ١٦٠، ١٦١.

(٣) الإصابة ٨/ ٣٠٤، ٣٠٥ بتصرف.

يذكرُ الحربَ يقول: فعلنا ونفعلُ ويتهدَّدُهم، وأما حسانٌ فكانَ يذكرُ عيوبَهمْ وأيامهم، وأما ابنُ رواحةَ فكان يُعيِّرُهمْ بالكفر[١].

ولقدْ تأثرَ كعبٌ رضي الله عنه حينَ نزلَ في القرآنِ ما نزلَ في ذمِّ الشعراء، فجاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقال: يا رسولَ الله، قدْ أنزلَ اللهُ في الشعراءِ ما أنزل، فقالَ له النبيُّ ﷺ مطمئنًا: **«إنَّ المجاهدَ مجاهدٌ بسيفهِ ولسانه، والذي نفسي بيدهِ لكأنما ترمونهمْ بهِ نضحُ النَّبْلِ»**[٢].

شهدَ كعبٌ أُحدًا فارتُثَّ فيها، بل جُرح فيها سبعةَ عشرَ جرحًا، وهوَ أولُ منْ عرفَ رسولَ الله ﷺ، وبشرَّ به المؤمنين حيًّا سويًّا، ودعا رسولُ اللهِ ﷺ كعبًا بلأمَتِه، وكانتْ صفراءَ، فلبسها كعبٌ وقاتلَ يومئذٍ قتالًا شديدًا حتى جُرحَ سبعةَ عشرَ جرحًا[٣].

أيها المسلمون: وكما جاهدَ كعبٌ المشركينَ بسيفه، جاهدهمْ كذلكَ بلسانه، وكانَ لشعرهِ أثرٌ بالغٌ عليهم، بلْ أسلمتْ لهُ دَوْسٌ لبيتينِ قالهما كعبٌ والخبرُ كما ذكرهُ ابنُ سيرين: قالَ كعبٌ بيتينِ كانا سببَ إسلامِ دَوْس، والبيتانِ قالهما كعبٌ حينما انصرفَ النبيُّ ﷺ منْ حُنينٍ وأجمعَ المسيرَ إلى الطائف، والبيتانِ هما- كما ذكرَ ابنُ هشام-:

قَضَيْنا منْ تهامةَ كلَّ ريبٍ ... وخيبرَ ثمَّ أجمَعْنا السُّيوفا
نُخيِّرُها ولو نطقتْ لقالتْ ... قواطعهنَّ دَوْسًا أو ثقيفا[٤]

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٢٥.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٥٠٠) وعند أحمد في «مسنده» (٦/ ٣٨٧) بسند صحيح، سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٢٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٢٤، المستدرك ٣/ ٤٤١.

(٤) السيرة لابن هشام ٤/ ١٧١.

فلما بلغَ ذلكَ دَوْسًا قالوا: خذوا لأنفسكم، لا ينزلُ بثقيف[١].

قالَ الذهبي: وقدْ أسلمتْ دوسٌ فَرَقًا منْ بيتٍ قَالهُ كعبٌ.. نخيِّرها ولو نطقَتْ لقالت: قواطعهنَّ دَوْسًا أو ثقيفًا[٢].

وفي الحديثِ عنْ شعرِ كعب، قالَ لهُ النبيُّ ﷺ: «**ما نسيَ ربُّكَ لكَ،- وما كانَ ربُّك نسِيًا- بيتًا قلتَه**»، قال: وما هو؟ قال: «**أنشِدْه يا أبا بكر**» فقال:

زَعَمتْ سخينةُ أن ستغلِبُ ربَّها وَلَيُغْلَبنَّ مُغالبُ الغلاب

والسخينةُ لَقَبٌ لقريشٍ كانت تُعَيَّر به[٣].

قالَ الذهبي: مات كعبٌ سنةَ خمسين[٤].

وقالَ ابنُ حجر: ولمْ نجدْ لهُ في حربِ عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما خبرًا[٥].

أما مرارةُ بنُ الربيع، وهلالُ بنُ أمية فهما كما قالَ صاحبهما كعب: قدْ شهدا بدرًا وفيهما أسوةٌ[٦].

وهلالُ بنُ أميةَ- كما تقولُ امرأتُه-: شيخٌ ضائعٌ وما به حِراكٌ إلى شيءٍ، وما زالَ يبكي منذُ كانَ من أمرهِ في تبوكَ ما كان[٧].

كان هلالٌ قديمَ الإسلامِ وشهدَ بدرًا وأُحدًا، وكانَ يكسرُ أصنامَ بني واقف،

---

(١) الإصابة ٨/ ٣٠٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٢٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٢٦.

(٤) المستدرك ٣/ ٤٤٠.

(٥) الإصابة ٨/ ٣٠٥.

(٦) أخرجه البخاري ح ٤٤١٨.

(٧) البخاري مع الفتح ٨/ ١١٥.

وكانتْ معهُ رايتُهمْ يومَ الفتح(١).

والثلاثةُ كلُّهم- كعبٌ وهلالَ ومرارة- امتُحنوا حينَ تخلَّفوا في غزوةِ تبوك إلى الحدِّ الذي أخبرَ اللهُ عنهمْ في كتابهِ بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢).

وأخبرَ أحدُهمْ (كعبٌ) عن المعاناةِ التي عاشوها والضيقِ الذي لازمهمْ طيلةَ خمسينَ ليلةً إذْ يقول: ونهى رسولُ الله ﷺ المسلمينَ عن كلامنا، فاجتنبَنا الناسُ وتغيَّروا لنا، حتى تنكرتْ في نفسي الأرضُ، فما هيَ التي أعرفُ، فلبثْنا على ذلكَ خمسينَ ليلةً، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القومِ وأجلَدَهم، فكنتُ أخرجُ فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواقِ ولا يكلِّمُني أحدُ، وآتي رسولَ اللهِ ﷺ فأسلمُ عليهِ وهوَ في مجلسهِ بعدَ الصلاةِ فأقولُ في نفسي: هلْ حرّكَ شَفَتَيهِ بردِّ السلامِ عليَّ أم لا؟ ثمَّ أصلي قريبًا منه، فأسارِقُهُ النظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبلَ إليَّ وإذا التفتُّ نحوَهُ أعرضَ عني، حتى إذا طالَ عليَّ ذلكَ- من جَفْوةِ الناس- مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدارَ حائطِ أبي قتادةَ، وهوُ ابنُ عمي وأحبُّ الناسِ إليَّ فسلمتُ عليه، فواللهِ ما ردَّ عليَّ السلامَ، فقلتُ: يا أبا قتادةَ: أنشُدُكَ بالله، هل تعلَمُني أُحِبُّ اللهَ ورسولَه؟ فسكتَ، فعُدتُ له فنشَدْتُهُ فسَكتَ، فعُدْتُ له فنَشَدْتُه. فقال: اللهُ ورسولُهُ أعلم، ففاضتْ عيناي..

إنها قمةُ المعاناةِ يعيشها الثلاثةُ ويُعبرُ عنها كعب.. فالأصحاب يَهْجرونَ

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ٥/٤٠٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

والأرضُ تتغير، والأسواقُ وحشةٌ وهجر، وفي المسجدِ إعراضٌ وهَجْر، والصديقُ الحميمُ يتردَّدُ في البوحِ بأدنى تزكية.. وحُقَّ للثلاثةِ أنْ يتأثروا لهذهِ المحنةِ وأنْ تجيبَ العينانِ بالبكاءِ قبلَ ما يمكنُ أنْ يعبِّرَ عنه القلبُ ويترجمُه اللسانُ!

وهكذا يُبتلى العظماءُ، ويُمحَّصُ المؤمنون، وتكونُ العاقبةُ حميدةً والبشارةُ سارةً.. والرسولُ ﷺ يقولُ لكعب- حينَ نزلَ القرآنَ بتوبتهم: «**أبشرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليكَ منذُ ولدَتْكَ أمُّكَ**»[1].

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2].



(١) البخاري، السابق.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

الخطبة الثانية:

إخوةَ الإسلام: ومنْ قمةِ المعاناةِ والضيقِ التي وجدَها الثلاثةُ الذينَ خُلِّفوا.. إلى قمةِ الفرح والبشرى بالتوبةِ تنزلُ منَ السماء، وبالفرجِ بعدَ الكَرْبِ يأذنُ بِهِ اللهُ وينزلُ بِهِ القرآنُ منَ السماء.. وتتجاوزُ الفرحةُ نطاقَ الثلاثةِ إلى عمومِ المسلمينَ لتكشفَ هذهِ الحادثةُ- فيما تكشفُه- طبيعةَ مجتمعِ المسلمينَ وما فيهِ منْ معاني الأُخوَّةِ الصادقةِ والتكافلِ والمحبة.. فتراهمْ يعتذرونَ بالحُسنى عنِ الغائب، ويَحْمونَ عِرْضَ المتخلِّف ما دامَ مشهودًا لهُ بالخيرِ والصلاح، وهمْ- وإن هجروهُ لمصلحةٍ واستجابوا لأمر اللهِ ورسولِه- فهمْ كذلكَ يفرحونَ بالخيرِ يُصيبُه، بلْ يتسابقونَ لتهنئته.. وترى الرجلينِ يتنافسانِ في سرعةِ البشرى له، وأيُّهما يوصلُ لهُ الرسالةَ أولًا.. فأحدُهما يمتطي صهوةَ جوادهِ مسرعًا، والآخرُ يعلو جبلًا فيرفعُ صوتَهُ مُبشرًا.. وثالثٌ يقومُ يحتضنُ ويُهنِّئُ وأفواجٌ على إثرِ أفواجٍ تُبشِّر بالخير.. وهكذا.. فما أجملَها منْ صورةٍ تمثلُ المجتمعَ الإسلاميَّ المتماسكَ..

ودُونكُمُ الصورةَ بجلاءٍ يُعبرُ عنها بكلِّ وضوحٍ كعبُ بنُ مالكٍ ﵁، حينَ نزلتْ توبتهُ ويقول:

فلما صليتُ صلاةَ الفجرِ صُبْحَ خمسينَ ليلةً، وأنا على ظَهْرِ بيتٍ منْ بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذكرَ اللهُ، قدْ ضاقتْ عليَّ نفسي وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبتْ، سمعتُ صوتَ صارخ أَوْفَى على جبلِ سَلْعٍ بأعلى صوتِه: يا كعبَ بن مالك، أبشِرْ، قال: فخررتُ ساجدًا، وعرفتُ أنْ قدْ جاءَ فرجٌ، وآذنَ رسولُ اللهِ ﷺ بتوبةِ اللهِ علينا حينَ صلى صلاةَ الفجر، فذهبَ الناسُ يبشِّروننا، وذهبَ قِبَلَ صاحبيَّ مُبشِّرون، وركضَ إليَّ رجلٌ فَرَسًا، وسعى ساعٍ منْ أَسلَمَ

فأَوْفَى على الجبل، وكانَ الصوتُ أسرعَ منَ الفَرَسِ، فلما جاءني الذي سمعتُ صوتَه يُبشِّرُني نزعتُ لهُ ثوبيَّ فكسوتُه إياهما ببشُراه، واللهِ ما أَمْلِكُ غيرَهما يومئذ، واستعرتُ ثوبينِ فلبستُهما، وانطلقتُ إلى رسولِ الله ﷺ، فيتلقَّاني الناسُ فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبةِ ويقولون: لِتَهْنِكَ توبةُ اللهِ عليك.

قالَ كعبٌ: حتى دخلتُ المسجدَ فإذا رسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ حولَهُ الناسُ، فقامَ إليَّ طلحةُ بنُ عبيدِ الله يُهرولُ حتى صافَحَني وهنأني، واللهِ ما قامَ إليَّ رجلٌ منَ المهاجرينَ غيرَه، ولا أنساها لطلحةَ.

قالَ كعبٌ: فلما سلَّمتُ على رسولِ اللهِ ﷺ قال- وهو يبرقُ وَجْهُهُ منَ السرور-: «**أبشرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليكَ منذُ ولدَتْكَ أُمُّكَ**» قالَ (كعبٌ): قلتُ: أمِنْ عندكَ يا رسولَ اللهِ أمْ منْ عندِ الله؟ قال: «**لا، بلْ منْ عندِ الله**».

عبادَ الله: ومن معاني القصةِ ودلالاتِها العُظمى: قيمةُ الصدقِ معَ اللهِ، وأثرُه في تفريجِ الكُربات، وعواقبُهُ الحميدة.

وهذا كعبٌ يحدثُ بنفسِه عنِ الصدقِ بدْءًا ونهايةً، ويقول: فلما قَفَلَ رسولُ اللهِ ﷺ راجعًا منَ الغزوة إلى المدينة، أتيتُهُ فتبسَّم تبسُّمَ المُغْضَبِ، وسأل عن سببِ تخلُّفي عن الغزوة، فقلتُ: إني واللهِ لو جلستُ عندَ غيركَ منْ أهلِ الدنيا لرأيتُ أنْ سأخرجُ منْ سَخَطِهِ بعُذْرٍ ولقدْ أعطيتُ جَدَلًا، ولكني واللهِ لقدْ علمتُ لئنْ حدثْتُكَ اليومَ حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشِكنَّ اللهُ أنْ يُسخِطَك عليّ، ولئنْ حدثْتُكَ حديثَ صدقٍ تجدُ عليَّ فيه، إني لأرجو فيهِ عفوَ الله، لا واللهِ ما كانَ لي منْ عُذْر.. إلى قوله ﷺ: «**أما هذا فقدْ صَدَقَ، فقمْ حتى يقضيَ اللهُ فيك**».

وفي نهايةِ القصة، وحينَ نزلتْ توبةُ كعبٍ جاءَ ليقولَ للرسولِ ﷺ (عن أثرِ

الصدقِ والتزامِهِ الصدق): يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ إنما نجَّاني بالصِّدق، وإنَّ منْ توبتي أنْ لا أُحدِّثَ إلا صادقًا ما بقيتْ، ثمَّ يقول: فواللهِ ما أعلمُ أحدًا منَ المسلمينَ أبلاهُ اللهُ في صِدْقِ الحديث- منذُ ذكرتُ ذلكَ لرسولِ اللهِ ﷺ- أحسنَ مما أبلاني، ما تعمَّدتُ منذُ ذكرتُ ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ إلى يومي هذا كذِبًا، وإني لأرجو أنْ يحفظَني اللهُ فيما بقيتُ..

وليسَ يخفى أنَّ اللهَ أثنى على صدقِ هؤلاء.. ودعا المسلمينَ إلى التحلي بالصدق، كما في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[(١)].

فهلْ نصدقُ معَ اللهِ كما صدقَ كعبٌ وصاحباه؟ وهلْ نصدقُ معَ أنفسنا كما صدقوا معَ أنفسهم؟

أيها المؤمنون: وهنا سرٌّ عظيم، فأكابرُ الرجالِ والصادقونَ معَ اللهِ لا تزيدهمُ المواقفُ الصعبةُ إلا قوةً ورفعةً، وقدْ يكونُ صاحبُ الذنبِ التائبُ أفضلَ منهُ قبلَ الخطيئة، كما قالَ بعضُ السلف: كانَ داودُ عليه السلام بعدَ التوبةِ أحسنَ منهُ حالًا قبلَ الخطيئة، كذا نقلَ شيخُ الإسلامِ في «الفتاوى» (١٥/ ٥٤) ثم قال: والاعتبارُ بكمالِ النهايةِ لا ينقصُ البدايةَ[(٢)].

قالَ ابنُ حجر، ومنْ فوائدِ قصةِ الثلاثة: أنَّ القويَّ في الدينِ يؤاخذُ بأشدَّ مما يُؤاخذُ الضعيفُ في الدِّين[(٣)].

ومعَ ذلك، يقالُ عنْ أثرِ المعصيةِ ما قالهُ الحسنُ البصريُّ رحمه الله: يا سبحانَ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٢) السابق ١٥/ ٥.

(٣) الفتح ٨/ ١٢٣.

اللهِ، ما أكلَ هؤلاءِ الثلاثةِ مالًا حرامًا ولا سَفَكوا دمًا حرامًا، ولا أفسدوا في الأرض، أصابهمْ ما سمعتمْ وضاقتْ عليهمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ، فكيفَ بمنْ يواقعُ الفواحشَ والكبائرَ[١]؟!

أيها المسلمون: لم تنتهِ بعدُ قصةُ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا، وثمةَ دروسٌ وعبرٌ أخرى لكني أُرجئُ ذلكَ لخطبةٍ أخرى إنْ شاء الله.

وثمةَ ما يُذكَّرُ بهِ هذه الأيام، ألا وهوَ صومُ يومِ عاشوراءَ، فنحنُ الآنَ في شهرِ اللهِ المحرم، وفي العاشرِ منهُ كانتِ الملحمةُ بينَ الإيمانِ يمثِّلهُ موسى والمؤمنونَ معه، والكفرُ والطغيانُ يمثِّلهُ فرعونُ وجنودُه، وانتصرَ الإيمانُ وعزَّ المؤمنونَ وذلَّ المشركونَ وخابَ كلُّ جبار عنيد.. وانتهى أمدُ طغيانِ فرعونَ الذي قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[٢]، واستصغرَ الذي قالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٣]- وحينَ أدركهُ الغرقُ عرفَ الحقيقةَ ولكنْ هيهات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٤]، وكانتِ العبرةُ وكانَ الدرسُ بليغًا ولكنْ لمنْ؟! ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[٥].

وصامَ موسى ومحمدٌ عليهما السلام يومَ عاشوراء، ففي «صحيحِ مسلم» عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قدمَ المدينةَ، فوجدَ اليهودَ صيامًا يومَ عاشوراء، فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما هذا اليومُ الذي تصومونَه؟**» قالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى اللهُ

(١) الفتح ٨/ ١٢٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٣) سورة النازعات، الآية: ٢٤.
(٤) سورة يونس، الآية: ٩٠.
(٥) سورة يونس، الآية: ٩٢.

فيه موسى وقومَهُ وغرقَ فرعونُ وقومهُ فصامَهُ موسى شكرًا، فنحن نصومُه، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**فنحنُ أحقُّ وأولى بموسى منكم**»، فصامهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأمرَ بصيامه[١].

وإذا كانَ الأنبياءُ صاموا عاشوراء واليهودُ صامُوه، وقريشٌ في جاهليتها تصومُ عاشوراءَ- كما في «صحيح مسلم»[٢] فحريٌّ بالمسلمِ الذي يرجو ثوابَ ربِّه أنْ يصومَه.. لا سيَّما وقدْ وردَ في فضلهِ أنه يكفِّرُ سنةً.. وما أحوجَنا جميعًا إلى تكفيرِ الذنوب.. ومن السُّنةِ مخالفةُ اليهودِ بصومِ يومٍ قبلَهُ أوْ يومٍ بعْدَه، ومَنْ صامَ التاسعَ والعاشرَ والحادي عشرَ، فذاكَ أكملُ وأعلى مراتبُ صيامهِ كما قالَ ابنُ القيمِ رحمه الله[٣].



(١) مسلم، المنذري ١٦٣، ١٦٤، ح ٦١٣.

(٢) ح ٦١١.

(٣) زاد المعاد ٢/٧٦.

مسكنات في الأزمات[1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ مُغيثِ اللَّهفاتِ، فارجِ الكُرباتِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، ما منْ دابةٍ في الأرضِ إلا عليهِ رِزْقُها ويعلمُ مُستقرَّها ومستودَعها، كلُّ ذلكَ في كتابٍ مبين، لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه آمنَ وصدَّقَ، وجاهدَ وصبرَ، ونشرَ اللهَ رسالتَهُ في العالمين، وأوحى إليهِ ربُّه ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، وأوحى إليهِ ومنْ معَهُ منَ المؤمنين ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[3].

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

أيها المسلمون: منْ يتأملُ واقعَ العالمِ اليومَ يرى أحداثًا تتسارعُ وقوى تتصارع، شحناءُ وبغضاء، تهديدٌ وإرجاف، هَرْجٌ ومَرْجٌ، أهدافٌ مُعلنةٌ وأخرى مُبيَّتة، فُرْقةٌ واختلاف، وفتنٌ تموجُ ومستقبلٌ مجهول، يطغى صوتُ الحمقى، ويغيبُ أو يُغيَّبُ صوتُ العقلاء، وإذا كانَ العالمُ كلُّه قلقًا ومنكِرًا لهذهِ الحماقاتِ التي ربَّما دمرتِ الأخضرَ واليابس.. فما حالُ المسلمِ في ظلِّ هذه الأزماتِ المتلاحقة، وهلْ منْ مُهدئاتٍ ومُسكناتٍ ومبشرات؟

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢٣/ ٢/ ١٤٢٤هـ.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٤٣.

(٣) سورة هود، الآيتان: ١١٢، ١١٣.

إنَّ المسلمَ الذي يرتبطُ باللهِ خالقِ الكونِ ومُدبِّره، ويعرفُ حقيقةَ الحياةِ الدنيا وطبيعتها والآخرةَ ونعيمَها، ويؤمنُ بالقدرِ خيرهِ وشرِّهِ.. ينبغي أنْ يختلفَ عنْ غيره، فلا يقلقُ ولا يضجر، ولا ييأسُ ولا يَقْنطُ، وهوَ- وإنْ أحسَّ كغيرهِ بالقلقِ وفكَّرَ وقدَّرَ بالعواقب- فثمةَ مهدِّئاتٌ إيمانيةٌ تخففُ منْ رَوْعِه، وتُجيبُ على تساؤلاته، وتمنحهُ الهدوءَ والطمأنينةَ والراحةَ النفسية، بلْ وتدفعُه للعملِ المثمرِ.

وتعالوا بنا -معشرَ المسلمين- إلى شيءٍ من هذه المُسكِّناتِ الإيمانيةِ نعلمها ونتعاملُ معها، كلَّما حدثتْ أزمةٌ، أو أطلّت فتنةٌ، أو ضاقتْ علينا أنفسُنا.

أولًا: ترسيخُ مفاهيمِ العقيدةِ الحقَّةِ في نفوسنا، ومنْ قضايا التوحيدِ والعقيدةِ التي يجبُ ألا تغيبَ عنِ المؤمنِ أبدًا قضيةُ الربوبية، وأنَّ اللهَ تعالى بيدهِ الأمرُ كلُّه، وإليهِ يرجعُ الأمرُ كلُّه، فالخلقُ والرزق، والإحياءُ والإماتة والنفعُ والضُّر، والرفعُ والخفضُ.. كلُّها بيدِ الله، والخلقُ كلُّهمْ وعلى مختلفِ رُتَبِهِمْ وقوَّتِهِمْ لا يملكونَ منَ الأمرِ شيئًا ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1].

وهذا صفوةُ الخلقِ يعلنُها حقيقةً إيمانيةً ويقول -وهوَ الكريمُ على الله-: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[2] ويوجهُ الخطابَ صريحًا وعامًا: ألَّا أحدَ يملكُ الضُرَّ أو النفعَ إلا الله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[3].

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ١٧، ١٨.

أما البشرُ فهمْ مهما امتلكوا منْ قوةٍ ضُعفاءُ، بلْ يتناهى ضعفُهم إلى حدٍّ قولهِ تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[1].

٢- إخوةَ الإيمان: ومنْ توحيدِ الربوبيةِ إلى توحيدِ الأسماءِ والصفاتِ مُسَكِّنٌ ثانٍ، وتوحيدُ الأسماءِ والصفاتِ هو الإقرارُ بأنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنهُ الحيُّ القيومُ لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نوم، لهُ المشيئةُ النافذةُ، والحِكمةُ البالغةُ، وأنهُ سميعٌ بصيرٌ رؤوفٌ رحيم، على العرشِ استوى، وعلى الملكِ احتوى، وأنه الملكُ القدُّوس السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبِّرُ، سبحانَ اللهِ عمَّا يشركون.. إلى غيرِ ذلكَ منْ أسماءِ اللهِ الحسنى، وصفاتِه العلى[2].

إن استشعارَ المسلمِ لأسماءِ الله، وتصوُّره لصفاتِهِ يمنحهُ الرِّضى بما قضى، والطمأنينةَ بما قدَّر، ولِمَ القلقُ واللهُ علّامُ الغيوب، ورحمتُهُ وسِعَتْ كلَّ شيء، وبيدهِ وحدهُ مفاتيحُ الرحمةِ ومغاليقها؟! ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[3] ولِمَ الخَوَرُ والضجرُ وأزِمَّةُ الأمورِ كلِّها بيدِ اللهِ؟! فهوَ العليمُ وهوَ الحكيمُ وهوَ الخبيرُ وهو اللطيف، وهوَ السميعُ البصير، وهوَ الجبَّارُ القادرُ المتكبر، وقدْ صحَّ الخبر: «إنَّ للهِ تسعةً وتسعينَ اسمًا، مَنْ أحصاها دخلَ الجنة..» متفقٌ عليه، وقدْ قيلَ في معنى إحصائها: أي مَنْ أطاقَ القيامَ بحقِّ هذهِ الأسماء، والعملَ بمقتضاها، وهوَ أنْ يعتبرَ معانيها فيلزم نفسَه بموجباتها، فإذا قال: الرزاق وثِقَ بالرزق، وكذا سائرُ الأسماء[4].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد، سلمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ١٩.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢.

(٤) معارج القبول، الحكمي ١/ ٨٤.

٣- ومُسكِّنٌ ثالثٌ يتمثلُ في صدقِ الدعاءِ والتضرعِ لله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(١)، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

ومنْ هَدْيِ النبوةِ قبسٌ ودعاءٌ يُذهبُ الهمَّ والغمَّ، ففي «المسند» و«صحيح أبي حاتم» منْ حديثٍ عبد اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما أصابَ عبدًا همٌّ ولا حَزَنٌ فقال: اللهمَّ إني عبدُك ابنُ عبدِك، ابنُ أَمَتِك، ناصِيَتي بيدِكَ، ماضٍ فيَّ حكُمكَ، عدلٌ فيَّ قضاؤُك، أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لك، سميتَ بِهِ نفسَكَ أو أنزلتَهُ في كتابك، أو علَّمْتَهُ أحدًا منْ خلقكَ أو استأثرتَ بِهِ في علمِ الغيبِ عندك، أنْ تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري وجلاءَ حُزْني وذهابَ همِّي وغمِّي، إلا أذهبَ اللهُ همَّهُ وغمَّهُ وأبدلَهُ مكانهُ فرحًا**»، قالوا: يا رسولَ الله، أفلا نتعلمهن؟ قال: «بلى، ينبغي لمنْ سمعهنَّ أنْ يتعلمهن»(٣).

فهل نعلمُ هذا الدعاء؟ وهل نعملُ به؟ وهلْ نجدُ لهُ أثرًا في حياتنا؟

٤- أما المسكِّن الرابعُ فهوَ النظرُ بتفاؤلٍ للمستقبل، وعدمُ حبسِ النفسِ تحتَ ضغطِ الواقعِ المؤلم، إذْ كثيرًا ما يتضايقُ المرءُ ويقلقُ ويضجرُ نتيجةَ ما يراهُ حاضرًا منْ أحداثٍ مؤلمة، لكنهُ حينَ يتجاوزُ الحاضرَ ويتفاءلُ بالمستقبلِ يُسرِّي عنْ نفسهِ ويقودُها للعملِ والإنتاجِ والبهجةِ والسرور، فالأحزانُ لا تدوم، والضيقُ يعقبهُ الفرجُ، والصبرُ جسرٌ يعبرُ عليهِ الصابرون من حالٍ إلى حال، وهذا رسولُ الهدى ﷺ حينَ ضاقتْ على أصحابهِ المهاجر، وجاءوا إليهِ يشكونَ ما

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(٣) الفوائد/ ٣٣.

يلقونَ منْ عَنَتِ المشركين، وقالَ قائلُهم: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو لنا؟ فتحَ لهمْ رسولُ اللهِ ﷺ بابَ الأمل، وبشَّرهمْ بمستقبلٍ مشرق، بعدَ ترويضهمْ بالبصرِ واليقين: «**واللهِ ليُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ منْ صنعاءَ إلى حضرموتَ، لا يخافُ إلا اللهَ والذئبَ على غَنمِه، ولكنكمْ تستعجلون**».

٥- ومن المسكِّناتِ في الأزماتِ: كثرةُ العبادةِ والاستمرارُ على الطاعة؛ إذ الأنفسُ تُشْغَلُ، والقلوبُ تضعُف، والذهنُ يتشتَّت[١]، والمؤمنُ الذي يداوي ذلكَ بكثرةِ العبادةِ لا شكَّ موفَّقٌ مروِّضٌ لنفسِه، ولهذا ندبَ الرسولُ ﷺ المسلمينَ إلى العبادةِ في الهَرْجِ وعظَّمَ أمرَها فقال: «**العبادةُ في الهَرْجِ كهجرةٍ إليَّ**».

ولا ريبَ -معاشرَ المسلمين- أنَّ منْ فعلَ ما يوعَظُ بهِ آنسَهُ اللهُ وثبَّته، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[٢].

٦- والدعوةُ للخيرِ في الأزماتِ كذلكَ مفتاحٌ لحلِّها بإذنِ الله، وفي ذلكَ إشغالٌ للنفسِ بما ينفعُ، أجل، إنَّ الفارغَ منَ العملِ المثمرِ يقضي وقتهُ بالتفكرِ والتحسرِ السلبي، لكنْ إذا صرفَ هِمَّتَهُ للدعوةِ ونَفْعِ الناسِ نفعَهُ الله، ونفعَ الناسَ به، ومنْ تأملَ سيرةَ النبيِّ ﷺ والمؤمنينَ معَهُ وجدَهمْ في أشدِّ الضيقِ والأذى يمارسونَ الدعوةَ إلى الله، وعجِبَتْ قريشٌ وهيَ تضايقُهم، وأفرادٌ منَ المعدودينَ فيهمْ يستجيبونَ للدعوةِ وينضمونَ لقافلةِ المؤمنين.. ومن أبرزِ هؤلاء: حمزةُ وعمرُ بن الخطابِ وغيرُهمْ كثيرٌ -رضي الله عنهم أجمعين-، بلْ ومنْ خارجِ مكةَ أمثال: أبي ذرٍ الغفاري، والطُّفيلِ بن عمرو الدَّوْسيِّ وغيرِهما -رضي الله عنهم أجمعين.

(١) وربما انشغل الناس بالقيل والقال وفتر عن عبادة ربه.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٦.

فهلْ يا تُرى ينشطُ المسلمونَ في الدعوةِ إلى اللهِ في وقتِ الأزماتِ خاصةً، ليغيظوا الكفارَ والمنافقينَ منْ جانب، وليطردوا عنْ أنفسِهم الضيقَ والضجرَ واليأسَ والإحباطَ منْ جانبٍ آخر.

٧- والصدقةُ والإحسانُ سبيلٌ لرفعِ الأزماتِ والكروب، كيفَ لا وقدْ صحَّ الخبرُ أنَّ «**صنائعَ المعروفِ تقي مصارعَ السُّوء، والصدقةُ خَفيًّا تطفئُ غضبَ الربِّ، وصلةُ الرحم زيادةٌ في العمر، وكلُّ معروفٍ صدقةٌ، وأهلُ المعروفِ في الدنيا همْ أهلُ المعروفِ في الآخرة**»(١).

والصدقةُ برهانٌ على حبِّ الخير، وهي شارحةٌ للصدر منفِّسةٌ للكَرْب، مبعِدةٌ للشُّحّ- وفي القرآن- مُذهبةٌ للخوفِ والحزن ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

الصدقةُ يُداوى بها المرضى وينتفعُ بها الموتى، ويُتّقى بها منَ الشُّحِّ والبخلِ والأثَرةِ للأحياء، فأينَ المتصدقون يواسونَ إخوانَهم المسلمين، وبها يُداوونَ مرضاهم ويُحسِنون إلى أنفسِهمْ وموتاهم، واللهُ تعالى يجزي المتصدقينَ ويُخلِف على المنفِقين.

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» وصححه الألباني. صحيح الجامع ٣/ ٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٢.

الخطبة الثانية:

إخوةَ الإيمان:

٨- وحينَ يكونُ الحديثُ عنِ المُسكِّناتِ في الأزماتِ فلا بدَّ أنْ يكونَ للعملِ النافعِ تعلُّمًا وتعليمًا ونشرًا نصيبٌ وافر؛ فالعلمُ نورٌ يضيءُ للسالكين، وهوَ خشيةٌ يقطعُ الخوفَ إلا منْ ربِّ العالمين، والعلمُ طريقٌ إلى الجنة، وهو سببٌ للأمنِ والطُّمأنينة، العلماءُ الربانيونَ أعرفُ الناسِ في الفتن، وأقدرهمْ على تسكينِ الناسِ حينَ المخاوفِ والمِحَن: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾(١).

والعلماءُ أعرفُ الناسِ بسُننِ اللهِ في الكون، وأعلمُ الناسِ بحركةِ التاريخِ ومصائرِ الأمم.. ولذا فتعلُّمُ العلمِ، ونشرُه، والقربُ منَ العلماءِ ومشورتهم، كلُّ ذلكَ مُسكِّنٌ في الأزمات، وهوَ في غيرها منْ بابِ أَوْلى.

٩- أيها الناسُ: وليسَ كلُّ ما يُسمعُ بصحيح، ولوسائلِ الإعلامِ أثرُها في الإرجافِ والتخويف، ولا سيما إذا كانَ العدوُّ مستحوذًا على المعلومةِ ينشرُ منها ما يشاء، فاحذروا التهويلَ الإعلامي، ولا تكونوا أداةً للترويجِ والترويعِ بما لا يصحُّ ولا يثبتُ، وحَسْبُ المرءِ كذبًا أنْ يُحدِّثَ بكلِّ ما سمع، وفي القرآنِ تنويهٌ وتوجيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾(٢).

فلا تستفِزنكمُ الأخبارُ الكاذبة، ولا يستخِفَّنّكمُ الذينَ لا يُوقنون.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٦.

١٠- والمسكِّنُ العاشر: تثمينُ المكاسبِ الحاصلةِ في هذهِ الأزمات، وتقديرُ المنحِ الربانيةِ على إثرِ المحنِ والنكبات، فما منْ شرٍّ صَرْفٍ وقدْ يبتلي اللهُ عبادَهُ بالضراءِ ليعافيَهمْ ويُحزنَهمْ ويرفعَ درجاتِهم، فضلًا عما يقعُ في هذه النكباتِ منْ خيرٍ عامٍّ للمسلمين، تتوحَّدُ كلمتُهمْ وتتقاربُ قلوبُهم، ويتوبونَ إلى ربِّهم، ويدعونَهُ خَوْفًا وطمعًا، ويستغفرونَهُ سِرًّا وجَهرًا، ويصحِّحونَ مسارَهم، ويتفقَّدونَ مسيرتَهُم.. ويخطِّطونَ بوعيٍ لمستقبلهم، وهذهِ المكاسبُ وأمثالُها إذا ثُمِّنتْ وروعيتْ كانتْ منْ أعظمِ المسكِّناتِ وأقوى العلاجات[1].

١١- ومنَ المسكِّناتِ: معرفةُ الأعداءِ على حقيقتهم، والحذرُ منهم، والاستعدادُ لهم، فللأمةِ المسلمةِ أعداءٌ ينكشفونَ أكثرَ في الأزمات، ومنهمُ الظاهرُ بعداوته، ومنهمُ المنافق، وإذا كانَ خيرُ القرونِ قيل لهم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾[2] فغيرُهمْ منْ بابِ أَوْلى، ففي الأزماتِ يَميزُ اللهُ الخبيثَ منَ الطيِّب، ويبيِّنُ الصادقَ منَ الكاذب.. وهكذا تستبينُ سبيلُ المجرمين، ويطمئِنُّ لقضاءِ اللهِ وقدرهِ المؤمنون، وتسكنُ النفوسُ إذْ تعرفُ أعداءها، وتستعدُّ لمقاومتهم.

١٢- ومنَ المسكِّنات: الوقوفُ على سِيَرِ الأنبياءِ وجهادِهمْ وثباتِهم، وما تَعرَّضَ له المؤمنونَ في تاريخهم، وإدراكُ سُنَّةِ اللهِ في الابتلاءِ والحكمةِ منْ ورائها ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[3].

---

(١) وفي التنزيل: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٠، ١٤١.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٦، ١٦٧.

(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢، ٣.

إنها الذكرى والموعظةُ والتثبيتُ في قَصَصِ المرسلين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

١٣- وأخيرًا -وليسَ آخرًا- دونكمْ هذا المثبِّتُ فتدبِّروهُ والزموه، إنه حبلُ اللهِ المتينُ، وكتابهُ المبينُ، هدًى وشفاءٌ، ونورٌ وبرهانٌ بصائرُ للناس، ورحمةٌ للعالمين: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾(٣).

آهٍ على المسلمين!! كمْ ضيَّعوا كتابَ ربِّهمْ وفيهِ ذكرُهمْ وتقواهم، وسرُّ تفوُّقِهمْ ودليلُ أعدائهم، كم هجروه تلاوةً أو حُكمًا أو كليهما، وهو المنقذُ لهمْ في الأزمات، والهادي لمسيرتهمْ حين تَدْلَهِمُّ الخطوبُ وتَحْلوْ لكُ الظلماتُ، يُتلى على مسامعهمْ صباحَ مساءَ، ولكنَّ القلوبَ شاردةٌ، وكمْ يتقدمونَ بهِ في مناسباتهم، ولكنهمْ يغيبونَ عنهُ حينَ أزماتهم، يخافُ منهُ الأعداءُ ولا يُثمنُ المسلمونَ خوفَ الأعداء، إنهُ كتابٌ مفتوحٌ يقرأُ المسلمونَ فيهِ أسبابَ النصر وعواملَ الهزيمة، وسرَّ النجاحِ وأسبابَ الفشل، ومصدرَ القوةِ، ومكمنَ الخطر، ناصحٌ للمؤمنينَ ومبشرٌ لهم، ومغيظٌ للكفارِ ومتوعدٌ لهم، فهلْ يستمسكُ المسلمونَ بالذي أوحيَ إلى نبيِّهم، وهلْ يتذكرونَ أنهمْ سيُسألونَ عنه؟!

وهلْ تكونُ الأزماتُ سببًا لمزيدِ إقبالهم عليه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(٤).

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(٤) سورة محمد، الآية: ٢٤.

اللهمَّ اهدِنا بهدايةِ القرآن، واشفِنا بشفاءِ القرآن، واجعَلْهُ لنا هاديًا ودليلًا.

هذه -معاشرَ المسلمين- مُسكِّناتٌ ومسلِّياتٌ في الأزمات، وهيَ كذلك أمورٌ إيجابيةٌ في جميعِ الحالات.. إنها لا تُسْكِّنُ ولا تفتِّر، بلْ تسكِّن وتُطمئِنُ وتُثمر، وهيَ ليستْ ظنيَّةً تُصدقها التجاربُ، بلْ ثابتةً أكيدةَ المفعول.. ولكنَّ شرْطَها الإيمانُ والتصديقُ، خُذوها بقوَّةٍ، ولتكنْ سنَدًا لكم للعملِ المثمرِ في الدنيا، وزادًا للآخرة.

كم نَئِنُّ ونتناولُ منْ مسكناتٍ تمتلئُ بها صيدلياتُنا.. وربما سكَنَ الألمُ ثمَّ عاد.. لكننا قدْ نغفلُ عنْ هذهِ المسكِّناتِ الإيمانيةِ وهيَ في متناولِ أيدينا فلا يكنْ حالُنا:

كالعِيْس في البَيْداءِ يقتُلُها الظَّما والماءُ فوقَ ظُهورِها مَحْمولُ

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[3].

اذكروا اللهَ يذكركمْ، واشكروه على نعمهِ يزدْكم ولذكرُ اللهَ أكبرُ واللهُ يعلمُ ما تصنعون.

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩١.

هجمة الغرب ونصرة المظلومين في العراق[1]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَنْ يضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولهُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وارضَ اللهمَّ عنِ الصحابةِ أجمعينَ، والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

أيها الناسُ: وتمرُّ بالعالَم المعاصرِ أحداثٌ يكادُ العاقلُ لهَوْلِها وصدمتِها لا يُصدِّقُ، فبالأمسِ دولةٌ قائمةٌ، واليومَ لمْ يبقَ منها إلا الخبرُ والعبرةُ، وبالأمسِ كانتْ شعوبٌ منتظمةٌ -وإنْ كانتْ بائسةً- ولكنَّها اليومَ تعيشُ وضعًا آخرَ، لا تدري ما هيَ صانعةٌ، ولا ما يُصنعُ بها في المستقبلِ، ولا يدري المقتولُ فيمَ قُتلَ.

إنَّ حركةَ التأريخِ ماضيةٌ، وسُنةَ اللهِ في التغييرِ جاريةٌ.. والعاقلُ مَنِ اتَّعظَ بغيرِهِ، ولكنَّ المستنكَرَ -وإنْ كانَ غيرَ غريبٍ- أنْ تتعرَّضَ بلادُ المسلمينَ لغزوِ النصارى جهارًا نهارًا، وأنْ يَحْدُثَ التغييرُ بالقوةِ، وعلى مرأى العالَمِ ومسَمعِهِ، في زمنٍ باتَ يُسمَعُ كثيرًا عنْ حُرِّياتِ الآخرينَ وحقوقِ الآخرينَ، وأمْنِ الدولِ وسيادةِ الشعوبِ! ما الذي تغيّرَ فجأةً؟ وهلْ تكفي للهجمةِ تُهمةُ نزعِ أسلحةِ الدمارِ الشاملِ، ومنْ يُثبِتُ التهمةَ؟ وأينَ هيَ أسلحةُ الدمارِ الشاملِ بعدَ أنْ

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ١/ ٣/ ١٤٢٤هـ

وضعتِ الحربُ أوزارَها، ومَنْ يُحاكِمُ الجانيَ إذا لَمْ تثبتْ تهمتُهُ؟

لا شكَّ أنَّ غزوَ العراقِ سابقةٌ في التاريخِ المعاصرِ لا ينبغي أنْ تمرَّ على المسلمينَ بسلامٍ وعفويّةٍ، فالغربُ ذاتُه كانَ يتوقَّعُ ردودَ أفعالٍ صاخبةٍ، ومعَ الأسفِ كانَ استنكارُ غيرِ المسلمينَ أقوى وأبلغَ مِنَ المسلمينَ!

إننا لا نأسى على رُموزِ ظَلَمةٍ غيّبتْهمُ الأحداثُ بعدَ طولِ ضجيجٍ وإفسادٍ في الأرضِ، ولا نأسى على حزبٍ طالما أهلكَ بجَبَروتِهِ الحرثَ والنسلَ، ولكننا نأسى ونحترقُ لأمّةِ العراقِ المسلمةِ، ولشعبِ العراقِ المسلمِ، نأسى لثروةِ الأمّةِ في بلدِ العراقِ، تلكَ التي لمْ يكتفِ الغُزاةُ والمفسدونَ بعدمِ الاكتراثِ بها أرواحًا، وأموالًا، ومُقدَّراتٍ.. بلْ تطاولوا على مُقدَّراتِ الأمّةِ وإرثِها الحضاريِّ حتى قيلَ: «أحدثُ حضارةٍ تُدمِّرُ أقدمَ حضارةٍ»[1] فأحرَقوا الكتبَ، ودُمِّرتِ المكتباتُ، والتقتْ دماءُ البشرِ على مِدادِ الكتبِ، في مشهدٍ يُذكِّرُنا بهجمةِ (التّترِ) على بغدادَ حينَ اختلطتْ مياهُ الأنهارِ معَ دماءِ المسلمينَ، وتغيَّرَ لونُ الماءِ بمِدادِ الكُتبِ، ولسنا ندري لِمَ كانتْ ضجةُ الغربِ حينَ حطمتْ طالبانُ الأصنامَ؟ واليومَ يرعى الغربُ تحطيمَ آثارِ العراقِ!

لقدْ كانتْ كارثةُ الأمسِ وكارثةُ اليومِ نُذُرًا للمسلمينَ وعواقبَ إلهيةً على الغفلةِ والفسادِ والخيانةِ التي تكفي أن تقعَ منْ فئةٍ ولا تستطيعُ الفئةُ الأخرى دفْعَها وإصلاحَها، فاللهُ يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2].

أجلْ، إنَّ المتأمِّلَ في سياقِ التاريخِ يرى أنَّ أمّةَ الإسلامِ منذُ القِدَمِ مستهدفةٌ

(١) الرياض ٢٩/ ٢/ ١٤٢٤هـ.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

منْ قِبَل أعدائها، وممتَحنةٌ بهجماتٍ شرسةٍ تتابعُ عليها.. ولكنَّ أحوالَ المسلمينَ صلاحًا أو فسادًا، صدقًا أو نفاقًا هيَ الفيصلُ في رسمِ النتائجِ..

وسأقصُّ عليكمْ منْ ذاكرةِ التاريخِ عجبًا.. أمةٌ منَ النصارى تتقصَّدُ بلادَ المسلمينَ في النصفِ الثاني منَ القرنِ الخامسِ الهجريِّ، وتلتقي بالمسلمينَ في جيشٍ لَجِبٍ لا طاقةَ للمسلمينَ بهِ، ولا مقارنةَ على الإطلاقِ بينَ الجيشينِ.. ثمَّ تنتهي المعركةُ لصالح المسلمينَ، بلْ ويؤسَرُ زعيمُ النصارى، فكيفَ وقعَ، ومَعَ مَنْ وقعَ هذا؟

قالَ ابنُ الأثيرِ وعنه الذهبيُّ: في هذهِ السنةِ (٤٦٣هـ) خرجَ أرمانوسُ ملكُ الرومِ في مائتي ألفٍ منَ الرُّومِ، والفِرَنْجِ، والغربِ، والرُّوسِ، والبجناكِ، والكُرجِ، وغيرِهمْ، منْ طوائفِ تلكَ البلادِ، فجاءوا في تجمُّل كثير، وزيٍّ عظيم، وقَصَدَ بلادَ الإسلامِ، فوَصلَ إلى ملازكرد[1] من أعمالِ خِلاطَ. فبلغَ السلطانَ ألْب أرسلان الخبرُ، وهوَ بمدينةِ خُوَيّ من أذْرَبيجانَ، قدْ عادَ منْ حَلَبَ، وسمعَ ما هُوَ مَلكُ الرومِ فيهِ منْ كثرةِ الجُموعِ، فلمْ يتمكَّنْ منْ جمْعِ العساكرِ لبُعدِها وقُربِ العدوِّ، فسيَّر الأثقالَ مَعَ زوجتهِ ونظامِ المُلكِ إلى هَمَذانَ، وسارَ هوَ فيمنْ عندَهُ مِنَ العساكرِ، وهمْ خمسةَ عَشَرَ ألفَ فارسٍ، وجدَّ في السَّيرِ، وقالَ لهمْ: إنّني أقاتلُ محتسِبًا صابرًا، فإنْ سلِمْتُ فنعمةٌ منَ اللهِ تعالى، وإنْ كانتِ الشهادةُ فإنَّ ابني مَلِكْشاه وليُّ عهدي؛ وساروا.

فلمّا قاربَ العدوَّ جعلَ له مقدّمةً، فصادفتْ مقدّمتُه، عند خِلاطَ، مُقدَّمَ الروسيّةِ في نحوِ عشرةِ آلافٍ منَ الرومِ، فاقتَتَلوا، فانهزمتِ الروسيّةُ، وأُسرَ مُقدَّمُهم، وحُملَ إلى السلطانِ، فجَدَع أنْفَه، وأنفذَ بالسَّلب إلى نظامِ المُلكِ،

---

(١) وعند ياقوت والذهبي (منازكرد) «سير أعلام النبلاء» ١٨/ ٤١٥.

وأَمَرَهُ أنْ يرسلَه إلى بغدادَ، فلمّا تقاربَ العسكرانِ وتراءى الكفرُ والإيمانُ) أرسلَ السلطانُ إلى ملكِ الرومِ يطلبُ منهُ المُهادنةَ، فقالَ: لا هُدنة إلا بالرَّيِّ، فانزعجَ السلطانُ لذلكَ، فقالَ لهُ إمامُه وفقيهُه أبو نصرٍ محمّدُ بنُ عبدِ الملكِ البخاريُّ، الحنفيُّ: إنَكَ تقاتلُ عن دينٍ وَعَدَ اللهُ بنصرهِ وإظهارِه على سائرِ الأديانِ، وأرجو أنْ يكونَ اللهُ تعالى قد كَتَبَ باسمِك هذا الفتحَ، فالقَهمْ يومَ الجُمعةِ، بعدَ الزوالِ، في الساعةِ التي يكونُ الخطباءُ على المنابرِ، فإنَّهمْ يَدعُون للمجاهدينَ بالنصرِ، والدعاءُ مقرونٌ بالإجابةِ.

فلمّا كانتْ تلكَ الساعةُ صلَّى بهمْ، وبكى السلطانُ، فبكى الناسُ لبكائهِ، ودعا ودعَوْا له، وقالَ لهمْ: مَن أرادَ الانصرافَ فلْينصرفْ، فما ها هنا سُلطانٌ يأمرُ وينهى، وألقى القوسَ والنُّشّابَ، وأخذَ السيفَ والدبُّوسَ، وعَقدَ ذَنَبَ فرسِه بيدِهِ، وفعلَ عسكرُه مثْلَه، ولبسَ البياضَ، وتحنَّط، وقالَ: إنْ قُتلتُ فهذا كَفَني.

وزحفَ إلى الرومِ، وزَحفوا إليهِ، فلمّا قاربَهمْ ترجَّلَ وعفَّر وجْهَه على الترابِ، وبكى، وأكثرَ الدعاءَ، ثم رَكِبَ وحَمَلَ، وحَملتِ العساكرُ معهُ، فحَصَلَ المسلمونَ في وسطهمْ، وحَجزَ الغبارُ بينهمْ، فقَتَلَ المسلمونَ فيهمْ كيفَ شاءوا، وأنزل اللهُ نصْرَه عليهم، فانهزم الرومُ، وقُتلَ منهمْ ما لا يُحصى، حتى امتلأتِ الأرضُ بجُثثِ القتلى، وأُسرَ ملكُ الرومِ. . .، فلمّا أُحضرَ (الملكُ الروميُّ المأسورُ) ضَربَه السلطانُ ألْبُ أرسلان ثلاثَ مَقارعَ بيدِهِ، وقالَ لهُ: ألمْ أُرسلْ إليكَ في الهُدنةِ فأَبيتَ؟ فقالَ: دعني منَ التوبيخِ، قالَ: ما عزمُك لو ظفرتَ بي؟ قالَ (ملكُ الرومِ): كلُّ قبيحٍ، قالَ له ألْب أرسلان: فما تؤَمِّلُ وتظنُّ بي؟ قالَ: القتلَ، أو تُشهِّرني في بلادكَ، والثالثةُ بعيدةٌ (العفو) وقبولُ الفداءِ، قالَ لهُ أَلْب أرسلان: ما عزمتُ على غيرِها، فاشترى نفْسَه بألفِ ألفِ دينارٍ وخمسِ مائةِ

ألفِ دينارٍ، وإطلاقِ كلِّ أسيرٍ في بلادهِ منَ المسلمينَ[١].

تأمَّلوا -إخوةَ الإيمانِ- الفَرْقَ في الصدقِ معَ اللهِ، وكيفَ تتحوَّلُ القِلَّةُ الصابرةُ المحتسِبةُ إلى قوةٍ مرهبةٍ مرعبةٍ، وكيفَ يَحيقُ المكرُ السيئُ بأهلهِ، وتتفرَّقُ الجموعُ المحتشدةُ إلى قتلى وأسرى ومحزونينَ حينَ يَصْدُقُ المجاهدونَ، وتأمَّلوا -على صعيدٍ آخرَ- الفرقَ بينَ معاملةِ المسلمينَ حينَ يَنتصرون، وإنْ ظُلِموا واعتُديَ عليهمْ، فالعفوُ والتسامحُ خلافُ ما طنطنَ به غيرُ المسلمينَ في هيآتهمْ ودساتيرِهم وما طافوا بهِ العالمَ دَجَلًا وجَعْجَعةً في إعلامهمْ ولكن المسلمين تمثلوهُ واقعًا عمليًا في حياتهم.. وغيرُ المسلمينَ إذا ظفرَ أحدُهمْ فَعَلَ الأفاعيلَ وتجاوزَ الدساتيرَ، وظهرتْ جاهليتُه في العراءِ، يَنهبونَ ويَسلبونَ ويُفسدونَ ويَحرِقون، ويكيدونَ ويمكرونَ، ويُخططون بلْ يوطرون الفسادَ للمستقبل..!!

تلكَ حضارةُ الغربِ -وإن رغموا-، وتلكَ حضارةُ المسلمينَ إذا ما اتقَوْا وآمَنوا، والزَّبَدُ يَذهبُ جُفاءً، ويَمكثُ في الأرضِ ما يَنفعُ الناسَ. نفعني اللهُ وإياكم بهَدْيِ كتابهِ.



---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١٥، ٤١٦.

الخطبة الثانية:

الغربُ في العراقِ باتَ يُنفِّذُ مخطَّطاتِه، فالقواعدُ العسكريةُ تُختارُ مواقعُها ويُبدأُ بإنشائِها، والحاكمُ العسكريُّ الأمريكيُّ يصلُ بغدادَ ليشرفَ على حُكمِ العراقِ واختيار مَنْ يقومُ نيابةً عنِ الغربِ بحُكمِ العراقِ، وبدأتِ التّهمُ تُلاحقُ الموفَدَ الأمريكيَّ للعراقِ بأنهُ صاحبُ علاقاتٍ حميمةٍ مَعَ دولةِ الصهاينةِ! وسواءٌ ثبتَ هذا أمْ لمْ يثبتْ فالنظامُ الجديدُ في العراقِ لا بدَّ أنْ يكونَ متفقًا مَعَ رغباتِ اليهودِ وتطلُّعاتِهمُ المستقبليةِ في المنطقةِ.. فهذا منْ أهدافِ الغزوِ.

والغربُ وأمريكا كاذبانِ في دعوى أنَّ العراقَ للعراقيِّينَ، وسيَختارُ العراقيونَ ما يرونهُ مناسبًا لحُكم بلادِهمْ.. إنها شنشنةٌ وذرٌّ للرَّمادِ في العيونِ، بلْ يعتزمُ الأمريكانُ التدخلَ والتغييرَ في العراقِ لما يشتهونَ، (إنْ لمْ يُقاوَموا).

وقدْ أعلنَ مكتبُ مستقبلِ العراقِ! تشكيلَ لجانٍ خاصةٍ لوضعِ نظامٍ تعليميٍّ، ورُويدًا -أيُّها البسطاءُ- فلا تظنوا إصلاحًا للنظامِ التعليميِّ البعثيِّ؟ بلْ هوَ وفقَ العقيدةِ والنظرةِ الأمريكيةِ، بلْ هوَ مؤشِّرٌ على حرصِ القومِ على تغييرِ المناهجِ في البلادِ العربيةِ والإسلاميةِ عمومًا إنِ استطاعوا، ومتى ما أُتيحتْ لهمُ الفرصةُ في ذلكَ، وهذا وغيرُه جزءٌ من خَبَرِ اللهِ لنا عنهمْ:

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾(١).

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾(٢).

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾(٣).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

إنَّ على المسلمينَ أنْ يُدرِكوا حقيقةَ الهجمةِ وأهدافَ اللعبةِ، فالقومُ يتعاملونَ معَ المسلمينَ منْ منطلقاتٍ دينيةٍ، لا يقال هذا رَجْمًا بالغيبِ، ولا يُرمى بالكلامِ على عَواهنِهِ، بلْ تؤيِّدُه تصريحاتُ القومِ وتصرفاتُهمْ، ولوْ تجاوزْنا تصريحاتِ الساسةِ بالحربِ الصليبيةِ، وتجاوزْنا الهجومَ المسيسَ على الإسلامِ ورسولِ الإسلامِ ومبادئِ القرآنِ -ممّا طغى به إعلامُ القومِ- فثمَّةَ كتابانِ يحتفي الغربُ بهما، ويُمثِّلانِ المَعْلَمَ البارزَ لاعتقادِ أمريكا بأنها مسئولةٌ دينيًا عنْ نشْرِ قِيَمِ النصرانية، والكتابانِ هما:

١- «صراعُ الحضارات» لـ: (صومائيل هانتغنتون).

٢- وكتابُ «نهايةُ التاريخ» لـ: (فرانسيس فوكاياما).. ويمثّلُ الكتابُ الأخيرُ خلفيةً دينيةً عَقَديةً تؤمنُ بأنَّ الحضارةَ الغربيةَ بمثالِها الأمريكيِّ الحضارةُ التي يرتضيها الربُّ لنهايةِ العالمِ[١].

بلْ يؤمِنُ الغربُ -وفي مقدّمتهِ أمريكا- أنه الوصيُّ في تحقيقِ الشروطِ اللّاهوتيَّةِ لنزولِ المخلِّص -في نَظَرِهمْ-، وهذهِ النظرةُ تبدأُ بحمايةِ أمنِ إسرائيلَ ومعاقبةِ مَنْ يُهدِّدُها.. وتنتهي هذهِ النظرةُ الدينيةُ المتطرِّفةُ -في نظرِ القومِ- بمعركةِ (هرمجدونَ) التي تضمنُ نهايةَ العالمِ بانتصارِ المؤمنينَ وإبادةِ الكافرينَ، ويمثِّلُ احتلالُ العراقِ -حسبَ نبوءاتِهِمْ- أولَ مبشِّراتِ هذهِ المعركةِ الإنجلويهودية.

فهلْ يا ترى يتعاملُ المسلمونَ مَعَ خصمِهمْ بناءً على نظرتهمْ وعقيدتِهِمْ. أمْ ترى العدوُّ ينجحُ في التضليلِ والخداعِ سائرًا في مخطَّطِهِ مُستهترًا بمَنْ حولَه؟

تُرى متى يُفيقُ المسلمونَ فيواجهونَ الحربَ بحربٍ مثلها، يقابلون العقيدةَ

---

(١) سليمان الربعي، أحداث العراق.. الرياض ١٧/ ٢/ ١٤٢٤هـ.

المنحرفةَ بالعقيدة الصحيحةِ، ويواجهون العدّةَ الحربيةَ بمثلِها ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾(١)، ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾(٢).

إنَّ منَ المؤسفِ أنَّ القومَ يصدِّرونَ لنا العَلْمَنةَ ويتعاملونَ مَعَ قضايانا بالعقيدةِ الإنجيليةِ.. يريدونَ تشويه إرثِنا الحضاريِّ، وهمْ في المقابلِ باتُوا يبحثونَ عنْ إرثِهمْ ويتكئونَ عليه في حروبِنا، ولئنْ كانتِ النهايةُ للحقِّ والمحقِّينَ، فلا ينبغي أنْ نكونَ- معاشرَ المسلمينَ- بجهلِنا وتخلُّفِنا فتنةً للكافرين.



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٥.

لماذا وكيف ندفع الفتن؟[(١)]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومنْ يضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وارضَ اللهمَّ عن الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

أيُّها المسلمون: عظَّمَ الإسلامُ أمرَ الفتنِ، وحذَّرَ المصطفى ﷺ منْ آثارِها، وأرشدَ إلى المخرجِ منها بالمبادرةِ للأعمالِ الصالحةِ فقالَ: «**بادِرُوا بالأعمالِ فِتَنًا كقِطَعِ الليلِ المظلمِ، يصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا، يبيعُ دِينَه بعَرَضٍ منَ الدنيا**»[(٢)].

رُوي عنِ الحسنِ أنهُ قالَ في هذا الحديثِ: «**يصبحُ الرجلُ مؤمنًا**» يعني: مُحرِّمًا لدمِ أخيه وعِرْضِه ومالِه، ويُمسي مُستحلًّا[(٣)].

وما زالَ العلماءُ يُحذِّرونَ منَ الفتنِ حتى بوَّبَ أهلُ الحديثِ في كتابِ (الفتنِ): (بابَ الاعتزالِ في الفتنةِ)، وبه ساقُوا حديثَ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يوشكُ أنْ يكونَ خيرُ مالِ المسلمِ الغَنَمَ، يتَّبعُ بها شَعَفَ الجبالِ، ومواقعَ القَطْرِ، يَفرُّ بدِينِه منَ الفتنِ**»[(٤)].

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٢٩/ ٣/ ١٤٢٤هـ.

(٢) أخرجه مسلم ٢/ ١١٨.

(٣) نقله البغوي في «شرح السنة» ١٥/ ١٥.

(٤) أخرجه مالك والبخاري وغيرهما (شرح السنة ١٥/ ٢١).

أجلْ يا عبادَ اللهِ! إنَّ دِينَ المسلمِ عزيزٌ عليهِ، ويَنبغي أنْ يجتهدَ أنْ يَلقى اللهَ وهُوَ غيرُ مفتونٍ، وأنْ يجاهدَ نفْسَهُ بالحذرِ منَ الفتنِ، وهنا تَرِدُ أسئلةٌ ثلاثةٌ، وأجتهدُ في الإجابةِ عنها:

١- لماذا نَحذَرُ ونُحذِّرُ منَ الفتنِ؟

٢- ومَنْ يُسهِمُ في إشعالِ فتيلِ الفتنِ؟

٣- وكيفَ نُساهمُ في دفعِ الفتنِ؟

تلكَ أسئلةٌ ثلاثة أكتفي بعرضِها، وإنْ كانَ ثمَّةَ أسئلةٌ أُخرى لا تقلُّ أهميةً عنها، ولعلَّ اللهَ أنْ يُيسِّرَ لعرضِها والإجابةِ عنها.

أمّا: لماذا نَحْذَرُ ونُحذِّرُ منَ الفتنِ؟

فالعالِمونَ والعارفونَ والعقلاءُ يحذِّرونَ منْ وقوعِ الفتنِ؛ لأنهمْ يُقدِّرونَ ما بعدَها، ويتخوَّفونَ ممّا تصيرُ إليهِ في بَدْئِها أو منتهاها، بعكسِ الجَهلةِ ومَنْ تغلِبُ عواطفُهمْ عقولَهمْ، ولا يتحسَّبونَ للعواقبِ.

ولهذا أخرجَ البخاريُّ في «صحيحِهِ» في بابِ «الفتنة» التي تموجُ كموجِ البحرِ». . . : وقالَ ابنُ عيينةَ عن خلفِ بنِ حَوْشَبٍ: كانوا يستحبُّونَ أنْ يتمثَّلوا بهذِهِ الأبياتِ عندَ الفتنِ، قالَ امرُؤ القيسِ:

الحربُ أولُ ما تكونُ فتيَّةً ... تَسْعَى بزينتِها لكلِّ جَهُولِ
حتَّى إذا اشتعلتْ وشبَّ ضِرامُها ... ولَّتْ عجوزًا غيرَ ذاتِ حَليلِ
شمطاءَ يُنكَرُ لونُها وتغيَّرتْ ... مكروهةً للشمِّ والتقبيلِ[1]

قال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ: والمرادُ بالتمثلِ بهذِهِ الأبياتِ استحضارُ ما شاهَدُوهُ

(١) الصحيح مع الفتح ١٣/ ٤٧ بكتاب الفتن.

وسمعوهُ منْ حالِ الفتنةِ، فإنهمْ يتذكَّرونَ بإنشادِهِمْ ذلكَ، فيصدُّهم عنِ الدخولِ فيها حتى لا يغترُّوا بظاهرِ أمرِها أولًا[١].

ونعودُ لإجابةِ السؤالِ: (لماذا نحذر الفتنَ؟) فنقولُ: لعدّةِ أمورٍ، منها:

١- لأنَّ الفتنَ توقعُ الفرقةَ والاختلافَ بينَ المسلمينَ، فيضعفُ حَبلُ الإخاءِ، وتضمرُ ميادينُ التعاونِ على البرِّ والتقوى، واللهُ أَمَرَنا بالتعاونِ على الخيرِ، وأوصانا بالأخوّةِ والإصلاحِ، ونهانا عن الفُرقةِ والاختلافِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

٢- ولأنها سببٌ لاختلاطِ الأوراق، وتدسسِ أهلِ الرِّيَبِ، وبُروزِ النفاقِ، وهيَ أجواءٌ للمنافقينَ الذين يسعَوْنَ في الأرضِ فسادًا بلهجةِ الناصحينَ المصلحينَ.

وإذا كانتِ الأمورُ في أيامِ (الفتنةِ الأُولى) في زمنِ الصحابةِ كانَ لها وقعُها وأثرُها في تصدُّعِ الأمّةِ وذهولِها إلى حدٍّ توقفَ معهُ سَيرُ الفتوحِ الإسلاميةِ في ظلِّ تلكَ الأزمةِ، وجيلُ الصحابةِ لا يزالُ موجودًا، فما الظنُّ بغيرِهمْ؟

٣- والفتنُ تُشغِلُ عنِ العبادةِ والطاعةِ، وتشلُّ حركةَ الاحتسابِ والدعوةِ، إذ الناسُ في شُغلٍ شاغلٍ ونَصَبٍ دائبٍ، وتفكيرٍ بالمُصاب الأعظمِ (الفتنِ وأطرافِها)، والنفوسُ متوترةٌ، والقلوبُ مشحونةٌ، والتوجُّسُ والرِّيبةُ تحلُّ محلَّ الثقةِ والطمأنينةِ.. وهذا بلا شكٍّ يُخلِّف آثارًا سلبيةً لا سيَّما على العبادةِ والدعوةِ.

٤- وفي المقابلِ ففي أجواءِ الأمنِ والسِّلمِ يمتدُّ رِواقُ الإسلامِ، وتُنشَرُ

---

(١) «الفتح» ١٣/ ٥٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

الدعوةُ، ويتقاربُ الناسُ، والكسبُ الأكبرُ للإسلامِ وأهلِهِ إذا صدقوا في دعوتِهمْ ونشرِ إسلامِهِمْ، ومَنْ تأمَّلَ أحداثَ السيرةِ النبويةِ وَجَدَ ما يُصدِّقُ هذا ويشهدُ لهُ.

ففي (صلحِ الحُدَيبيةِ) أبرمَ النبيُّ ﷺ مَعَ المشركينَ (معاهدةَ الحديبيةِ) وفقَ شروطٍ لمْ يرضَ عنها طائفةٌ منَ المؤمنين في البدايةِ، حيثُ بدا لهمْ أنَّ الشروطَ مُجحفةٌ للمسلمينَ، وهي لصالح المشركينَ، حتى قالَ عمرُ رضي الله عنه للنبيِّ ﷺ: ألستَ نبيَّ اللهِ حقًّا؟ قالَ: «**بلى**»، قالَ: ألسْنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطلِ؟... فلِمَ نُعطي الدنيّةَ في دينِنا إذًا؟ قالَ: «**إني رسولُ اللهِ، ولستُ أعصيَه، وهُوَ ناصري**».

ومَعَ ذلك كانَ الصلحُ بشهادةِ القرآنِ فتحًا مُبينًا، حيثُ نزلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1] والرسولُ ﷺ في طريقِ العودةِ منَ الحُدَيبيَة إلى المدينةِ، قال عمرُ متعجِّبًا: أَوَفتحٌ هُوَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: نَعمْ»[2].

قالَ الزهريُّ رحمه الله معلِّقًا على نتائجِ (صلحِ الحديبيةِ): فما فُتحَ في الإسلامِ فتحٌ قبْلَه كانَ أعظمَ منهُ، إنما كانَ القتالُ حيثُ التقى الناسُ، فلمّا كانتِ الهدنةُ ووَضعتِ الحربُ أوزارَها، وآمنَ الناسُ بعضُهمْ بعضًا، والتقَوْا فتفاوَضُوا في الحديثِ والمنازعةِ، فلمْ يُكلَّمْ أحدٌ بالإسلامِ بعقلٍ إلا دخلَ فيهِ، ولقدْ دخلض في تينِكَ السنتينِ مثلُ مَنْ كانَ في الإسلامِ قبلَ ذلكَ[3].

وعلَّقَ ابنُ هشامٍ على هذا قائلًا: والدليلُ على قولِ الزهريِّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ

(١) سورة الفتح، الآية: ١.

(٢) رواه مسلم ٣/ ١٤١٢ ح «١٧٨٥».

(٣) ابن هشام، بسند حسن ٣/ ٤٤٧.

خرجَ إلى الحديبيةِ في ألفٍ وأربع مائةٍ في قولِ جابرٍ، ثمَّ خرجَ في عامِ الفتحِ بعدَ ذلكَ بسنتينِ في عشرةِ آلافٍ[١].

٥- أنَّ الفتنَ -إذا وقعتْ- تُفرحُ العدوَّ المتربِّصَ (في الخارج أو في الداخلِ) منَ الكفار أو منَ المنافقينَ، وتُتيحُ لهُ الفرصةَ وتُهيِّئُ لهُ الأجواءَ المناسبةَ للغارةِ على المسلمينَ وبَلْبلتِهِمْ مستغلةً انشغالَ المسلمينَ بما هُمْ فيهِ منْ أجواءِ الفتنِ، فتُمرَّرُ كثيرٌ منَ الأمورِ السيئةِ على حينِ غفلةٍ وتُقرَّرُ موادُّ الفسادِ، ويَشيعُ أهلُ الريبِ والفسادِ والفحشاءِ والمنكرِ، إذِ الحرّاسُ مشغولونَ، والمحتسِبونَ المطفِئِونَ للحرائقِ منهمكونَ في دفعِ الفتنِ النازلةِ.. وهكذا يَحصلُ منَ الضررِ والفسادِ ما يَسوءُ المؤمنينَ ويُفرحُ المتربِّصينَ.. ولا بدَّ منْ وعيِ هذا جيدًا والتعوُّذِ منَ الفتنِ ودفعِها.

٦- والفتنُ إذا استعرتْ مُناخٌ لظهور الطائفيّةِ والتعصُّبِ المنبوذِ، ويتخذُها أرقّاءُ الدِّينِ مناسبةً لتصفيةِ الحساباتِ وتحقيقِ الثاراتِ، فالحريقُ يمتدُّ هنا وهناكَ، والدعواتُ والنَّعراتُ الجاهليةُ تنشطُ، ويظهرُ الحسدُ والحقدُ والكيدُ والعدوانُ، وهكذا حينَ يغيبُ العقلُ، وتكونُ لغةُ القوةِ هيَ لغةَ التفاهمِ، ويغيبُ الحوارُ الهادئُ والإقناعُ بالحجّةِ والبرهانِ، والدعوةُ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، فهلْ يَرضى عاقلٌ.. فضلًا عنْ صاحبِ الدِّينِ بهذا الواقعِ؟!

إخوةَ الإسلام: مَنْ يُسهمُ في إشعالِ الفتنِ؟

وبعدَ الإجابةِ عنِ السؤالِ الماضي: لماذا نَحْذَرُ ونُحذِّرُ منَ الفتنِ؟ يَرِدُ سؤالٌ آخرُ، لا يقلُّ أهميةً، وهُوَ كذلكَ محتاجٌ إلى إجابةٍ. والسؤالُ الآخرُ يقولُ: مَنْ

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٤٨)، مهدي رزق الله، «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» ص٤٩٦.

يُسهمُ -مِنْ حيثُ يَشعُر أوْ لا يشعرُ- في إشعالِ الفتنِ؟

وللإجابةِ أسوقُ رأيَ يُروى عنْ عمرَ ﷺ حيثُ قالَ: قَصَمَ ظهري رَجُلانِ: فاجرٌ مُتهتِّكٌ، وجاهلٌ مُتنسِّكٌ.

وإذا كانَ الجاهلُ المتنسِّكُ يضرُّ بالدِّينِ ويُسيءُ للمسلمينَ منْ حيثُ يَشعُرُ أو لا يشعرُ.. والحديثُ عنْ هذا الصنفِ كثيرٌ؛ فدعُونا نكتفِ بالصنفِ الآخر:

فلا شكَّ أنَّ الفاجرَ المتهتِّكَ باعثٌ للفتنةِ، لا سيِّما إذا جاوزَ في تهتُّكِهِ محيطَهُ القريبَ، وسلوكياتِهِ الشخصيةَ، إلى الدعوةِ على فجورِهِ، والمدافعةِ عنْ باطلهِ، ورميِ الآخرينَ بالتُّهمِ.. كمَنْ يرمي بيوتَ الآخرينَ وبيتُه منْ زُجاجٍ.. إنَّ التطرفَ -بمفهومِهِ الواسعِ- لا يقفُ عندَ حدودِ (الغلوِّ في الدينِ)، فهذا، وإنْ كانَ خطيرًا، فالشقُّ الآخرُ للتطرُّفِ هُوَ (الغلوُّ في الجفاءِ)، والمبالغةُ في الفسادِ، ومحاولةُ إسقاطِ القِيَمِ، والرغبةُ في التنصُّلِ منْ تكاليفِ الشريعةِ، واعتبارُ حدودِ الإسلامِ ومُثُلِهِ قيودًا لا بدَّ منْ تحطيمِها والخلاصِ منها.. إنَّ هذه السلوكياتِ الجائرةَ على النفسِ وعلى الآخرينَ تُحرِّكُ الساكنَ، وتستفزُّ المشاعرَ وتوسِّعُ دائرة الحريقِ، وربَّما دفعتْ مَن قلَّ عِلْمُه أو ضَعُفَ صبرُه إلى تصرفاتٍ لا تُقرُّ ولا تُقبلُ، وتُضِرُّ ولا تُبرَّرُ.

إننا لا بدَّ أنْ نستشعرَ جيدًا أنَّ التطرفَ (ضدّ الدِّينِ) كالتطرفِ الدينيِّ، في الإضرارِ بوحدتِنا وأَمْنِنا، والاعتدالُ ودراسةُ الأمورِ برويّةٍ بعيدًا عنْ ردودِ الأفعالِ هيَ الكفيلةُ بوصولِنا- بإذنِ اللهِ- إلى شاطئ الأمانِ، وذلك بعلاجِ الخطأِ دونَ أنْ يؤدِّيَ العلاجُ إلى داءٍ جديدٍ[1].

وإذا كنا لا بدَّ أنْ نكونَ صرحاءَ في رفضِ الغلوِّ في الدِّينِ، ورفضِ لغةِ القوةِ

---

(١) د. عائض الردادي: جريدة الجزيرة ٢٥/ ٣/ ١٤٢٤هـ.

والتدميرِ والإفسادِ وقتلِ الأنفسِ المعصومةِ، والتأكيدِ على أنَّ ذلكَ بوابةٌ للفتنِ. . فلا بدَّ أنْ نكونَ صُرحاءَ كذلكَ في رفضِ فجورِ المتهتِّكينَ. . الذينَ دأبوا على الإرجافِ والتصيُّد في أجواءِ الفتنِ، فما أنصَفوا مناهِجَنا، بل عابُوها واتَّهموها، ونسَبُوا إليها كلَّ قبيحٍ، ومناهجُنا، وإنْ كانتْ منْ جُهدِ بشرٍ يصيبونَ ويخطئونَ، إلا أنها- وبشهادةِ الآخرينَ- منْ أعدلِ المناهجِ وأقومِها، وهيَ تجمعُ بينَ الأصالةِ والمعاصرةِ، ولكنَّ القومَ طالما شَرِقُوا بهذهِ المناهجِ وطالَبُوا بتغييرِها لا تطويرِها، وركَّزوا على المناهجِ الدينيةِ أكثرَ منْ غيرِها، وكلَّما حدثَ أمرٌ صاحُوا مُتستِّرينَ وراءَ الحدثِ لتجديدِ الدعوةِ للهجومِ على المناهجِ، ولكنَّ حكمةَ المسئولِ، ووعيَ المربِّي، وأناةَ المتخصِّصينَ في المناهجِ وقناعتَهمْ بأهميةِ التطويرِ المتعقِّل والمدروسِ بوعيٍ لا بهوًى. . كلُّ ذلكَ يجعلُ هذهِ الدعواتِ في مهبِّ الريحِ، وما سلمتْ مؤسساتُنا التربويةُ وهيآتُنا الاحتسابيةُ منْ هجومِ هؤلاءِ وصُراخِهمْ، وكأنَّ هذهِ الجهاتِ الرسميةَ نشازٌ في مؤسساتِنا الحكوميةِ، يتَّهمونَ المعلمَ والمعلمةَ داخلَ فصولِهمُ الدراسيةِ، ويستكثرونَ منهمُ الدعوةَ في مدارسهمْ ويستغربونَ إذْ يوجِّهونَ طلاَبهمْ ويَلمِزونَ المطَّوِّعينَ منَ المؤمنينَ في الدعوةِ والحِسْبةِ، ويَسخرونَ بمظاهرِ التديُّن، وتُغيظهمُ الصحوةُ، ويَسلمُ منهمُ الشبابُ الضائعونَ في المخدِّراتِ والانحرافاتِ الخُلقيةِ، ويتطيَّرونَ بالمتديِّنينَ منَ الرجالِ والنساءِ، وما سَلِمَ مِنْ أذاهمُ العلماءُ وأصحابُ الدعوةِ الموتى، وأنَّى للأحياءِ، وهمْ يُعيدونَ للأذهانِ مَنْ تطيَّرَ قبْلَهمْ بالصالحينَ، حيثُ قالَ اللهُ عنْ آلِ فرعون: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[1]، ولكلِّ قومٍ وارثٌ[2].

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

(٢) الشيخ صالح الفوزان، «التفجيرات وتحليلات المنافقين»، الجزيرة ٢٥/ ٣.

لقدْ تحدَّثَ هؤلاءِ الجاهلونَ عنِ الولاءِ والبَراءِ فما أحسَنوا، وعنِ الجهادِ فأساءوا، وتلمَّسوا الأعذارَ للضالِّينَ، واشتطُّوا في نظرتِهمْ لإخوانِهمُ المسلمينَ، ووَقعوا بأعظمَ ممّا عابُوا!

أتُراهمْ يطمعونَ إلى تغييرِ هُويةِ المجتمعِ المحافظِ بمثلِ هذهِ الطروحاتِ؟

أجَهِلوا أنهمْ في بلادِ الحرمَيْن منبعِ الرسالةِ ومصدرِ الهدايةِ ومَعقلِ الدعوةِ؟ القرآنُ نزلَ فيها، ومحمدٌ ﷺ بُعثَ منْ بطاحِها فالإسلامُ والدعوةُ جذورُها وعمقُها التاريخيُّ، وهو مفخرةٌ لأهلِها. لقدْ خابَ وخَسِرَ مَنْ حاربَ دينَ اللهِ أوْ سَخِرَ بشيءٍ ممّا جاءَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ.

تُرى منْ أيِّ بيئةٍ نَهلوا هذا الفكرَ الجانحَ؟ وإلى أيِّ جماعةٍ ينتمونَ ويَركنونَ في هذا الهجومِ الكاسحِ؟ ومجتمعُنا -بحمدِ اللهِ- يمثِّلُ الدِّينُ لُحمتَه، ويَشعرُ الذكرُ والأنثى بالعزةِ إذْ ينتمي للإسلامِ ويتمثَّلُ تعاليمَ الإسلامِ، أجلْ لقدْ قامَ هذا الكيانُ الذي نعتزُّ بهِ على أساسٍ متينٍ منَ الدِّينِ والعلمِ والقِيَمِ، وتعاقدَ الشيخُ (المجدِّدُ) والأميرُ (الإمامُ) على قيامِ الدولةِ، فتأسَّستِ الدولةُ السعوديةُ الأُولى، ثمَّ أعادَ الأحفادُ في الدولةِ السعوديةِ الثالثةِ ما بناهُ الأجدادُ، ولا يزالُ الحديثُ في كلِّ مناسبةٍ عنْ قيمةِ العقيدةِ، وتحكيمِ الشريعةِ، والعزةِ بالإسلامِ، فكيفَ تسلَّلتْ إلينا أفكارُ العَلْمَنِة؟!

إذا كانتْ تلكَ بعضَ استفزازاتِ القومِ وطروحاتِهم فمَنْ وراءَهم؟ إذا كانَ ولاةُ الأمرِ يتحدَّثونَ بكلِّ صراحةٍ حديثًا غيرَ أحاديثِهم ويُدافعونَ عنِ الجهاتِ المستهدفةِ ويُعلُونَ منْ شأنِها، وأنَّ فصلَ الدِّينِ عنِ الدنيا في بلادِنا أمرٌ غيرُ واردٍ- إلى غيرِ ذلكَ مما جاءَ على لسانِ وزيرِ الداخلية[1] -وفَّقه الله- وغيرِهِ من

(١) جريدة الرياض، الجزيرة وغيرها، الصادرة في ١٨/ ٣/ ١٤٢٤.

مسئولي الدولةِ فمَنْ يُسندُ هؤلاءِ المتطاولِينَ المتّهَمينَ المُرجِفينَ؟

إننا نُسَرُّ لمحاسبةِ كلِّ مخطئٍ أيًا كانَ موقعُهُ، ومهما كانَ اتجاهُه وفكرُهُ.. ولكنَّ إقالةَ صحفيٍّ تجاوزَ حدودَ مسئوليتِهِ، أوْ مَنْع كاتبٍ شذَّ قلمُه.. ليستْ حلًّا أمثلَ لعلاجِ هذهِ الظاهرةِ المثيرةِ التي تتكرَّرَ بلاؤُنا بها، ولا تكفي لقطعِ دائرِ الفتنةِ المُهيِّجةِ، فالصحفيُّ المُعفى قدْ يَخلُفُه منْ هُوَ مثلُه أوْ أكثرُ منهُ جُنوحًا، والكاتبُ الممنوعُ قدْ يحلُّ محلَّهُ كاتبٌ أكثرَ إثارةً وتهيجًا.. ولكن الحلَّ يَكْمُنُ في نظري في وضعِ أُطُرٍ عامّةٍ لا ينبغي المساسُ بها تتعلَّقُ بالقيَمِ والأخلاقِ وكراماتِ الناسِ وحقوقِهِمْ، تمنعُ السخريةَ واللَّمْزَ، وتسدُّ البابَ على المتصيِّدينَ والمتطاولينَ، وتوضَعُ عقوباتٌ رادعةٌ ولجانٌ متابعةٍ منصفةٌ، تمنعُ كلَّ ما يثيرُ الفتنَ ويدعو للفرقةِ والشحناءِ ويُخلُّ بأمنِ البلدِ الفكريِّ والثقافيِّ والاجتماعيِّ والقِيَميِّ، ثمَّ تُعطى الفرصةُ للعلاجِ الهادئ المثمرِ الناجحِ الأمينِ.. ذلكَ مخرجٌ مهمٌّ منْ مخارجِ الأزمةِ، وبدايةُ طريقٍ صحيحٍ لمعالجةِ كلِّ ظاهرةٍ غاليةٍ أو جافيةٍ، وثمَّةَ مخارجُ لدفعِ الفتنِ بشكلٍ عامٍّ، أتوقَّفُ عندَ شيءٍ منها.

إذا كانت آثار الفتن تعم ولا تخص ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] فدفع الفتن مسئوليتنا جميعًا، ويمكن أن نساهم في دفعها بالوسائل التالية:

١- تعليم العلم النافع ونشره، فالعلم مُبصرٌ للناس ومانع لهم من الفتن بإذن الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

٢- التحذير من الفتن وآثارها وويلاتها، والنصح لإخواننا المسلمين على كافة المستويات (فالدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم).

٣- الاستمرار في مشاريع الدعوة والاحتساب.. فبنشر الدعوة ينتشر الخير، وينشغل الناس بالنافع المفيد، وتصح القلوب، وتقمع الشرور والفتن، وبالحسبة يحاصر المبطلون وتنطفئ المنكرات، ويشيع المعروف، وتُخفف آثار الفتن.

٤- عدم التعجل في الفتن (قولًا وعملًا) استرشادًا بهدي النبي ﷺ إذ يقول: «ستكون فِتن القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، من تشرّف لها تستشرفه، فمن وجد منها ملجًا أو معاذًا فليعُذ به» رواه البخاري رحمه الله ٧٠٨١ (الفتح ١٣/ ٣٠).

٥- المساهمة في الإصلاح حيث يقع شيء من الفتن، وتقريبُ وجهات النظر، وردم هوَّة الخلافِ، فالخلافُ شر، والله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

ويقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

٦- التنبيه للمتربصين، والتفطن لمن يسعون بالفتنة أو يحاولون استغلالَ أجوائِها لبث شرورهم وباطلهم. فذلك مطلب حتى لا تتسع الفتنة وتعمّ البلبلة.

٧- تبصيرُ الناس بأحاديث الفتن والموقف المشروع منها، وعدمُ التعجل في تطبيق بعض الأحاديث العامة في الفتن، وتنزيلها على أحداث خاصة -دون علم.

٨- التأكيد على أهمية الوحدة والائتلاف وبيان النصوص الشرعية في ذلك، حتى ولو أدى إلى أن يتنازل المرء في سبيل ذلك عن بعض ما يُحبّ -ما لم يكن حرامًا- في سبيل توحيد كلمة المسلمين ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].

والخلافُ شر، والشيطانُ يئس أن يعبدَ في أرضكم ورضى بالتحريش بينكم. «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».

٩- دعوة الناس إلى كثرة العبادة، وتذكيرهم بقيمة التوبة، فما وقع بلاء إلا بذنب ولا رُفع إلا بتوبة ﴿يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]. «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم..**» «**العبادة في الهرج كهجرة إليّ**» ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

١٠- المشورة بين العلماء وطلبة العلم والدعاة لدفع الفتن، والنصح للولاة لتجنيب البلاد والعباد آثار الفتن وويلاتها، فالمسلمون أمرهم شورى بينهم، والدين النصيحة، ولا بد من رفض إعجاب كل ذي رأي برأيه، ولا بد من اتهام النفس وتوطينها لقول الحق وقبوله ممن جاء به.

١١- وعماد ذلك وأساس المخرج من الفتن تحقيق التقوى، والتواصي بالصبر ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].



الصلاة بين الأداء والإقامة
وصايا وتنبيهات[1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله أمرَ بالعدلِ والإحسانِ ونهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ والإثمِ والعدوانِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، جعلَ الصلاةَ على المؤمنينَ كتابًا موقوتًا، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ وخِيرتُهُ منْ خَلْقِه جُعلتْ قرةُ عينِهِ في الصلاةِ، وكانَ إذا حزبَهُ أمرٌ فزعَ إلى الصلاةِ، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلين.

أيها المسلمونَ: الإنسانُ في خِضَمِّ مُعْترَكِ الحياةِ، ومكافحةِ همومِ القَلَقِ والضَّجرِ، والضِّيقِ والكَدَرِ يحتاجُ حاجةً مُلحَّةً إلى ما يُنفِّسُ عن مشاعرِه، ويُفرِّجُ من لأوائه ومصائبه، ويبعث في نفسِه وقلبِه الطمأنينةَ والراحةَ- ومهما كدَّ وجدَّ فلن يجدَ ملاذًا غيرَ الله، يدعوهُ ويأنسُ به، ويرجوهُ ويلوذُ بحماهُ، ويعبدُه ويُلقي بهمومِهِ ويشكو أمرَه وحوائجَهُ إليهِ، فهوَ الذي يُجيبُ المضطَّر إذا دعاهُ، ويكشفُ السوءَ، وهو وحدَه الذي يُفَرُّ منه إليه.

ألا إنَّ من أعظمِ العباداتِ التي تحقِّقُ هذا كلَّه (الصلاةُ).. وكمْ نحنُ بحاجةٍ على الدوامِ أن نتذاكرَ قيمةَ الصلاةِ وقدرَها، وبرَّها وأثرَها، وأسبابَ قبولِها، والمعوِّقاتِ دونَ إقامتِها وتمامِها، ولماذا خفَّ أثرُها في حياتِنا؟

عبادَ الله: الصلاةُ سِيما الأنبياءِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[2].

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٦/ ٤/ ١٤٢٤هـ.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

وبها أُوصي الأنبياءُ ووصَّوْا ووصَّى الحكماءُ: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾(١).

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٢)، ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾(٣)، ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(٤).

وهي قرينةُ الإيمانِ وعلامةُ المؤمنينَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾

وبها يُعرفُ قَدرُ الرجالِ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾(٥).

إنَّها عَهدٌ وميثاقٌ وفرضٌ في الكتابِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾(٦) والعهدُ الذي بينَنا وبينَهم الصلاةُ، وهي ناهيةٌ عن الفحشاءِ والمنكرِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(٧).

وبها عَوْنٌ واستعانةٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾(٨).

أيها الناسُ: والصلاةُ ميزانٌ للتقى أو الفجور، وكاشفةٌ للإيمانِ أو النفاقِ، وهي لوحةٌ كاشفةٌ لتفاوتِ الإراداتِ والهِمَمِ.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣١.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٣) سورة مريم، الآية: ٥٥.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٥) سورة النور، الآية: ٣٧.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٧) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٨) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

أجلْ، إنه لا يتكرَّرُ في الإسلام مثلُها . . في الليلِ والنهارِ، وفي اليقظةِ وبعدَ المنامِ في الشتاءِ والصيفِ، والسفرِ والحَضَرِ، والسِّلمِ والحربِ، والصحةِ والمرضِ، وعلى الغنيِّ والفقيرِ، والصغيرِ والكبيرِ، والذكرِ والأنثى، والحرِّ والعبد . .

ومنْ هنا كانتْ ميزانًا للإيمانِ المستمرِّ، والإرادةِ المتجدِّدة، والهمَّةِ العاليةِ، إن نفرًا من المسلمين علت هممُهم، فكانت الصلاةُ همَّهمْ، وتعلقَتْ في المساجد قلوبُهمْ لا يُفقدونَ في وقتٍ، ولا يتأخَّرونَ عن الجماعةِ، وإذا ما فُقدوا عَلِمَ إخوانُهمْ أنهمْ مسافرونَ أوْ مرضىَ، إذا حضرَتْهمُ الصلاةُ كانَ الخشوعُ وكانَتِ السكينةُ، وإذا خرجُوا من المسجدِ كانَ الصدقُ وحسُنُ الخلقِ، وكانَ العفافُ والتقى آثارًا خلَّفْتها الصلاةُ؛ فيهِمْ صدقٌ معَ اللهِ وحسنُ تعاملٍ معَ خَلْقِ اللهِ أولئكَ أصحابُ القَدَحِ المعَلَّى، وأولئكَ أهلُ الصلاةِ حقًا وأولئكَ همُ المفلحونَ، وأولئكَ لا خَوْفٌ عليهِمْ ولا همْ يحزَنونَ.

ونفرٌ آخر يُصلونَ حينًا وينقطعونَ حينًا، تراهُمْ يكثرونَ في حالِ قيامِهِمْ ولكنَّهمْ كثيرًا ما يتخلَّفونَ إذا ناموا . . وصلاةُ الفجرِ والعصرِ ثقيلةٌ عليهم، والتبكير للصلاة ليسَ عادةً مستمرةً لهم، والقضاءُ ونقرُ الغرابِ سمةٌ تكادُ تكونُ بارزةً فيهم، يَغيبُ عنهُمُ الخشوعُ حالَ الصَّلاةِ ويضعفُ أثرُ الصلاةِ في حياتهِمْ وفي التعاملِ مع إخوانهِمْ خارجَ الصَّلاةِ، أتلكَ هيَ الصلاةُ التي أُمِرَ بها المسلمونَ . . أفهكذا يُؤدَّى الركنُ الثاني من أركانِ الإسلام؟

أما علمَ أولئكَ أنَّ أسوأَ الناسِ سَرِقةً الذي يَسرقُ مِنْ صَلاتِهِ؟[1]، أَمَا يَخشَى أولئكَ المفرِّطونَ في شأنِ الصَّلاةِ والساهونَ عَنْها أنْ يكونوا ممَّنْ قالَ اللهُ فيهمْ:

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٣١٠).

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أيرضى المسلمُ أن يخرجَ من صلاتِهِ وما كُتبَ له إلا القليلُ منْها.. رُبعُها أو خُمسُها أو عُشْرُها؟ أوَيرضى مصلٍّ أنْ تُلفَّ صلاتُهُ بثوبٍ خَلْقٍ ثم يُرمَى بها تقولُ: ضيَّعكَ اللهُ لِمَ ضيَّعتَني.

منْ قالَ أنَّ الصَّلاةَ قالبٌ بدونِ قلبٍ، حركاتٌ دونَ خُشوعٍ؟ عادةٌ لا عبادةٌ، صورةٌ لا حقيقةٌ، كلا- إنها رُوحٌ وراحةٌ «**أرِحْنا بها يا بلال**» وهي عروجٌ بالقلبِ والروحِ إلى السماءِ في اليومِ والليلةِ خمسَ مراتٍ، فضلًا عن النوافلِ، إنَّها تسبيحٌ وتكبيرٌ وتهليلٌ، وتعظيمٌ وتقديسٌ ودعاءٌ، وقوفٌ بين يَدَيِ اللهِ، رغبة ورهبة، تلاوةٌ للقرآنِ وتعظيمٌ للرحمنِ، انقطاعٌ عنِ الحياةِ والخَلْقِ، واتصالٌ بالخالقِ وقربٌ من الآخرةِ.. كمْ تغيبُ هذه المَعاني عنْ أعدادٍ منَ المسلمينَ المصَلِّينَ ويغيبُ معها أثرُ الصلاةِ في حياتهم.

أَما الذينَ لا يُصَلُّونَ فأولئكَ لهمْ شأنٌ آخرُ وحديثٌ آخرُ.

لا تستَغْربوا إنْ بلغَ المسلمونَ منَ الذلِّ ما بلغُوا وهمْ لمْ يذلُّوا بعدُ للهِ حقًا في الصَّلاةِ؟ ولا تستغربوا أنْ كَثُرَتْ فينا الفواحشُ والمنكراتُ، فصلاتُنا لمْ تصلْ إلى مستوى النهيِ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ.

إنَّ أمةً لا يقفُ أفرادُها بينَ يَدَيِ اللهِ في الصَّلاةِ لِطلبِ الفضْلِ والخيرِ منْهُ وحدَهُ لعاجزةٌ أنْ تقفَ ثابتةً في مواقفِ الخيرِ والوَحدةِ والنصرِ والقوَّةِ، لأنَّ هذه كلَّها منْ عندِ اللهِ وحده، فإذا أصلَحْنا ما بيننا وبينَ اللهِ أصلحَ اللهُ ما بيننا وبينَ الناس.

كمْ في الصَّلاةِ -ولا سيَّما صلاةِ الجماعةِ- من معاني الأخوَّةِ والمحبَّةِ، وكمْ يُجسِّدُ وقوفُ المصلينَ كالبناءِ المرصوصِ من معاني الرُّعب والرهبةِ في قلوبِ الأعداءِ.

في المسجدِ يُعلِّمُ الجاهلُ، ويطعَمُ الجائعُ، وينُصَرُ المظلومُ، يُعلَّمْ العلمُ، وتُبلَّغُ الدعوةُ، يتعارفُ المسلمونَ ويتآلفونَ، ويُعلَّمُ الصبيانُ آدابَ المسجدِ والصلاةِ ويُحَفَّظونَ القرآنَ في المسجدِ، يتشاورُ المسلمونَ في أمرهِمْ، ويتفقدونَ حالَ إخوانهِمْ المنقطعينَ عنِ المسجدِ لسببٍ أوْ لآخَرَ.

المساجدُ خيرُ البقاعِ، وما أحراها بكثرةِ الجلوسِ والتذكرةِ والتلاوةِ والخَلوةِ والدعاءِ حتى تحينَ الصلاةُ، إلى غيرِ ذلكَ منْ مهامٍّ وأدوارِ المسجدِ التي تضاءَلَتْ في هذا الزمنِ، حتى فقدَت عددٌ من المساجدِ رسالتَها العُظمى، وآثارَها التربويةَ والاجتماعيةَ وأشياءَ أخرى.

وهي مسئوليةٌ مشتَرَكةٌ بين الإمامِ والمأمومينَ، والأوقافِ والدعوةِ.

يا عبدَ اللهِ قفْ، وسائلْ نفسَكَ ما قدْرُ الصلاةِ عندَكَ؟ قلْ ما شئتَ، وَعَبِّرْ بما شئْتَ.. فإنَّ حظَّكَ منَ الإسلامِ على قَدْرِ حظِّكَ مِنَ الصَّلاةِ؟

يا مسلمُ كيفَ تؤدِّي الصَّلاةُ؟ قلُ ما شئْتَ وتذكَّرْ ما شئْتَ فليسَ لكَ منْ صلاتِكَ إلا ما عقلْتَ!

أيُّها المُصَلونَ هلْ تُؤدونَ الصَّلاةَ أمْ تُقيمونَها.. والفرقُ كبيرٌ بين مجردِ الأداءِ وإقامةِ الصلاةِ كما أمرَ اللهُ ورسولُه، ومنْ تأمَّلَ في آياتِ القرآنِ وجدَ أنَّ الأمرَ بالصلاةِ يأتي دائمًا بأسلوبِ (الإقامةِ) (أقيموا الصلاةَ) فالإقامةُ تعني الإتمامَ والعنايةَ لا مجرَّدَ الأداءِ[1].

أيها الراكعونَ الساجدونَ: هلْ تتثاقلونَ القيامَ مع الإمامِ والركوعَ والسجودَ والتلاوةَ إنْ أطالَ؟ فدونكُمُ العلاجُ.. وهوَ الخشوعُ في الصلاةِ وفي محكم

(١) اللسان، القاموس (قوم) الشيخ عبد الرحمن السديس كوكبة الخطب/ ١٩٢.

التنزيلِ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾(١).

والمعنَى أنَّ الصلاةَ شاقةٌ إلا على الخاشعينَ فإنَّها سهلةٌ عليهِمْ، لأنَّ الخشوعَ وخشيةَ اللهِ ورجاءَ ما عندَهُ يوجبُ لهُ فعلَها منشرِحًا صدرُهُ، لترقُّبِهِ للثوابِ وخشيته منَ العقابِ(٢).

أعوذ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾(٣).



(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٢) السعدي تفسير كلام المنان ١/ ٨٣.
(٣) سورة مريم، الآيتان: ٥٩، ٦٠.

الخطبة الثانية:

إخوةَ الإسلامِ: ثَمَّةَ أمورٌ تُقلِّلُ منْ أجرِ الصَّلاةِ أو تُبطلُها، وثمَّةَ أخطاءٌ في أداءِ الصَّلاةِ ينبغي التنبهُ لها والتنبيهُ عليها.

١- فالطهارةُ مفتاحُ الصلاةِ وهي شرطٌ عظيمٌ للصلاةِ، وكم يتهاونُ بعضُ المسلمينَ بشأنِ الطهارةِ، إنْ تفريطًا يؤدِّي إلى الإخلالِ بواجباتِ الوضوءِ ومكمِّلات الطهارةِ، أو إفراطًا يصلُ إلى حدِّ الوسْوَسَةِ المنهيِّ عنْها.

٢- وسترُ العورةِ شرطٌ من شروطِ الصلاةِ.. وكذلكَ يتهاونُ نفرٌ مِنَ المسلمينَ في سَتْرِ عورتِهِمْ منْ لبسِ الثيابِ الشفَّافةِ أو الضيِّقة والسراويلِ القصيرةِ، حتى يبان شيءٌ من العورةِ؛ والعورةُ من السُّرة إلى الركبةِ، فاحفظوا عَوْراتِكُمْ دائمًا، وإياكُمْ والتهاونَ بها في الصلاةِ مُطلَقًا.

٣- تسويةُ الصفوفِ تلك التي استهانَ بها بعضُ المصلينَ- هداهُمُ اللهُ- وقد وردَ التشديدُ في ذلكَ حتى قالَ عليه الصلاة والسلام: «**لَتُسَوُّنَّ صفوفَكُمْ أو لَيُخالِفَنَّ اللهُ بينَ وجوهَكُمْ**» متفقٌ عليه.

وفي حديثٍ آخرَ: «**إنَّ اللَه لا ينظرُ للصّفِّ الأعْوَجِ**».

٤- الإخلالُ بشيءٍ منْ أركانِ الصلاةِ.. ولا سيَّما (الطمأنينةُ) التي تَساهلَ بها عددٌ من المصلينَ إذْ تراهُ يَنْقُرُ الصلاةَ نَقْرَ الغُرابِ -لا يعقلُ ما يقولُ ويقرأُ- وأنَّى لهذا منَّ الطمأنينةِ والخشوع -وهي لبُّ الصلاةِ- لقدْ قالَ النبيُّ ﷺ للمُسيءِ في صلاتِهِ «**ارجعْ فصلِّ فإنَّكَ لمْ تُصلِّ**». وأبصرَ أحَدُ السلفِ رجلًا لا يطمئنُّ ولا يُحسنُ صلاتَهُ، فقالَ: منذُ كمْ وأنتَ تُصلي هذه الصلاةَ؟ فأجابَ الرجلُ: منذُ ستينَ سَنةً، فقالَ لهُ الصحابيُّ: منذُ ستينَ سنةً وأنتَ لمْ تُصَلِّ؟

فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ في صلاتِكُمْ.. وهيَ ليسَتْ حِملًا تضعونَهُ عن رقابِكُمْ.. ولكنَّها عبادةٌ تُرضونَ بها ربَّكُمْ.

٥- ومسابقةُ الإمامِ أو موافقتُهُ بليّةٌ يُبتلَى بها بعضُ المصَلينَ، وهي منْ- نزْغِ الشيطانِ- وإلا فلنْ يُسلِّم المسابقُ -في النهايةِ- قبلَ الإمامِ.

قالَ العلماءُ: المسابقةُ تُبطلُ الصلاةَ، وموافقةُ الإمامِ في حالِ القيامِ والركوعِ والسجودِ، تُنقِصُ من قدْرِ الصلاةِ والسنةُ في المتابعةِ للإمامِ، فإذا انتهَى راكعًا فاركَعوا، وإذا اعتدَلَ قائمًا فانهَضُوا، وإذا استَوَى ساجدًا فاسْجُدوا وهكذا.. فإنَّما جُعِلَ الإمامُ ليُؤْتَمَّ به.

وإيَّاكُمْ وتلاعبَ الشيطانِ، أما يَخْشى الذي يرفع رأسَهُ قبلَ الإمامِ أن يجعلَ اللهُ رأسَهُ رأسَ حمارٍ أوْ يجعلَ اللهُ صورتَه صورةَ حِمارٍ؟ متفقٌ عليهِ.

قالَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ: ليسَ لمَنْ سبقَ الإمامَ صلاةٌ[1].

٦- وممَّا ينْبغي التفطُّنُ له في المسجدِ عدمُ إيذاءِ المصلينَ برائحةٍ مُستكرَهَةٍ كالثُّومِ والبصلِ وشُربِ الدخانِ ونحوِها، وعلى المسلمِ أنْ يكونَ نظيفَ المَلبَسِ، حَسَنَ الرائحةِ، آخذًا بالزينةِ التي أمَرَهُ اللهُ بها ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[2].

كما لا ينبغي إيذاءُ المصلينَ بحركةٍ مُستفِزَّةٍ، أو سلوكياتٍ غيرِ لائقةٍ.. ألا وإنَّ منْ بلايا العصرِ رنينُ الجَوَّالاتِ، والتي لا تُشغِلُ صاحبَها وحدَهُ، بلْ تُشوِّشُ على المصلينَ كلِّهِمْ، وعلى الرغمِ من التحذيراتِ المسموعةِ والمكتوبةِ على أبوابِ المساجدِ، وغيرِها.. إلا أنَّ ظاهرةَ الجوالاتِ في المساجدِ لا تزالُ

---

(١) المغني لابن قدامة ٢/ ٢٠٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

مصدرَ قلقٍ وتشويشٍ على المُصَلينَ، فهلْ تنتهي يا صاحبَ الجوالِ.. إما بالعنايةِ بإغلاقِهِ.. أو بتركِهِ في البيتِ أو السيارةِ حالَ الصلاةِ؟

٧- ولا بدَّ يا عبادَ اللهِ مِنَ العَوْدِ والتأكيدِ على رُوحِ الصَّلاةِ ولُبِّها، ألا وهوَ الخشوعُ فيها، ألا وإنَّ المؤدِّين للصلاةِ كثيرٌ.. ولكنَّ المقيمينَ لَها.. بواجباتِها وأركانِها وسُننِها قليلٌ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ، أَلَسْنا نرى فِئامًا مِنَ المصلينَ يُصلونَ أشباحًا بلا أرواحٍ، وقوالبَ بلا قُلوبٍ، وحركاتٍ بلا مشاعرَ، صلاتُهمْ مرتعٌ للوساوسِ وفرصةٌ لإعادة الذكرياتِ والهواجسِ يدخلُ الشيطانُ على أحدِهِمْ منْ حينَ يكبِّرُ حتى يُسلِّمَ، فيصولُ ويجولُ بفكرِهِ في مجالاتِ الدنيا، ولذا تراهُ يتحركُ ويتشاغلُ، ويستطيلُ ويتثاقلُ، ويلتفتُ بقلبِهِ وبصرِهِ إلى حيثُ يُريدُ، قلوبُهمْ في كلِّ وادٍ تهيمُ، وعقولُهمْ في كلِّ مكانٍ تسرحُ.. ولو سألتَهُ: ماذا قرأَ الإمامُ؟ لم يَجد جوابًا بلْ رَبما لوْ سألتَهُ: ماذا قرأتَ وقُلتَ في صلاتِك لتردَّدَ في الجوابِ.. إنَّ صلاةً يتلاعبُ الشيطانُ بصاحبِها إلى هذا الحدِّ خِداجٌ غيرُ تمامٍ، فاللهَ اللهَ في مجاهدَةِ نفسِكَ والشيطانِ.

أيها المصَلِّي: ليسَ لكَ منْ صلاتِكَ إلا ما عَقلْتَ، والشيطانُ إنْ عَجزَ عنْ صدِّكَ في المجيءِ للمسجدِ والصلاةِ معَ المسلمينَ، فسيحاولُ إفسادَ صلاتِك عليكَ، فتعوَّذْ باللهِ منْهُ صادقًا مستحضِرًا قدرَ الصلاةِ وتذكرْ أنَّ الرجُلينِ يقفانِ في الصفِّ الواحدِ وبينَ صلاتِهما كما بينَ المشرقِ والمغربِ، فكُنْ عبدَ الله المقيمَ للصلاةِ ولا تكتفي بمجردِ أدائها.

واعلمْ أنَّ أولَ ما يحاسَبُ عَنْهُ العبدُ في قبرِهِ الصلاةُ، فأعِدَّ للسؤالِ جوابًا.

عبادَ اللهِ:

٨- ومعَ الحرصِ على صلاةِ الجماعَةِ في المسجِد، فلا بدَّ مِنَ التفطُّنِ ألّا

تُجعَلَ البيوتُ مقابرَ، فإنَّ البيوتَ تُحيا بصلاةِ النوافلِ، وهيَ في البيتِ أفضلُ بشكلٍ عامٍّ- ولا سيما سنةَ المغربِ- قالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: وكان ﷺ يُصلي عامةَ السُّننِ والتطوّعِ الذي لا سببَ لَهُ في بيتِهِ، لا سّيما سُنةَ المغربِ، فإنَّهُ لمْ يُنقلْ عنْهُ أنّهُ فعلَها في المسجدِ البتةَ[1].

أيّها المسلمونَ:

وخلاصةُ القولِ: إنَّنا نستطيعُ بالصلاةِ المشروعةِ أنْ نُطهِّرَ أنفسَنا منْ الفواحشِ والمنكراتِ، وأن نتخفَّفَ بالصلاةِ منْ أوزارٍ طالَما أثقلَتْنا عنِ الانطلاقِ الخيِّر في الحياةِ، نستطيعُ بالصلاةِ المُقامةِ أنْ ننجَحَ في معركةِ الشهواتِ والشبهاتِ، وأنْ نُغالِبَ الشيطانَ في وساوسِهِ ونَزَغاتِهِ، وحينَ ننتصرُ على نزواتنا وأهوائنا والشيطانِ، يصبحُ الطريقُ مفتوحًا للنصرِ على أعدائنا.. أجَلْ، إننا نقفُ في الصلاةِ بينَ يَدَي اللهِ متضرِّعينَ سائلينَ، واللهُ قريبٌ مجيبُ الدعاءِ، وفي الصلاةِ فرصةٌ كُبْرى للدعاءِ، وأقربُ ما يكونُ العبدُ لربِّه وهو ساجدٌ فهل نُلحُّ على اللهِ- في صلاتِنا- بإصلاحِ أحوالِنا والتمكينِ في الأرضِ.. وبينَ الصلاةِ والتمكينِ صِلةٌ وثْقى، فاللهُ يقولُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ألا أيها المتكاسلُ عنِ الصلاةِ بادِرْ قبلَ أنْ يُكْشَفَ عن ساقٍ ويُدْعَوْنَ إلى السجودِ فلا يستطيعونَ.

ألا أيُّها المقصِّرُ في الصلاةِ مع الجماعةِ تدارَكْ نفسَكَ، فَيَدُ اللهِ معَ الجماعةِ وإنَّما يأكلُ الذئبُ من الغنمِ القاصيةَ.

أيها المصلُّونَ أَطِيلوا الركوعَ والسجودَ بعدَ القيامِ واخْشَعوا في صلاتِكُمْ وادْعوا ربَّكُمْ خوفًا وطمَعًا، إنَّ رحمةَ اللهِ قريبٌ مِنَ المحسنينَ.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٣١٢.

ولا تَنْسَوْا أنْ تدْعوا بدعاءِ الخليل: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[1].

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.

حرارةُ الصيفِ ذكرَى وعِبرة[١]

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِنْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومنْ يضْلِلْ فلا هاديَ لَهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وارْضَ اللهُمَّ عنِ الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

أيُّها الناسُ: درجةُ الحرارةِ تصلُ إلى أربعةٍ وأربعينَ درجةً (٤٤) وقدْ تزيدُ وقدْ تنقصُ، والأمرُ للهِ، فما منْ قوّةٍ مهْما بلغَتْ تستطيعُ أنْ تخفضَ درجَةَ الحرارَةِ إذا ارتفعَتْ، أو ترفعَها إذا انخفضَتْ.

ألاَ ما أعظمَ اللهَ! وفي خلقِه وتدبيره آياتٌ للسائلينَ، وهذا الكونُ منْ صُنعِه، وعجيبِ تقديرِه، فهو مُتَّسقٌ في دورتِهِ وفصولِهِ، وأحيائِه ونجومِهِ، حَرٌّ وبردٌ، وربيعٌ وخريفٌ، وثمارٌ يانعةٌ في كلِّ فصلٍ، وأحياءٌ ومخلوقاتٌ تظهرُ في هذا الفصلِ وتختفي في غيرِه، ليلٌ ونهارٌ، وشمسٌ وقمرٌ، ونجومٌ ومجرّاتٌ تملأُ السماءَ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٢].

عبادَ اللهِ: وحينَ تبلغُ درجةُ الحرارةِ الخمسينَ أوْ دونَها بقليلٍ فلا تسألْ عنِ الحرِّ والسَّمومِ، والظمأ والعرَقِ، وذكرى فيحِ جهنّمَ ليسَ عنّا ببعيدٍ؟

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ١٣/ ٤/ ١٤٢٤هـ.

(٢) سورة يس، الآية: ٤٠.

وهنا أسئلةٌ تثورُ ولا بدَّ أنْ نُجيبَ عنْها بوعيٍ يتجاوزُ حدودَ الزمانِ والمكانِ كيفَ نقضي زمنَ الصيفِ بحرِّه وسَمومِهِ؟ وبماذا يُذكِّرُنا؟ وأينَ المفرُّ والمهربُ؟ وكيفَ نعبدُ ونشكرُ؟

تعالَوْا بنا في رحلةٍ واعيةٍ وإجاباتٍ مُذكِّرةٍ -مع حرارةِ الصيفِ- نُذكِّرُ بها أنفسَنا، ونتذكَّرُ خلقًا من خلقِ اللهِ غيرَنا، ونتجاوزُ حدودَ الدنيا لنتصورَ حياةَ الآخرةِ، لنرى تباينَ الهمَمِ، واختلافَ منازلِ الصبرِ.

إنَّ مِنَ المؤكدِ أننا جميعًا نتضايقُ مِنَ الوقوفِ تحتَ حرارةِ الشمسِ ولوْ لدقائقَ معدودةٍ، ونسرعُ باحثينَ عنِ الظِّلال الوارفةِ، وتطمئنُّ نفوسُنا في الأماكنِ الباردةِ، ونحنُ في منازلِنا نستعدُّ مسبقًا لتخفيفِ درجةِ الحرارةِ، فعَزْلٌ حراريٌّ، وتكييفٌ مائيٌّ، وآخرُ فريونيٌّ، وكمْ هيَ مُشكلةٌ لوِ انقطعَ التيارُ الكهربائيُّ في حمأةِ الظهيرةِ، أو حتى في حِنْدِسِ الظُّلمةِ؟ ومشكلةٌ أخرى لو تعطلَتْ أجهزةُ تبريدِ الماءِ وغيرِه، يا اللهُ ما أضعفَنا، وأقلَّ صبرَنا!

وحينَ تُطلُّ الإجازةُ الصيفيةُ نتهيَّأ للسفرِ، ونبحثُ عن مكانٍ نفرُّ إليهِ منَ الحرِّ؟ ولا ضيرَ في ذلكَ كلِّه -في حدودِ ما أحلَّ اللهُ- لكنْ هلْ فكّرنا مليًّا فيما نحنُ فيهِ منْ نعمةٍ؟ وهلْ نحنُ شاكرون؟ وإذا كنّا اليومَ نستطيعُ أنْ نتقيَ شدّةَ الحرارةِ بوسائلَ مختلفةٍ فهلْ بإمكانِنا غدًا أنْ نتقيَها بسهولةٍ؟ كيفَ الحالُ في أرضِ المَحشرِ؟ وهلْ منْ مفرٍّ أو مهرَبٍ؟ هناكَ لا ينطقونَ ولا يؤذنُ لهمْ فيعتذرونَ، يفرُّ المرءُ منْ أخيهِ وأمِّه وأبيهِ وصاحبتِهِ وبينهِ لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه.

وفي عالمِ الدنيا كمْ همُ الذينَ في البراري والقفارِ، يستظلّونَ بظلِّ الشجرِ- إنْ وجِدَ- أو بظلٍّ بعضِ منسوجِ الخيامِ إنْ توفَّر.

غاب المكيفُ، وقبلَه عزَّ البناءُ المشيّدُ، أرضُهم في النهارِ تفوحُ لظًى وهيَ في

الليلِ موحشةٌ مظلمةٌ تملؤها هوامُّ الأرضِ ودوابُّها تتحركُ وتَسعَى!

وكمْ في أرض اللهِ منْ أممٍ وشعوبٍ تعيشُ أدْنى مستوياتِ الفقرِ، تتخذُ من أرصفةِ الشوارع مسكنًا، وتكتفي من الظلِّ بعِشاشٍ يُقامُ من العيدانِ والخِرقِ الباليةِ، ولا تسألْ عن نُدرةِ الطعامِ والشرابِ عندَ هؤلاءِ- فهلْ نتذكرُ بحرارةِ الجوِّ هذه الأيامَ مأساةَ هؤلاءِ، وما نحنُ فيه منْ نعمةٍ، وهلْ يكفي مجردُ التَّذكير السلبيِّ، أمْ لا بدَّ من شُكرٍ -على النعمةِ- بالقلبِ واللسانِ، ولا بدَّ منْ شكرٍ على المالِ ومدِّ يدِ المساعدةِ للمحتاجينَ المسلمينَ؟

معاشرَ المسلمينَ: إنَّ ما نُحسنُّ بهِ هذه الأيامَ منْ شدّةِ الحرارةِ إنما هو فَيحٌ ونَفسٌ من أنفاسِ جهنّمَ، فكيفَ بشدّةِ حرارةِ جهنَّمَ بكُلِّ أنفاسِها؟ فكيفَ بمنْ يُعذّبَ فيها؟ وكيفَ بمنْ هو خالدٌ فيها؟ نسألُ اللهَ العافيةَ.

وفي الحديثِ الصحيحِ قالَ رسولُ الله ﷺ: «**اشتكَتِ النارُ إلى ربِّها فقالَتْ: يا ربِّ أكلَ بعضي بعضًا، فأَذِنَ لها بنفَسَيْنِ، نَفَسٍ في الشتاءِ، ونَفسٍ في الصيفِ فهوَ أشدُّ ما تجدونَ من الحرِّ، وأشدُّ ما تجدونَ من الزمهريرِ**» رواهُ مالكٌ والشيخانِ والترمذيُّ[(١)].

وفي روايةٍ عند الترمذيِّ: فأما نفَسُها في الشتاءِ فهو زمهريرٌ، وأما نفسُها في الصيفِ فسَمُومٌ[(٢)].

هلْ تتذكرُ أيها المسلمُ بشدةِ الحرارةِ -إنَّ منَ الشمسِ أو النارِ البسيطةِ في الدنيا- شدَّةَ حرارةِ جهنمَ، وفي التنزلي: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[(٣)].

---

(١) صحيح الجامع ١/ ٣٣٢ ح ١٠٠١.

(٢) صحيح الجامع ١/ ٣٣٢ ح ١٠٠٢.

(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٧١- ٧٣.

يا مسلمُ يا عبدَ الله: وإذا كنتَ اليومَ تتقي شدةَ الحرارةِ بالتكييفِ والظلالِ الوارفةِ وغيرِ ذلكَ منْ وسائلَ- لا ضيرَ عليكَ في استخدامِها- فبأيِّ شيءٍ تُراكَ ستتَّقي حرَّ جهنّمَ وشدةَ الموقفِ في عَرَصاتِ الحسابِ. وهناكَ تدنو الشمسُ منَ الخلقِ وتكونُ بقدرِ الميلِ.. واليومَ بيننا وبينَها آلافُ الأميالِ، هناكَ العَرقُ يلجم الناسَ على قدرِ أعمالِهم ولا ظِلَّ إلا ظلُّ الرحمنِ ولا جاهٌ ولا مالٌ ولا حسبٌ ولا نسبٌ؟

إنني أذكِّرُك ونفسي بالسبعةِ الذينَ يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ فهلْ نكونُ أحدَ هؤلاءِ السبعةِ، بخوفِنا منَ اللهِ، وبعملِ الصالحاتِ، وتقديمِ القُرُباتِ؟

يا مسلمُ يا عبدَ اللهِ، ومهْما تضايقْتَ من شدّةِ الحرِّ أو البردِ إياكَ أن تَسُبَّ الدهرَ فاللهُ هو الدهرُ، ولا يَغِبْ عنْ ذِهْنِكَ أن الشمسَ والقمرَ بحُسْبانٍ، وأنَّ للهِ حِكَمًا في تقليبِ الليلِ والنهارِ، وتكرارِ الفصولِ وتقليبِ الزمانِ وَعاها العالِمونَ، وذكرَ بعضَها العارفونَ. وقالَ ابنُ القيِّم ﵀: ثمَّ تأملْ بعدَ ذلكَ أحوالَ هذه الشمسِ في انخفاضِها وارتفاعِها لإقامةِ هذه الأزمنةِ والفصولِ وما فيها مِنَ المصالحِ والحكَمِ، إذْ لوْ كانَ الزمانُ كلُّه فصلًا واحدًا لفاتَتْ مصالحُ الفصولِ الباقيةِ فيهِ.. إلى أنْ قالَ عنْ حكمِ الصيف: وفي الصيفِ يحتدّ الهواءُ ويَسخُنُ جدًّا فتنضجُ الثِّمارُ، وتنحلُّ فَضَلاتُ الا يدانِ والأخلاطِ التي انعقدَتْ في الشتاءِ، وتَغورُ البرودةُ وتهربُ إلى الأجوافِ، ولهذا تبردُ العيونُ والآبارُ.

ويتحدثُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ ﵀ عنْ شيءٍ منْ رحمةِ اللهِ وتقديرِهِ في اختلافِ الفصولِ وبما يَحمي الإنسانَ بإذنِ الله، فيقول: يسخُنُ جوفُ الإنسانِ في الشتاءِ ويَبْرُدُ في الصيفِ، لأنَّ في الشتاءِ يكونُ الهواءُ باردًا فيبردُ ظاهرُ البدَنِ فتهربُ الحرارةُ إلى باطنِ البدَنِ؛ لأنَّ الضدَّ يَهربُ من الضدِّ.. وتبردُ الأجوافُ

في الصيفِ لسخونةِ الظاهرِ فتهربُ البرودةُ إلى الأجوافِ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

يا عبدَ اللهِ: وإذا كانَ الضِّدانِ لا يجتمعانِ وأحدُهما يهربُ من الآخرِ، فهلْ تفرُّ من المعصيةِ إلى الطاعةِ؟ وإذا كانَ حرُّ الصيفِ شديدًا فنارُ جهنمَ أشدُّ حرًا، ورحمَ اللهُ أقوامًا كانوا يتحرَّونَ الهواجرَ فيتقربون إلى اللهِ بصيامِها، تحسُّبًا ليومٍ شديدٌ حرُّه، وكان أبو الدرداءَ ﷺ يقولُ: صُوموا يومًا شديدًا حَرُّه لحرِّ يومِ النشورِ، وصلّوا رَكعتينِ في ظلمةِ الليلِ لظُلمةِ القبورِ.

ويُذكرُ أنَّ عددًا من السلفِ كانوا يصومونَ في الصيفِ طلبًا لكثرةِ الأجرِ، ويقولُ قائلهُم: إنَّ الشيءَ إذا رَخص اشتراهُ كلُّ أحَدٍ؟

ويروى أنَّ ابنَ عمرَ ﷺ خرجَ في سفرٍ ومعهُ أصحابُه، فلما وضعوا سُفرتَهم، مرَّ بهم راعٍ فدعوْه إلى أنْ يأكلَ معهُمْ، فقالَ: إني صائمٌ، فقالَ ابنُ عمرَ: في مثلِ هذا اليومِ الشديدِ حرُّه وأنتَ بينَ هذه الشِّعابِ في آثارِ هذه الغنمِ وأنتَ صائمٌ؟ فقالَ الراعي: أبادرُ أيامي هذه الخالية(١).

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾.

❀ ❀ ❀

---

(١) وقفات مع فصل الصيف، مقال في الإنترنت لـ د. زيد بن محمد الرماني.

الخطبة الثانية:

إخوةَ الإيمانِ: وفي الشدائدِ دروسٌ وتعويدٌ على الصبرِ، ومنْ قَلَّ صبرُه أعاقَهُ بردُ الشتاءِ أو حرُّ الصيفِ عنْ مشاريعِ الخيرِ، وضعُفَتْ همتُه عنِ القيامِ بما كانَ يقومُ به حينَ اعتدالِ الجوِّ، وأهلُ الصبرِ والإيمانِ واليقينِ يتجاوزونَ في أعمالِهم الصالحةِ ومشاريعهم الخيرةِ معوّقاتِ الشدائدِ.. بعكسِ أهلِ الريبِ والنفاقِ وأصحابِ الهِمَمِ الضعيفةِ فأولئكَ يقعدونَ عنِ المعالي ويعتذرونَ بشدةِ الزمانِ.. إنهما صنفانِ يتكرران، أحدُهما يقول: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[1].

والآخرونَ قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾[2].

وفيما نحنُ بصدَدِه ربّما ضعُفَتْ هِممْ أناسٍ عن صلاةِ الفجرِ في وقتِها ومعَ جماعةِ المسلمينَ لِقِصَرِ ليلِ الصيفِ، وربّما ضَعُفَتْ هِممُ آخرينَ عنِ الخروجِ لصلاةِ الظهرِ أو العصرِ لشدةِ الحرِّ ولفحِ السَّمومِ.. وفرقٌ بينَ هؤلاءِ وبينَ منْ يقومونَ الليلَ -وإنْ قصُرتْ ساعاتُهُ- ومَنْ يصومونَ النهارَ وإنِ اشتدَّ حرُّه، وسلعةُ اللهِ غاليةٌ، وعلى قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ!

رأى عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَحِمَهُ اللهُ قومًا في جنازةٍ قدْ هربوا منَ الشمسِ إلى الظلِّ، وتَوَقَّوا الغبارَ، فبكى ثم أنشدَ:

منْ كانَ حينَ تُصيبُ الشمسُ جبهتَه ... أوِ الغبارُ يخاف الشينَ والشَّعَثا
ويألفُ الظِّلَّ كيْ تبقَى بشاشتُه ... فسوفَ يسكنُ يومًا راغمًا جَدَثًا
في ظلِّ مُقْفِرةٍ غَبراءَ مُظلمةٍ ... يطيلُ تحتَ الثَّرى في غمِّها اللَّبَثا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٨١.

تـجـهَّـزي بِـجَـهـازٍ تَـبـلُـغـيـنَ بـه   يا نفسُ قبلَ الرَّدَى لم تُخلَقي عَبَثًا

هنا وبهذه الأفكارِ والتساؤلاتِ والإجاباتِ تعودونَ من رحلةِ الصيفِ وحرارتِه واعِينَ متفطِّنينَ شاكرينَ ذاكرينَ، ومن شكرَ فإنّما يشكرُ لنفسِه.

أيها المسلمونَ: خُلقَ الإنسانُ هَلوعًا فتراهُ يتضجّرُ من شدةِ الحرِّ إذا حلَّ الصيفُ ثم تراهُ متضجِّرًا من شدةِ البردِ إذا حلَّ الشتاءُ، وحالُه كما قالَ الشاعرُ:

يتمنّى المرءُ في الصيفِ الشتاءَ   فـإذا جـاءَ الـشـتـاءُ أنـكـرَهْ

فـهـو لا يـرضَـى بـحـالٍ واحـدٍ   قـتِـلَ الإنـسـانُ مـا أكـفـرَهْ

ألا وإنَّ الموفَّقَ منِ استفادَ من الصيفِ بطولِ نهارِه.. واستفادَ منَ الشتاءِ بطولِ ليلِه، وفضلُ اللهِ يؤتيهِ من يشاءُ، ومنْ رضيَ فلهُ الرضاءُ ومن تسخَّطَ فعليه السُّخْطُ؟

لقدْ كانَ منْ هَدْيِ النبيِّ ﷺ الإبرادُ بصلاةِ الظهرِ حينَ يشتدُّ الحرُّ رأفةً بالمسلمينَ، فهلْ يا ترى يرأفُ الأغنياءُ والموسرونَ بالفقراءِ الذين لا يتوفرُ عندهم منْ وسائلِ التبريدِ ما يتقونَ به حرارةَ الصيفِ؟

وإذا كانَ آباؤنا وأجدادُنا عاشوا حياةً بسيطةً، ومسَّتْهم البأساءُ والضّرّاءُ وربما تغيّرَتْ جلودُهم، واسودَّتْ وجوهُهم منْ لفحِ السَّمومِ وشدّةِ الحرِّ، فهلْ نُذكّرُ أبناءنا ما همْ فيه من نعمةٍ الآنَ، ليرعَوْها ويشكروا اللهَ عليها.

أيها المسافرونَ: وإذا فَررْتُم منْ حرِّ الصيفِ سائحينَ هنا أو هناكَ، فإياكُم أن تفِرُّوا من الجحيمِ إلى الجحيمِ، فحرارةُ الصيفِ منْ فيْحِ جهنمَ، ولكن مبارزةَ اللهِ بالمعاصي والفسوقِ والعصيانِ، واستبدالِ جحودِ النعمِ بشكرِها، والمعصيةِ بالطاعةِ كلُّ ذلكَ فرارٌ إلى جحيمٍ آخرَ، لا بدَّ أنْ يذكّرَنا به حرارةُ الصيفِ.. فارحلْ واستمتعْ وبرّدْ، وسِحْ في أرضِ اللهِ.. لكنْ مع صدقِ المراقبةِ واستحضارِ موجباتِ الخوفِ للهِ..

فليسَتِ المعاصي والفجورُ من مُستلزماتِ السياحةِ والسفرِ، بلِ السياحةُ الحقّةُ فرصةٌ للذكرِ والشكرِ، والدعوةِ والأُنسِ، ومن المُسَلَّماتِ أنَّ راحةَ الضميرِ وطمأنينةَ القلبِ، لا يمكنُ أن تتحقَّقَ بالزورِ والفجورِ، بل هي كما قالَ خالقها: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(١)، بل ضيقُها وعذابُها ونكدُها بالإعراضِ عنِ اللهِ وذكرِه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(٢).

أيها المسلمونَ: وإذا تضايقْتُم يومًا أو سَنةً أو عُمرًا قصيرًا مِنْ شدّةِ الحرِّ، فتذكّروا أنَّ يومًا مِنْ أيام الآخرةِ كألفِ سنةٍ مما تعدّونَ، وهناكَ نعيمُ الجنةِ الدائمِ في ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾(٣).. وتذكّروا في مقابِلها ظِلًّا ذا ﴿ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾(٤).

وتذكّروا لأهلِ النعيمِ جنتَيْنِ ذواتَيْ أفنانٍ، فيهما عينانِ تجريانِ، وتذكّروا لأهلِ الجحيمِ: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾(٥)، تذكّروا الفرقَ بينَ وجوهٍ مسفرةٍ ضاحكةٍ مستبشرةٍ ووجوهٍ يومئذٍ عليها غبرةٌ ترهقُها قَترةٌ ثمَّ قدّموا لأنفسِكم عملًا صالحًا.

اللهم أعِذْنا من خِزي الدنيا وعذاب الآخرة واجعلنا من أهل النعيم في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٣٠- ٣٤.

(٤) سورة المرسلات، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٥) سورة محمد، الآية: ١٥.

الإنسان قوة بين ضعفين(١)

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِنْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومنْ يضْلِلْ فلا هاديَ لَهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عليْهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وارْضَ اللهُمَّ عنِ الصحابةِ أجمعينَ والتابعينَ وتابعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

عجبًا لكَ يا ابن آدمَ كَمْ تطْغَى وتتكبَّرُ! وكَمْ تُفسدُ وتفسُقُ! تمشي في الأرض مَرَحًا، وتَنْسَى أصلَ خلقِكَ، وتتمرَّدُ على العبوديةِ لربِّك وفي مُحْكَم التنزيلِ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾(٢).

يا ابن آدمَ تأمَّلْ في بدايةِ خَلْقِكَ ومنتَهاهُ، وتأمَّلْ في أحوالِكَ وأطوار حياتِكَ تَرَى الضعفَ لكَ ملازِمًا وصدَقَ اللهُ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(٣)، فما هي مظاهرُ ضعفِنا؟ والأهمُّ من ذلك: ماذا يسْتَدْعي منا هذا الضعفُ؟ وما العبرةُ والدرسُ؟

أيها المسلمونَ: إن منْ يتأملُ حياةَ الإنسانِ ومراحلَهُ، وأحوالَه يَرى الضعفَ ظاهِرًا.. أجلْ، ضعفٌ في النشأةِ وضعفٌ في الهَرَمِ، وضعفٌ في حال الصحةِ والسّقمِ، وفي حالِ الجوعِ والشِّبعِ، ضعفٌ في الإقامةِ وضعفٌ في السفرِ،

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ٣/ ٦/ ١٤٢٤هـ.

(٢) سورة عبس، الآيات: ١٧-١٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٨.

ضعفٌ في حالِ الغنى، وضعفٌ في حالِ الفقْرِ، وضعفٌ عندَ شدةَّ الحرارةِ، وضعفٌ عندَ شدَّةِ البرودَةِ.. إلخ مظاهرِ الضعفِ، فإنْ قُلتَ: فكيف هذا الضعفُ؟ وما هيَ مظاهرُهُ؟ أجبتُ بما يلي:

أما الضعفُ في حالِ البدْءِ والنهايةِ فقدْ كشفَ القرآنُ الكريمُ عنْها بقولِهِ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[1]، والآية وإنْ كانَ معناها واضحًا ومُدْركًا منْ خلالِ الواقعِ المُشاهَدِ، ومنْ خلالِ أطوارِ الإنسانِ ومراحِلهِ التي لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يتجاوزَها.. أو يُخالفَ سُنةَ اللهِ فيها.

إلا أنَّ الحكمةَ الإلهيةَ هُنا أنْ يَرى العبدُ ضعفَهُ، وأنَّ قوتَه محفوفةٌ بضَعفَيْن وأنهُ ليسَ لهُ من نَفْسِه إلا النقصُ، ولولا تقويةُ اللهِ لهُ لما وصَلَ إلى قوةٍ وقدرةٍ، ولو استمرَّتْ قوَّتُه في الزيادةِ لطَغَى وبَغَا وعَتَا[2].

إنَّ الإنسانَ يبدأُ حياتَه معتمدًا- بعدَ اللهِ- على الآخرينَ، وتنتهي حياتُه كذلكَ وهو غيرُ مستغْنٍ عنِ الرعايةِ والإعانةِ منَ الآخرين إنَّهُ يخرجُ إلى الدنيا لا يعلمُ شيئًا.. وقبلَ أن يودِّعَ الدنيا يعودُ مرةً أخرى لا يعلمُ بعدَ علمٍ شيئًا.. تأملوا ذلك في آيتين من كتابِ اللهِ يقول تعالى عن المرحلة الأولى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[3]، ثُم يقولُ عن المرحلةِ النهائيةِ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾[4].

أما واقعُ الناسِ فيقولُ: إنَّ المرءَ قد يَعُولُ ابنَهُ الصغيرَ وأباه الكبيرَ في آنٍ

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٤.

(٢) السعدي، تفسير كلام المنان (٦/ ١٤٢).

(٣) سورة النحل، الآية: ٧٨.

(٤) سورة النحل، الآية: ٧٠.

واحدٍ.. هذا محتاجٌ للرعايةِ في طفولتِهِ وصِغَرِه وهذا محتاجٌ للرعايةِ في شيخوختِهِ وهرمِهِ!

إنَّ في ذلكَ لَعِبرةً: غيابٌ في البدايةِ وغيابٌ في النهايةِ وما بينَهُما سنواتٌ وأيامٌ معدودةٌ؟

أيُّها المسلمونَ: وحتى في مرحلةِ القوةِ وبلوغِ الأشُدِّ.. لا يكادُ الضَعفُ يفارقُ الإنسانَ.. أوليسَ ﴿خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[1]، وإلا منِ اتَّصفَ بصفاتِ الإيمانِ واليقينِ -كما جاءَ في الآياتِ المتمِّمةِ لهذه الآيةِ- وهو ضعيفٌ في حالةِ السفرِ والإقامةِ، فهو يملُّ الإقامةَ، والسفرُ يُرهقُه.

وهو كذلكَ ضعيفٌ في حالِ النومِ واليقظةِ- فإنْ كَثُرَ نومُهُ فهو مؤشِّرٌ إلى المرضِ والتعبِ، وإنْ قلَّ نومُه فهو القلقُ والضجرُ؟

يا ابْنَ آدمَ أَلَسْت ضعيفًا في حالِ الغِنَى والفقرِ، فالغِنى يُطغِي ويُلهي ويدْعو للتعالي والكبرياء ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[2] إلا منْ رحمَ اللهُ وآتى المالَ على حبِّهِ مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا.

والفقرُ يُضعِفُ وُيذلُّ وكادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفرًا؟ إلا منْ صبرَ واحتَسَب.

ابنَ آدمَ زمهريرُ البردِ يؤذيكَ، وشدةُ حرِّ الهواجرِ تُضايقُك! وأنتَ حينَ تجوعُ تظلُّ تتلوَّى، وربّما أذْهَبَ الجوعُ سمعَك وأضعفَ من بصرَكَ ورؤيتَك وأنتَ في حال الشِّبَع تثقلُ وتَصعُبُ عليكَ الحركةُ وتميلُ إلى النومِ والراحةِ، وربّما لم تسلَمْ من أَمراضِ التُّخمَةِ وأعراضِ السِّمَنِ؟

---

(١) سورة المعارج، الآيات: ١٩- ٢٢.

(٢) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

ألا فاعرفْ قَدْرَكَ، وقدِّرْ ضعفَكَ، واستعِنْ بخالقِكَ، واستثمرْ قوَّتَك، واعلَمْ أنَّ الحياةَ أطوار.. ضعفٌ وقوةٌ، وطفولةٌ وشيبةٌ، غنًى وفقرٌ، وعُسرٌ ويسرٌ، شرٌّ وخيرٌ، سرّاءُ وضرّاءُ، محنٌ وبلايا.. نومٌ ويقظةٌ، ومهما طالَ عمُرُك فالموتُ يطلبُكَ والأجَلُ يحاصرُكَ.. فكُنْ على استعدادٍ ويقظةٍ.. وإياكَ والغفلةَ والاستكبارَ والطغيانَ والفسادَ.

أعوذُ بالله منَ الشيطانِ الرجيم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

نفعني اللهُ وإياكم بهَدْي كتابِه..



(١) سورة النحل، الآيات: ٥٣- ٥٥.

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ الرحمنِ الرحيمِ.. رحمتُه وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ وأنزلَ منْها في هذه الدنيا رحمةً، وادَّخرَ تسعةً وتسعينَ لِيوم القيامةِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، شهِدَ بضعفِ الخَلقِ، وشهدَ المرسَلونَ على ضعفِ هذه الأمةِ ورحمةِ اللهِ بها، وهذا الكليمُ موسَى ﷺ يقولُ في ليلةِ الإسراءِ والمعراجِ للنبيِّ ﷺ حينَ فُرضَتُ عليه الصلاةُ ماذا فُرِضَ عليكُمْ؟ فقالَ ﷺ: «**أمرَني ربي بخمسينَ صلاةً في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فقالَ له موسَى ارجعْ إلى ربِّك فاسألْهُ التخفيفَ، فإنَّ أمتَك لا تُطيقُ ذلكَ، فإني قدْ بَلَوْتُ الناسَ قبلَكَ على ما هو أقلَّ من ذلكَ فعجَزوا، وإنَّ أمتَكَ أضعفُ أسماعًا وأبصارًا وقلوبًا.. فرجَعَ إلى ربِّه فوضعَ عنه عشرًا، وما زالَ يُراجعُ ربَّه حتى بقيَتْ خمسًا.. ولكنها بأجر خمسين رحمةً من رَبِّك وتخفيفًا وفضلًا**»[1].

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه اعترفَ بضعفِه وشكا إلى ربِّه حالَهُ حينَ عادَ هائمًا على وجهه من رحلةِ الطَّائفِ وهو يقولُ: «**اللهُمَّ إليكَ أشكو ضعفَ قُوَّتي وقِلَّةَ حيلَتي وهواني على الناس، أنتَ ربُّ المستضعَفينَ وأنتَ ربي، إلى مَنْ تَكِلُني...**».

اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليهِ وعلى سائرِ النبيينَ والمرسَلينَ.

إخوة الإسلامِ: ضعفُنا يستَدْعي أنْ نركَنَ إلى اللهِ ونستعينَ به ونعوذَ به فلا مَلجأَ ولا مَنْجا منهُ إلا إليه، وهو الذي يُفَرُّ منهُ إليهِ، وهذا نبيُّ اللهِ لوطٌ ﷺ اعتَصَم باللهِ مِنْ أَذَى قومِهِ وقالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير عند آية النساء ٢٨ وعزا الحديث للبخاري ومسلم وأحمد.

فجاءه الغوث من السماء ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾(١).

وحينَ أوشكَ المشركونَ أنْ يَصِلوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ وصاحبِهِ وهُما مخْتفيانِ في الغارِ، قال النبيُّ ﷺ لصاحبه: «**لا تحْزنْ إنَّ اللهَ مَعَنا**» فتنَّزلت السكينةُ وحُفِظوا مِنْ كيدِ الأعداءِ وتحوَّلَ الضعفُ على قوة والخوفُ إلى سكينةٍ ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾(٢).

عبادَ اللهِ: ويستَدْعي ضعفُنا أنْ نشكرَ اللهَ على السرّاءِ وأنْ نصبرَ على الضرّاءِ، فبالشكرِ تدومُ النِّعَمُ، وبالصبرِ والتجلُّدِ تنقشعُ البلواءُ والمصائبُ والمحنُ.

أجلْ، إن الإنسان يتقلبُ في هذه الحياةِ بين يُسرٍ وعُسرٍ، ورخاءٍ وشدّةٍ، وغنًى وفقرٍ، وصحةٍ وسُقمٍ، وقوةٍ وضعفٍ.. والموفَّقُ مَنْ شكرَ على السرّاءِ وصبرَ على الضرّاءِ، ولقدْ فَقِهَ عبادُ اللهِ المرسلون سِرَّ الابتلاء في كلِّ حالٍ.. فهذا سليمانُ عليه السلام حينَ آتاه اللهُ مِنْ فضلِهِ ما شاءَ وسخَّرَ له من الجنودِ ووهبَهُ مِنَ القوةِ والمُلكِ ما فاقَ أهلَ الزمانِ، اسْتَشْعَرَ فضلَ اللهِ ومِنَنَه، وأحسَّ ببلوَى السرّاءِ وحاجتِهِ للشكرِ وقالَ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(٣).

وهذا أيوبُ عليه السلام حينَ أصابَهُ الضرُّ وابتلاهُ اللهُ بالسُّقم صبرَ واحتسَبَ وتوجَّهَ إلى اللهِ بكشفِ الضرِّ فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾(٤).

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٨٠، ٨١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٣) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٤) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٣، ٨٤.

ويُونسُ وهو في الظُّلماتِ في بطنِ الحُوتِ وأعماقِ البحرِ نادَى: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

أيها المؤمنون: ضعفُنا يستدعي ألّا نتكبَّرَ ونتجبَّرَ، ولا أنْ نطغَى ونكفرَ، وفي القرآنِ نماذجُ لأممٍ وشعوبٍ وأفرادٍ غرَّتْهُم قوَّتُهم واغترُّوا بما أعطاهُمُ اللهُ، فكانتْ نهايتُهم عِبرةً لمنْ بعدَهُم وفي قَصَصِ الغابرينَ أينَ منْ قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾[2]؟ وأينَ منْ قالَ: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾[3]، ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[4]، وأينَ الذي خرجَ علَى قومِه في زينتِه، ومفاتيحُ كنوزِهِ تنوءُ بحَمْلِها العُصبةُ أولوا القوةِ، وتبجَّحَ قائلًا: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[5]، وإذا كانَ اللهُ خسفَ بِهِ الأرضَ، فقدْ أخبرَنا اللهُ أنه أهلَكَ مَنْ قبلَهِ مِنَ القرونِ مَنْ هُو أشدُّ منهُ قوةً وأكثرُ جمعًا: أوَلا يتفكَّرُ الإنسانُ ممَّ خُلِقَ وإلى أينَ يصيرُ؟

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[6].

وسنةُ اللهِ لا تزالُ تطوي المتكبِّرينَ، وتعصِفُ بالمجرمينَ، فلا يَغرُرْك تقلُّبُهم في البلادِ.

عبادَ اللهِ: ضعفُنا يستَدْعي أن نكونَ دائمًا على يَقَظةٍ وحذرٍ، لا تغرُّنا القوةُ،

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٣) سورة القصص، الآية: ٣٨.

(٤) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٥) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٦) سورة عبس، الآيات: ١٧- ٢٢.

ولا نَجزعُ للضعفِ، فالقويُّ يَضعُفُ، والضعيفُ يقوَى، لا بدَّ أنْ ندرِكَ سِرَّ اللهِ في خَلقِنا، وندركَ الهدفَ منْ وجودِنا، نتوجَّهُ إليه وحدَهُ في عُبوديةِ السرّاءِ وفي عُبوديةِ الضرّاء وفي ذلكَ يتحقَّقُ الخيرُ كما أخبرَ المُصْطفى ﷺ: «**عَجَبًا لأمرِ المُؤمنِ إنَّ أمرَه كلَّه لهُ خيرٌ: إنْ أصابتْهُ سرّاءُ شَكَر فكانَ خيرًا له، وإنْ أصابتْهُ ضرّاءُ صَبَر فكانَ خير لهُ، وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمؤمنِ**» نعم، إنَّ غيرَ المؤمنِ تُبطِرُه النعمةُ، ويجزعُ للمصيبة.. فلا استفادَ ولا أُجِرَ في الحالينِ، بلْ كانَتْ السرّاءُ والضرّاءُ عليهِ نقمةٌ.

أيُّها المسلمونَ: وينبغي أنْ نستعينَ بالصبرِ والصلاةِ -على ضعفِنا- فبذلكَ أُمِرْنا ونستعينُ بدعاءِ اللهِ والتضرعِ للهِ فتلكَ عُبوديةٌ نتقربُ بها إلى خالقِنا، وما فتئَ الصالحونَ يستغيثونَ ربَّهم ويدعونَه حتى يُفرِّجَ كَرَبُهم ويجيبَ دعاءَهُم ويرحمَ ضَعفَهم.

لا بدَّ أنْ نستثمرَ حالاتِ القوةِ والرخاءِ في عملِ الصالحاتِ، حتى إذا جاءتْ مرحلةُ الضعفِ أو كانتْ ظروفُ الشدةِ ولمْ نقدِرْ على بعض ما يُرضي ربَّنا، وإذا لنا رصيدٌ يُؤنسُنا ويكتبُ اللهُ لنا مثلَ أجرِهِ في حالِ عجزِنا ومرضِنا، لا بدَّ أنْ نستشعرَ قوّتَنا بالأخوةِ والتكاثرِ، والمرءُ قليلٌ بنفسِهِ كثيرٌ بإخوانه، ولا بدَّ منْ حفظِ الطاقاتِ وعدم الهدرِ.

اللهم ارحم ضعفنا وقوي عزائمنا، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.



ولا تسرفوا(١)

الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ أَمَرَ بالعدلِ والبرِّ والقوامِ والإحسانِ، ونهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ والمَخِيلةِ والإسرافِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، جاءتْ شريعتُه آمرةً بكلِّ خيرٍ، دالةً على كلِّ معروفٍ ناهيةً عن المجاوزةِ والفسوقِ والعصيانِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أَمَرَ بالقِسْطِ والإحسانِ، وجاءتْ سيرتُه نموذجًا للزهدِ والاعتدالِ، «**فما أكلَ آلُ محمدٍ أكلتَيْنِ في يومٍ واحدٍ إلا وأحدُهما تمرٌ**»(٢)، وقالَ للناسِ كافّةً: «**مَنْ أصبحَ آمِنًا في سِرْبِه، معافًى في جسدِهِ، عندَهُ قُوتُ يومِه فكأنما حيزتْ لهُ الدنيا**»(٣). اللهمَّ اجعلْنا لك شاكرين ذاكرين.. وصلى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ..

إخوةَ الإسلامِ: ظاهرةٌ اجتماعيةٌ تتفشَّى، وعادةٌ منَ العوائدِ باتَ الناسُ يتنافسونَ فيها، لمْ يَسلمْ منها الرجالُ فضلًا عنِ النساءِ، فلهنَّ فيها قَدَحٌ مُعلّى، ولمْ تكنْ قصرًا على الأغنياءِ، بلْ باتَ الفقراءُ يُشاركون غيرَهمْ فيها.. نهى عنها دينُنا، وحذَّرَنا منها نبيُّنا ﷺ، وفي القرآنِ الكريمِ مواضعُ عِدّةٌ في النهيِ عن الإسرافِ وذمِّ المسرفينَ، ومنها عبارةٌ محدودةٌ لكنها جامعةٌ: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾(٤).

عبادَ اللهِ: وعينُ الناظرِ المتأمِّلِ لا تكادُ تُخطئُ مظاهرَ الإسرافِ، ومجالاتِ

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ١٠/٦/١٤٢٤هـ.
(٢) رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.
(٣) رواه الترمذي وابن ماجه.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

الهدرِ في حياتِنا، إسرافٌ في المأكلِ والمشربِ، وإسرافٌ في الملبسِ والزينةِ، إسرافٌ في الولائمِ والمناسباتِ، وهدرٌ للأموالِ وإضاعةٌ للجهودِ والطاقاتِ، وفي عالمِ النساءِ والأطفالِ أنواعٌ ومستحدَثاتٌ منَ اللباسِ يُبالَغُ في ثمنِها، ويَقلُّ استخدامُها، وفَتشْ عنْ شيءٍ منْ ذلكَ تجدْهُ ظاهرًا أكثرَ في حفلاتِ الزواجِ ولقاءاتِ المناسباتِ. كلُّ ذلك وغيرُه أنواعٌ منَ الإسرافِ الحسّيِّ الماديِّ.. وثمّةَ أنواعٌ منَ الإسرافِ المعنويِّ.

أيُّها المسلمون: تقرأون في كتاب ربِّكم: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[١].

قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أحلَّ اللهُ في هذهِ الآيةِ الأكلَ والشربَ ما لمْ يكنْ سرفًا أو مَخِيلةً، فأمّا ما تدعُو الحاجةُ إليهِ، وهُوَ ما سدَّ الجوعةَ وسكّنَ الظمأَ فمندوبٌ إليهِ عقلًا وشرعًا، لمَا فيهِ منْ حفظِ النفسِ وحراسةِ الحواسِّ.. إلى أنْ قالَ: وليسَ لمنْ مَنَعَ نفسَه قدْرَ الحاجةِ حظٌّ منْ برٍّ ولا نصيبٌ منْ زهدٍ؛ لأنَّ ما حَرَمَها مِنْ فعلِ الطاعةِ بالعجزِ والضعفِ أكثرُ ثوابًا وأعظمُ أجرًا[٢].

قالَ العارفونَ: في قِلةِ الأكلِ منافعُ كثيرةٌ، منها: أنْ يكونَ الرجلُ أصحَّ جسمًا وأجودَ حفظًا، وأزكى فهمًا، وأقلَّ نومًا، وأخفَّ نَفْسًا، وفي كثرةِ الأكلِ كظُّ المَعِدة ونَتَنُ التُّخمةِ، ويتولَّدُ منهُ الأمراضُ المختلفةُ فيَحتاجُ منَ العلاجِ أكثرَ ممّا يحتاجُ إليهِ القليلُ منَ الأكلُ.

وفي هَدْيِ النبوّةِ دواءٌ وشفاءٌ وتوجيهٌ وإرشادٌ، وهُوَ القائل ﷺ: **«ما ملأَ ابنُ آدمَ وعاءً شرًا من بطنٍ، بحَسْبِ ابنِ آدمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه، فإنْ كانَ لا مَحالةَ**

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) تفسير القرطبي للآية، ٧/ ١٩١.

فثُلثٌ لطعامِه وثلثٌ لشرابِهِ وثُلثٌ لِنَفَسِه»(١).

قالَ العلماءُ: لوْ سمعَ (بُقراطُ) هذه القسمةَ لعجبَ منْ هذهِ الحكمةِ(٢).

وحينَ قيلَ لأحدِ الأطباءِ النصارى: ما في القرآنِ والسُّنّةِ منْ آياتٍ وأحاديثَ تفوقُ ما وصفَهُ الأطباءُ، عَجِبَ منْ ذلكَ، ثمَّ قالَ: ما تركَ كتابُكمْ ولا نبيُّكمْ لجالينوس طِبًّا(٣).

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، مادحًا حالَ المؤمنِ في الزهدِ والقناعةِ فيما يأكلُ: «**الكافرُ يأكلُ في سبعةِ أمعاء، والمؤمنُ يأكُلُ في مِعيَ واحدٍ**»(٤).

والمعنى كما قالَ العلماءُ: حضٌّ على التقليلِ منَ الدنيا والزهدِ فيها، فهُوَ يتناولُ دونَ شِبَعهِ ويُؤثِرُ على نفْسِهِ، ويُبقي منْ زادِه لغيرِهِ، فيقنعُه ما أكلَ(٥).

أمّا العربُ فكانتْ تُمتدحُ بقلّةِ الأكلِ وتُذَمُّ بكثرتهِ، كما قالَ قائلُهمْ (أعشى باهِلةَ..):

تكفيهِ فَلِذَةُ كَبْدٍ إنْ ألمَّ بها ... مِنَ الشِّواءِ ويَرْوي شُرْبَه الغُمَرُ(٦)

والمعتمدُ في ذلكَ ما جاءَ في «صحيحِ» البخاريِّ (معلّقًا): «**كُلوا واشربوا والبَسوا وتصدَّقوا في غيرِ إسرافٍ ولا مَخِيلةٍ**»(٧).

إخوةَ الإيمانِ: يُروى أنَّ أبا جُحيفةَ (وهبَ بنَ عبد اللهِ السُّوائيَّ) رضي الله عنه أكلَ

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم بسند صحيح، «صحيح الجامع».
(٢) تفسير القرطبي ٧/ ١٩٢.
(٣) تفسير القرطبي ٧/ ١٩٢.
(٤) أخرجه مسلم.
(٥) تفسير القرطبي ٧/ ١٩٣.
(٦) الغمر: القدح الصغير.
(٧) البخاري «كتاب اللباس».

ثَريدًا بلحمٍ سَمينٍ، فأتى النبيَّ ﷺ وهوَ يتجشَّى (والتجشؤُ: تَنَفُّسُ المَعدةِ عندَ الامتلاءِ).

فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: «**أكفُفْ عليكَ منْ جُشائِكَ أبا جُحيفةَ، فإنَّ أكثرض الناسِ شِبَعًا في الدنيا أطولُهم جُوعًا يومَ القيامةِ**»، فما أكلَ أبو جحيفةَ بملءِ بطنهِ حتى فارقَ الدنيا، وكانَ إذا تغدَّى لا يتعشَّى، وإذا تعشى لا يتغدى[1].

ويُروى كذلكَ منْ وصايا لقمانَ لابنهِ: يا بنيَّ لا تأكلْ شبعًا فوقَ شبعٍ، فإنكَ إنْ تَنْبِذْه للكلبِ خيرٌ منْ أنْ تأكلَه[2].

ولقدْ قيلَ: منَ السرفِ أنْ تأكلَ كلَّ ما اشتهيتَ؛ لأنَّ كثرةَ الأكلِ تدعو إلى كثرةِ الشرب، وذلكَ يُثقلُ المَعِدةَ، ويُثبطُ الإنسانَ عنْ عبادةِ ربِّه، والأخذِ بحظِّهِ منْ نوافلِ الخيرِ، فإنْ تعدَّى ذلكَ إلى ما فوقَه ممّا يمنعُه القيامَ بالواجبِ عليهِ حُرّم عليهِ، وكانَ قدْ أسرفَ في مطعمِهِ ومشربهِ[3].

أيُّها المسلمونَ: لقدْ أسرفْنا في مأكولاتِنا ومشروباتِنا. مُقبِّلاتٌ قبلَ الطعامِ، وأنواعٌ منَ الطعامِ، وأشكالٌ منَ اللحومِ: مشويٌّ، ومضبيٌّ، وأحمرُ وأبيضُ، وكبابٌ ورِيَشٌ.. وأنواعٌ أخرى، وأَصنافٌ من (الزلطاتِ) والمشروباتِ، وفي الختامِ لا بدَّ من حلوى ومُهضِّماتٍ!

ومَنْ يرقُبْ حالَ الناسِ وأعدادَ المراجِعينَ للمستشفياتِ يَرَى عَجبًا.. فمَعَ تقدُّمِ الطبِّ، إلا أنّ أعدادَ المرضى في تزايدٍ، وأنواعَ الأمراضِ في تصاعدٍ، تعرفُ منها وتُنكِرُ، حتى ظهرتْ أسماءُ أمراضٍ لَمْ تكنْ معروفةً منْ قبلُ.. ولا

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ١٩٤.

(٢) السابق ٧/ ١٩٥.

(٣) تفسير القرطبي ٧/ ١٩٤.

شكَّ أنَّ الإسرافَ في المأكولاتِ والإخلادَ إلى الراحةِ والكسلِ.. والشَّرَهَ في استخدامِ المعلَّبات والمستورَداتِ سببٌ منْ أسبابِ انتشارِ هذهِ الأمراضِ، ومِنَ الحِكَمِ النافعةِ: (المعدةُ بيتُ الأدواءِ، والحِمْيةُ رأسُ كلِّ دواءٍ، وأعط كلَّ جسدٍ ما عودتَهُ).

عبادَ اللهِ: والأمرُ أدهى وأمرُّ حينَ يتجاوزُ أثرُ الإسرافِ في المطعمِ والمشرب مَرَضَ الأبدانِ إلى مرضِ القلوبِ، فيتثاقلُ المسلمُ عنِ الواجباتِ المفروضةِ، ومِنْ أهمِّها الصلاةُ، فلا يأتيها إلا متأخِّرًا كسولًا، وربِّما أكلَ وشَبعَ واستغرقَ به النومُ حتى فوَّت الفريضةَ عنْ وقتِها، أو حَرَمَ نفْسَه أجرَ الجماعةِ والحضورِ للمساجدِ، وربما أسرفَ في الإنفاقِ ومَنَعَ الواجبَ منَ الزكاةِ أو المأمورِ به منَ الصدقاتِ، أو يزيدُ في الإسرافِ فينتهكُ محارمَ اللهِ بأكلِ محرّمٍ أو شربِ محرَّمٍ، أو يمتدُّ على أريكتهِ -بعدَ أنْ شَبعَ منْ نِعَمِ ربِّه- ليُسمعَ أذنَيْهِ الحرامَ منَ الغناءِ.. أو يُريَ عينيهِ مشاهدَ العُهرِ والفجورِ.. وربما تجاوزَ فاستحلَّ الفروجَ المحرَّمةَ وهَتَكَ الأستارَ واستهترَ بالقيَم.

أهكذا يكونُ الشكرُ يا عبادَ اللهِ؟! أفيُنعِمُ عليكَ ربُّك بنِعَمِه ثمَّ تجاهرُه بالمعصيةِ؟ أيقَابَلُ الإحسانُ بالإساءةِ، والعطاءُ بالجحودِ والنكرانِ؟ ليستْ تلكَ منْ شِيَمِ الكرماءِ العقلاءِ فضلًا عن المسلمينَ وأهلِ القرآن، أمَا يَخشى المسرفونَ العقوبةَ في الدنيا والآخرةِ، واللهُ يقولُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1].



(١) سورة طه، الآية: ١٢٧.

الخطبة الثانية:

أيُّها المسلمونَ: وإذا عرفْنا شيئًا منْ مظاهرِ الإسرافِ الماديِّ في حياتِنا، وما أردتُ الإحصاءَ لكلِّ مظاهرهِ قدْرَ ما أردتُ التنبيهَ على مخاطرِ الإسرافِ وأثرِه- فلا بدَّ أنْ نعرفَ أنواعًا ومظاهرَ أخرى من إسرافنا في مجالاتٍ أخرى، وهيَ لا تقلُّ أثرًا وخطرًا، وقدِ اختارَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ قولَ عطاءٍ في أنَّ النهيَ عنِ الإسرافِ في آيةِ الأنعامِ عامٌّ في الإسرافِ في كلِّ شيءٍ(١).

واعتبرَها ابنُ زيدٍ خطابًا للوُلاةِ، يعني: لا تأخذوا فوقَ حقِّكمْ وما لا يجبُ على الناسِ(٢).

وقالَ إياسُ بنُ معاويةَ: ما جاوزتَ به أمرَ اللهِ فهو سرفٌ وإسرافٌ(٣).

أخي المسلمُ: ألا تُحسُّ بشيءٍ من إسرافِنا وهَدْرِنا للأوقاتِ؟ والوقتُ هوَ الحياةُ، كمْ نستمرُ من ساعاتِ الليلِ والنهارِ فيما ينفعُنا في دينِنا أوْ دنيانا؟ وفي القرآنِ تذكيرٌ لنا بقيمةِ الزمنِ، إذْ أقسمَ اللهُ بهِ في أكثرَ منْ موضعٍ: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، إلى غيرِ ذلك من إشاراتٍ لا تخفى لمنْ تأمَّلَ.

يا عبدَ اللهِ: منَ العقلِ والحكمةِ أنْ تسألَ نفسَكَ: ماذا زرعتَ لآخرتِكَ في وقتِكَ؟ وما نوعُ مَكاسبِكَ في الدنيا منَ الوقتِ؟ أهيَ محقِّقةٌ للسعادةِ أمْ جالبةٌ للشِّقوةِ والنكدِ؟

يا مسلمُ يا عبدَ اللهِ: كمْ تُهدرُ منْ سمْعِكَ، وكمْ تُسرفُ في نظرِك، واللهُ

---

(١) تفسير ابن كثير للآية ١٤١ من الأنعام، ٣/ ٣٤٣.
(٢) نقله القرطبي ٧/ ١١٠.
(٣) السابق ٧/ ١١٠.

تعالى يذكِّركَ بالمسئوليةِ، ويقولُ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(١).

اسألْ نفْسَكَ: كمْ نسبةَ ما تسمعُ منَ الحرامِ غيبةً أوْ نميمةً، أوْ فجور أوْ فسوقًا أوْ غِناءً أوْ مجونًا، وكم نسبةَ ما تَسمعُ منَ الحلالِ: قرآنٍ، دعوةٍ للخيرِ، إصلاحٍ بينَ الناسِ، كلماتٍ طيّبةٍ عَبْرَ محاضرةٍ أوْ ندوةٍ حيَّة أوْ مسجَّلةٍ؟

ماذا تنظرُ وتشاهِدُ وأنتَ مؤتمَنٌ على الوقتِ والجوارحِ؟ واعلمْ أنَّ عينيكَ إنْ لمْ تكتحلْ برؤيةِ ما تهوى لأنه حرام، فاعلم أن المتقين أعد الله لهم في الجنة عوضًا، ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر.

يا أخا الإسلامِ: هلْ تفكِّرُ كيفَ وبمَ تقضي وقتَكَ؟ أمْ يكفيكَ أنْ تملأَ الوقتَ ويذهبَ الزمنُ كيفَ ما كانَ؟ وإذا كانَ وقتُكَ ووقتُ الآخرينَ سواءً فهلّا تأمَّلتَ وقارنتَ بينكَ وبينَ أشخاصٍ آخرينَ خلَّفوا منَ الأثرِ، وبقيَ لهمْ منَ الذِّكْرِ ما ليسَ لكَ، فَلِمَ خَلّفوا وأهملت؟

أيها المسلمونَ: ومنْ إسرافِنا كثرةُ الكلامِ دونَ فائدةٍ، فأحدُنا مستعدٌّ للحديثِ ساعةً أو أكثرَ، وقدْ يكونُ معظمُ الحديثِ لا فائدةَ منهُ، إنْ لمْ يكنْ لَغْوًا محرَّمًا، ولوْ قيلَ لهُ: كمْ ذكرتَ اللهَ في هذا اليومِ؟ لمْ يجدْ إلا القليلَ، ولو قُلتَ له: ما حزبُكَ اليوميُّ منَ القرآنِ؟ لسمعتَ عجبًا! هل ذكّرتَ غافلًا، هلْ علَّمتَ جاهلًا؟ هلْ دعوتَ إلى اللهِ؟.. إلى غيرِ ذلكَ منْ أعمالٍ تورثُ البرَّ والخيرَ، إيَّاكَ أنْ يكونَ نصيبُكَ منهُ قليلًا!

ومنْ مظاهرِ إسرافِنا: إسرافُنا في النومِ، وإذا كانَ المرءُ لا يُمدحُ بكثرةِ النومِ فالمذمَّةُ أعظمُ حينَ تفوّتُ بالنومِ صلاةً مكتوبةً، أوْ واجبًا أنت مسئولٌ عنهُ.. فإنْ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

لمْ يكنْ هذا ولا ذاكَ ففي كثرةِ النومِ من إضاعةِ الوقتِ وتفويتِ الفُرصِ ما يكفي لعَيْبِه ومذمّتِهِ.

أيُّها المسلمونَ: احذروا الإسرافَ بكلِّ أشكالِه ومظاهرِهِ، فاللهُ لا يحبُّ المسرفينَ، واللهُ لا يهدي مَنْ هُوَ مسرفٌ كذّابٌ، والمسرفونَ همْ أصحابُ النارِ، ومَعَ ذلكَ لا تَقنطوا منْ رحمةِ اللهِ إذا تُبتمْ وأنبتُمْ إلى ربِّكم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).

وعليكمْ بالاقتصادِ والاعتدالِ في أكلِكمْ وشُربكمْ، وفي منامِكمْ ويقظتِكمْ، في نفقاتِكمْ وملبسِكمْ، في بيوتكمْ ومناسباتِكمْ، وفي حالِ سفرِكم وإقامتِكمْ، في حديثِكمْ وصمتكم، وفي أسماعِكمْ وأبصارِكمْ، في حالِ غناكمْ أو فقرِكمْ، ولذُكورِكم وإناثكمْ، وكبارِكم وصغارِكمْ، ألا ما أجملَ الاقتصادَ حينَ يتمثَّلُهُ الأغنياءُ المقتدِرونَ! وما أروعَ الاعتدالَ حينَ يتصدَّرُه الكرماءُ الباذلونَ، وكلُّهمْ يقولونَ: شعارُنا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾(٢).

وإذا كانَ يعابُ على العائلِ المستكبرِ فكذلكَ يُعابُ على الفقيرِ المُسرِفِ.. وكمْ تعجبُ لأسرةٍ تُجمَعُ لها الصدقاتُ منَ المحسنينَ فإذا بها تُنفِقُها في كمالياتِ الحياةِ، والأمرُ أخطرُ إذا استعانتْ بها على شراءِ المحرَّماتِ.

وكمْ يُدهشُكَ شابٌّ يُجمَعُ مهرُه منَ الجمعياتِ الخيريةِ وصدقاتِ المحسنينَ، فإذا أبصرتَ رقاعَ الدعوةِ وجدتَها في أفخمِ القصورِ!

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

وكمْ تألمُ حينَ تسمعُ عنْ قيمةٍ خياليةٍ لثوبِ سهرةٍ، وقدْ يكونُ الزوجُ منْ ذوي الدخلِ المحدودِ، وقدْ تَلْبَسُه المرأةُ مرةً أو مرتينِ ثمَّ ترمي بهِ جانبًا.

ألا فلْنتقِ اللهَ جمعيًا فيما أنعمَ بهِ علينا، وبَدَلَ أنْ نُسرفَ لنُفِيءْ على مَن بهِ حاجةٌ، وإذا جاءَ الإسرافُ في مخيّلتِنا فلْنتذكرْ مَنْ مسَّتهمُ الحاجةُ مِنْ إخوانِنا في مشرقِ الأرضِ أوْ مغربِها، ولْنمدَّ يدَ المساعدة إليهمْ.

لا بدَّ منْ تقييد النِّعم وشُكرِ المنعِمِ، وتقديمِ النموذجِ الأمثلِ، فالنِّعمُ إذا شُكِرتْ قرَّتْ، وإن كُفِرتْ فرَّتْ، لا بدَّ منْ توعيةٍ لأبنائنا وبناتِنا ونسائِنا، لا بدَّ أنْ يكونَ النهيُ عنِ الإسرافِ حديثًا في مجالسِنا، ولا بدَّ منْ إبرازِ قيمةِ الاقتصادِ وتطبيقاته في واقعنا، وذمِّ الإسرافِ في مدارسِنا وإعلامِنا، وعلى المربِّينَ والأئمةِ والدعاةِ والوعّاظِ أن يذكِّروا الناسَ بهذا الأمرِ.

لا بدَّ أنْ نتعاونَ على البرِّ، وكمْ هوَ جميلٌ أن تتبنَّى البلدياتُ أكياسًا خاصةً لبقايا الطعامِ تُوزَّعُ في البيوتِ والمناسبات، تُوزَّع على من يحتاجُ إليها. ولا بد أن تنشط جمعيات البرِ والمستودعات الخيرية أكثر على إيصال بقايا الطعام لمن يحتاجون إليه، وكم هو جميل أن يبعث الجار إلى جاره ما فضل من طعامه بدل أن يرميه فقد يكون جاره محتاجًا إليه.

اللهم أغن فقراء المسلمين ووفق الأغنياء للشكر والبذل، واعصمنا جميعًا من الإسراف والتبذير.



(٢) الثلاثة الذين خُلِّفُوا[١]

الخطبة الأولى:

الحمدُ للهِ فارجِ الكُرباتِ ومغيثِ اللهفات، بيدهِ مقاليدُ السماواتِ والأرض، وعندهُ مفاتيحُ الغيبِ لا يَعلمُها إلا هو، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، يعلمُ ما في البرِّ والبحرِ وما تسقطُ منْ ورقةٍ إلا يعلمُها ولا حبةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولا رطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبين.

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، جاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، وتركَ أمتَهُ على مَحجَّةٍ بيضاءَ لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ، اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليهِ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلين.

ورضيَ اللهُ عنِ الصحابةِ أجمعين، أولئكَ الذي أُوذوا وصبروا ومسَّتهمُ البأساءُ والضراء، حتى مكَّنَ اللهُ لهمْ في الأرضِ وفتحَ لهمْ قلوبَ العباد.. وعن التابعينَ لهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدين، أوصيكمْ ونفسيَ معاشرَ المسلمينَ بتقوى الله، وتلكَ وصيته لمنْ قبلَنا ووصيتهُ لنا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾[٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[٣].

أيها المسلمون: كانت الخُطبةُ الماضيةُ حديثًا مُعرِّفًا بالثلاثةِ الذين خُلِّفوا من

---

(١) ألقيت هذه الخطبةُ يوم الجمعة الموافق ١١/ ١/ ١٤٢٤هـ.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وكيفَ عاشَ هؤلاءِ الأصحابُ ﷺ ظروفَ المحنةِ حين تخلَّفوا.. وكيفَ عاشوا وعاشَ المسلمونَ معهمْ ظروفَ التوبةِ حينَ تابَ اللهُ عليهم، كما شملَ الحديثُ قيمةَ الصدقِ معَ اللهِ وأثرَهُ على الصادقين، وكيفَ تزيدُ المواقفُ الصعبةُ عظماءَ الرجالِ عظمةً إلى عظمتهمْ ويقينًا إلى يقينهم، وأثرُ التوبةِ في رِفعةِ أصحابها إذا أنابوا إلى ربِّهم، وأستكملُ اليومَ أحداثًا ودروسًا أخرى في الحادثة، ومن ذلك:

الحرصُ على المبادرةِ بأعمالِ الخير، والحذرُ من التسويف، فاللهُ تعالى يقول: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، ويقولُ تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[2].

والرسولُ ﷺ يقول: «**بادِروا بالأعمالِ فِتَنًا كقطعِ الليلِ المظلم، يصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا، يبيعُ دينهُ بعرضٍ من الدنيا**»[3].

وأما التسويفُ والتباطؤُ والتثاقلُ في عملِ الخيرِ الممكن.. فذاكَ المخدِّرُ الشديدُ الذي ينبغي أنْ يُحذَرَ، وهو سببٌ في التحسُّرِ والتألُّمِ والضيقِ والضجر، وانظروا إلى كعبِ بنِ مالكٍ ﷺ وهوَ يصفُ لنا أثرَ التسويفِ والتردُّد في فعلِ الخيرِ ويقول: «فطفقتُ أغدو لكي أتجهزَ معهم، فأرجعُ ولمْ أقضِ شيئًا، فأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ عليه، فلمْ يزلْ يتمادى بي حتى استمرَّ بالناس الجِدُّ، فأصبحَ رسولُ اللهِ ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولمْ أقضِ منْ جهازي شيئًا، ثمَّ غدوتُ فرجعتُ ولمْ أقضِ شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارطَ الغزوُ،

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٣) أخرجه مسلم (١١٨) في الإيمان، والترمذي (٢١٩٦)، جامع الأصول ١٠/ ٣٠.

فهممتُ أنْ أرتحلَ فأدرِكَهم، فياليتني فعلتُ، ثمَّ لمْ يُقدرْ ذلكَ لي»[١].

فهلْ نحذرُ التسويفَ يا عبادَ الله.. وهلْ نُحاذرُ الكسلَ والتباطؤ في عملِ الخير، وهلْ نسلكُ الجدَّ والحزمَ كما قالَ ابنُ الجوزي: فينبغي للحازمِ أنْ يعملَ على الحزم، والحزمُ تَدَارُكُ الوقتِ وتركُ التسويف[٢].

٢- أصنافُ المجتمع، ومِنْ أيِّهِمْ أنت؟ في أيِّ مجتمعٍ مؤمنونَ أقوياء، ومؤمنونَ ضعفاءُ لكنهمْ معذورونَ لضعفهم، ومنافقون، ومتخلفونَ لا عنْ نفاقٍ لكنْ عنِ تسويفٍ أو كسل، وفي حديثِ كعبٍ رضي الله عنه تشخيصٌ لهذهِ الفئاتِ يقول:

فكنتُ إذا خرجتُ في الناسِ بعد خروجِ رسولِ اللهِ ﷺ، فطفتُ فيهمْ أحزَنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليهِ في النفاق، أو رجلًا ممنْ عذرَ اللهُ من الضعفاء.

وإذا تحدثَ كعبٌ عنْ صنفينِ ممنْ بقي، فهوَ وصاحباهُ يمثلانِ منْ تخلَّفَ دونَ عذرٍ لكنْ دونَ نفاق، وهذا صنفٌ ثالثٌ، أما الرابع.. فهمُ المجاهدونَ والسابقونَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ وأولئكَ أصحابُ القدحِ المعلَّى.

يا عبد الله: وإذا دُعي الناسُ للخيرِ فمنْ أيِّ الأصنافِ تُراكَ تُصنِّفُ نفسك؟

إنه لمُحزنٌ أنْ يحشرَ المؤمنُ نفسَهُ معَ المنافقين.. أو يُنزلَها منازلَ المعذورين، أو يقعدَ بها ببضاعةِ التسويف، ومن المعالي أنْ يكونَ معَ المسارعينَ للخيرات.

٣- عبادَ الله: لِمنْ يكونُ الولاءُ؟ والحذرُ منْ مؤامراتِ الأعداء: ولاءُ

---

(١) مسلم ح ٢٧٦٩.

(٢) تلبيس إبليس ٤٠٤.

المؤمنِ للهِ ولرسولِهِ وللمؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[(١)].

أما البراءةُ منَ الكفارِ عمومًا، واليهودِ والنصارى على وجهِ الخصوص، وهوَ ما يعيشهُ المسلمونَ هذهِ الأيام، فقدْ جاءَ التحذيرُ منها في كتابِ اللهِ في قولهِ تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)].

قالَ القرطبي رحمه الله في تفسيرِ هذهِ الآية: قولُه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يدلُّ على قطعِ المولاة شرعًا[(٣)].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ أي: يَعضدُهمْ على المسلمين ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ يعني أنَّ حُكْمَهُ كحُكْمِهم، وهوَ يمنعُ إثباتَ الميراثِ للمسلمِ منَ المرتِّد، ثمَّ قالَ القرطبيُّ: وكانَ الذي تولاهمُ ابنُ أبيّ (رأسُ المنافقين)، ثمَّ هذا الحكمُ باقٍ إلى يومِ القيامةِ في قطعِ الموالاة، وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[(٤)][(٥)].

وفي قصةِ كعبٍ نموذجٌ لمؤامراتِ الأعداءِ ومحاولةِ تفكيكِ المجتمعِ المسلمِ في زمنِ النبوة، ولكنَّ الصحابةَ كانوا مدركينَ لهذهِ الفتنة، يقولُ: كعب: فبينا أنا أمشي بسوقِ المدينةِ إذا نبطيٌّ منْ أنباطِ أهل الشامِ ممنْ قدمَ بالطعامِ يبيعهُ بالمدينةِ يقول: منْ يَدلُّ على كعبِ بنِ مالك؟ قال: فطفقَ الناسُ يُشيرونَ لهُ إليّ، حتى جاءني فدفعَ إلي كتابًا منْ ملكِ غَسَّانَ، وكنتُ كاتبًا فقرأتُهُ فإذا فيه: أما

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٣) ٦/ ٢١٦.

(٤) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٢١٧.

بعدُ: فإنهُ قدْ بلَغَنا أنَّ صاحبكَ قدْ جفاك، ولمْ يجعلْكَ اللهُ بدارِ هَوَانٍ ولا مَضْيَعةٍ، فالْحَقْ بنا نُواسِكَ، قالَ (كعب): فقلتُ حينَ قرأتُها: وهذهِ أيضًا منَ البلاء، فَتَيامَمْتُ بها التَّنورَ فَسَجَرْتُها بها[1].

وما أحوجَنا في مثلِ هذهِ الأزمانِ إلى مثلِ صنيعِ كعب، حيثُ أحرقَ مودَّتهمْ معَ حاجتهِ إليهم، حيثُ يحرصُ الأعداءُ على خلخلةِ المجتمعِ المسلمِ والتدسسِ بينَ أفراده، ويظهرونَ أنهمْ ناصحونَ مواسونَ يدافعونَ عنِ المسلمينَ واللهُ أعلمُ بما يُريدون، ولقدْ كانَ ردُّ كعبٍ مميتًا لفتنةٍ وقاضيًا على طمعِ الكفارِ في المسلمين، فقدْ جاءَ عنْ كعبٍ في روايةِ ابنِ أبي شيبةَ قوله (كعب): إنا لله، قد طمعَ فيَّ أهلُ الكفر[2]. وعندَ ابنِ عائذ أنَّ كعبًا شكا أمرَهُ إلى الرسولِ ﷺ وقال: ما زالَ إعراضُكَ عني حتى رغبَ فيَّ أهلُ الشِّركِ[3].

قالَ ابنُ حجر معلقًا: ودلَّ صنيعُ كعبٍ هذا على قوةِ إيمانهِ ومحبتهِ للهِ ولرسوله، وإلا فمنْ صارَ في مثلِ حالهِ منَ الهجرِ والإعراض، قدْ يضعفُ عنِ احتمالِ ذلك، وتحمِلُهُ الرغبةُ في الجاهِ والمالِ على هُجرانِ منْ هجَرَه، ولا سيما معَ أمنهِ منَ الملكِ الذي استدعاهُ إليهِ أنهُ لا يُكرههُ على فراقِ دينهِ، لكنْ لما احتملَ عندَهُ أنهُ لا يأمَنُ من الافتتان، حسمَ المادةَ وأحرقَ الكتابَ ومنعَ الجواب[4].

وهكذا يكونُ المؤمنُ صادقًا في ولائهِ معَ المؤمنين، وفي عداوتهِ وبراءتهِ منَ

---

(١) مسلم (٢٧٦٩).

(٢) ابن حجر، الفتح ٨/ ١٢١.

(٣) الفتح ٨/ ١٢١.

(٤) الفتح ٨/ ١٢١.

الكفارِ في حالِ القوةِ أو حالِ الضعف، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[(١)].

٤- صديقُكَ منْ صَدَقكَ لا منْ صدَّقَك: ثمةَ أصدقاءُ ربما أظهروا لكَ التعاطفَ حينَ تخطئ، أو حينَ تكونُ محتاجًا للنُّصح، وربما سهَّلوا لكَ الخطأ، أو حسَّنوا لكَ العزةَ بالإثم.. وأولئكَ قدْ يرقُّون لكَ وقدْ تنساقُ لنُصحهم -غيرَ مُقدِّرٍ للعواقب- وثمةَ أصدقاءُ آخرونَ ربما قَسَوا عليك لكنْ لمحبَّتهِمْ لكَ وإخلاصِهِمْ في نُصْحكَ قَسَوا، وحالُهمْ كمنْ قسى ليزدجروا، وربما لمْ يُجاملوكَ وإنْ غضبتَ عليهم، لكنهمْ يُثمنون العواقبَ، ويرونَ نَصَبَكَ في الدنيا أهونَ منْ عذابِ الآخرة، أولئكَ فاحرصْ عليهمْ وتمسَّكْ بنُصْحِهم، وقدِ استطاعَ كعبٌ أن يتجاوزَ نُصحَ ومشورةَ الصنفِ الأولِ فأفلحَ وأنجح، وها هوَ يقول: على إثرِ صِدْقهِ معَ الرسولِ ﷺ، وأنه لا عُذْر له، فقمتُ- يعني من عند رسول الله ﷺ، وثارَ رجالٌ منْ بني سَلِمة فاتبعوني، فقالوا لي: واللهِ ما علمناكَ أذنبتَ ذنبًا قبلَ هذا، ولقدْ عجزتَ في ألا تكونَ اعتذرتَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بما اعتذرَ إليه المخلَّفون، فقدْ كانَ كافيكَ ذنبُكَ واستغفارُ رسولِ اللهِ ﷺ لك، يقولُ كعب: فواللهِ ما زالوا يؤَنِّبونني حتى أردتُ أنْ أرجعَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فأكذِّبَ نفسي[(٢)].

كمْ نحنُ محتاجونَ للصدقِ معَ اللهِ ومعَ أنفسِنا -يا عبادَ الله- وهذا كعبٌ يبينُ لنا في نهاية قصّته إنهُ لمْ يُنجِهِ إلا الصدقُ، بلْ يعتبرها أعظمَ نعمةٍ بعدَ الإسلام، وما أحوَجنا كذلكَ إلى تجاوزِ الكذب، والحذر ممنْ يُلبِّسُ به، حتى وإنْ قيل لمن لا يحسن الكذب إنَّ هذا مسكينٌ وطيِّبُ القلبِ ولا يُحسنُ المخارج.. إلى غيرِ ذلكَ منْ عباراتٍ جارحةٍ للصدقِ والصادقين.. ومدحٍ وتلميعٍ للكذبِ

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢.

(٢) مسلم (٢٧٦٩).

والكاذبين، واللهُ تعالى يدعونا للصدقِ وهوَ أصدقُ القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]، ويحذرنا من الكذب ويقول: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[2].

٥- الدفاعُ عنْ عِرْضِ المسلم.. وقعَ في قصةِ كعبٍ ما يُذكِّرنا بنموذجينِ للتعاملِ مع الخطأ والتقصير، أما النموذجُ الأولُ فهوَ المستعجلُ بالحكمِ المصدرُ للتُّهم، وما أسهلَ هذا على بعضِ الناسِ، وما أعظمهُ عندَ الله، والرسولُ ﷺ يُحذرُ ويقول: «**كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرام؛ دمهُ ومالهُ وعِرْضُه**».

أما النموذج الثاني فهوَ المتريِّثُ بالحكمِ المدافعُ عن عِرْضِ أخيه إذا اعتُديَ عليهِ بغيرِ حقٍّ، وما أحوجَ مجالسَنا لمثلِ هؤلاء، وأولئكَ يستحقونَ العتقَ منَ النار، كما قال ﷺ: «**منْ ذبَّ عنْ عِرْضِ أخيهِ بالغَيْبة، كانَ حقًّا على اللهِ أنْ يعتقَهُ منَ النار**»[3].

والنموذجانِ يَظْهرانِ بجلاءٍ في قصةِ كعب، فحينَ سألَ رسولُ اللهِ ﷺ عنْ كعبٍ حينَ بلغَ تبوكَ، قالَ رجلٌ منْ بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرادهُ والنظرُ في عطفَيْه، فقالَ لهُ معاذُ بنُ جبل: بئسَ ما قلتَ، واللهِ يا رسولَ الله، ما علمْنا عليه إلا خيرًا[4].

ومعَ ذلكَ، وفيما يخصُّ الرجلينِ المتحدثينِ عن كعبٍ حينَ تخلَّف، قالَ ابنُ حجر: وفيهِ جوازُ الطعنِ في الرجلِ بما يغلبُ على اجتهادِ الطاعنِ عن حميَّةٍ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٥.

(٣) رواه أحمد والطبراني وصححه الألباني، صحيح الجامع ٥/ ٢٩٠.

(٤) مسلم ٤/ ٢١٢٢.

للهِ ورسوله، وفيها: جوازُ الردِّ على الطاعنِ إذا غلبَ على ظنِّ الرادِّ وَهْمُ الطاعنِ أو غلَطُه[١]. وهوَ تحريرٌ جميلٌ ودفاعٌ عن الصحابيينِ لاجتهادهما، ولكنَّ الاحتياطَ في حمايةِ عرضِ المسلمِ مطلب، والأصلُ في المسلمِ السلامةُ والخير.

٦- ومنْ دروسِ القصةِ أنَّ التخلفَ عنِ الجهادِ في زمنِ النبوةِ معصيةٌ يُعاقِبُ عليها الرسولُ ﷺ ويَهجرُ مِنْ أجلِها المسلمون، وتضيقُ الأرضُ بما رَحُبتْ على المتخلِّفين.

ثمَّ يدورُ الزمانُ، وتتخلفُ الأمةُ عن الجهاد.. بلْ يُعتبرُ المجاهدون نَشازًا غريبًا يُتهمونَ بالإرهاب، ويطارَدُونَ ويلاحقون.. والله المستعانُ.

اللهمَّ اجعلْنا هُداةً مهتدين، لا ضالينَ ولا مضلِّين، أقولُ ما تسمعونَ وأستغفرُ اللهَ.



(١) الفتح ٨/ ١٢٤.

الخطبة الثانية:

أيها المسلمون:

٧- ومنْ دروسِ قصةِ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا: أنَّ الشكرَ قرينُ المؤمن، وأن مقامَ الشاكرينَ مقامٌ عليٌّ وبالشكرِ تدومُ النِّعَمُ وتزداد، وهذا كعبُ بنُ مالكٍ ﷺ يضربُ لنا نموذجًا يُحتذى في الشكر، فهوَ يسجدُ للهِ شُكرًا حينَ بلغهُ الصوتُ المُبشرُ بالخير، ويقول: يا كعبَ بنَ مالك، أبشر، يقولُ كعبٌ: فخررتُ ساجدًا وعرفتُ أنْ قد جاءَ فَرَجٌ، وحينَ جاءَهُ الرجلُ الذي سمعَ صوتَهُ بالبشرى، نزعَ لهُ كعبٌ ثوبيهِ فكساهما إياهُ لبشارته، وحينَ بلغَ كعبٌ النبيَّ ﷺ وبشّرهُ بخيرِ يومٍ مرَّ عليهِ منذُ ولدته أمُّه.. قالَ كعبٌ: يا رسولَ الله، إنَّ منْ توبتي أنْ أنخلعَ منْ مالي صدقةَ إلى اللهِ وإلى رسولهِ ﷺ[1].

وهذهِ السلوكياتُ منْ كعبٍ كلُّها تسيرُ في اتجاهِ الشكر والفرحةِ بفضلِ اللهِ وفَرَجِه، وهكذا ينبغي أنْ يكونَ شأنُ المسلمِ شاكرًا، وكلما تذكرَ نعمةً منْ نعمِ اللهِ أتبعَها بالشكر.

وهنا، وفي مقامِ الشكرِ والشاكرين، لا بدَّ أنْ نتذكرَ أنهُ مقامُ الأنبياءِ بالدرجةِ الأولى منذُ نوحٍ عليه السلام الذي قال اللهُ عنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[2] إلى خاتمهم محمد ﷺ الذي قام حتى تفطَّرت قدماهُ من القيام وهو يقول: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**».

وبينَ هذينِ النبيينِ الكريمينِ أنبياءُ آخرونَ شاكرون، فسليمانُ عليه السلام قال: ﴿رَبِّ

(١) مسلم ٤/٢١٢٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣.

﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾(١).

وآلُ داودَ قالَ اللهُ عنهم: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(٢).

وموسى عليه السلام صامَ عاشوراءَ شكرًا للهِ على نُصرةِ المؤمنينَ وهلاكِ الطغاةِ والمستكبرين.

إخوةَ الإسلام: وحينَ يكونُ الحديثُ عنِ الشُّكر في الأيامِ التي وقعَ فيها ما يوجبُ الشُّكرَ -وهو عاشوراء- فلا غَرْوَ أنْ نشيرَ كذلكَ إلى معانٍ أخرى من المعاني العظيمةِ لهذا اليومِ العظيمِ (عاشوراء).

فمَنْ يستنطقْ شهادةَ هذا اليومِ يجدْهُ يُحِّدثُ أنَّ العاقبةَ للتقوى، وأنَّ النصرَ لأولياءِ اللهِ مهما أُوذوا واستضُعفوا، وأنهُ تعالى بقُدْرتهِ يَمُنُّ على الذين استُضعفوا في الأرضِ ويجعلُهمْ أئمةً ويجعلهمُ الوارثين، ويُمكِّن لهمْ في الأرضِ وإنْ كانوا مُشرَّدينّ مطاردين.

أما الكافرُ فهوَ وإن غرَّتَهُ قوتُه، وانخدعَ بمهلةِ الزمان، واستدراجِ الرحمنِ فعاقبتُهُ إلى بَوار، وفي نهايتهِ عبرةٌ لأولي الألباب.

وفي مشهدِ عاشوراءَ عجزَ الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٣) أنْ يعلوَ على الماءِ الذي تعلوهُ أضعفُ الكائناتِ الحيّة، فأغرقَهُ اللهُ، ثمَّ أخرجَهُ ليكونَ لمنْ خَلْفَهُ آيةً. ونسألُهُ تعالى كما أهلكَ الفراعنةَ الماضينَ أنْ يُهلكَ الفراعنةَ المعاصرين، أولئكَ الذين طَغَوْا وتجبَّروا، وقالَ لسانُ حالِهمْ ومقالِهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾(٤).

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٣) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٥.

ومنْ معاني عاشوراءَ أنَّ حَبْلَ الإيمانِ ممدود ومعقودٌ بينَ المؤمنينَ رغمَ فوارقِ الزمانِ وفواصلِ المكان.. فنحنُ اليومَ نصومُ عاشوراءَ لأنَّ موسى عليه السلام صامَهُ.. ولأنَّ محمدًا ﷺ جدَّدَ صيامَه.

ونحنُ اليومَ نشكرُ الله على نُصرةِ المؤمنينِ السابقين، ونسألهُ أنْ ينصرَ المؤمنينَ اللاحقين، وما أحرى المسلمُ بالدعاءِ -في كلِّ حين- والدعاءُ جيشٌ يمكنُ أنْ ينصرَ اللهُ بهِ المؤمنين، والدعاءُ جيشٌ يقوِّضُ دعائمَ الكافرينَ ويحطِّمُ عروشَهم. ولا سيما إنْ كانَ صائمًا - أنْ ينصرَ دينَهُ وأنْ يخذلَ أعداءه، فذلكَ شعورٌ واعٍ لهذا اليومِ بأحداثِهِ وعِبَرِه، وذلك استثمارٌ أمثلُ لهذه المناسبة.

ويُعلِّمنا عاشوراءُ -فيما يُعلِّمُنا- أنْ لا يأسَ ولا إحباطَ عندَ المسلمِ مهما ادْلهمَّتِ الخُطوبُ، ومهما تجبّرَ العدوُّ وحشدَ قُواه، فالنصرُ منْ عندِ الله، والهزيمةُ طَوْعُ قدرتِه، وحينَ تستحكمُ الحلقاتُ ويصدقُ المؤمنونَ معَ ربِّهم، يُهيءُ لهمْ منْ أسبابِ النصرِ ما لمْ يصنعوه، ويُؤْخذُ المستكبرونَ الظالمونَ منْ حيثُ لمْ يحتسِبوا.

أجلْ، إنَّ لله جنودًا في الأرضِ وجنودًا في السماء، وقدْ يتجاوزُ الظالمُ المعتدي حدودَ البرِّ فيكونُ البحرُ نهايتَه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1] وقدْ يعجزُ البشرُ عن مقاومتهِ فيتولّى ربُّ البشرِ أخذَهُ وتحطيمَ قواه.

كمْ نحنُ بحاجةٍ -يا مسلمون- إلى اليقينِ بنصرةِ اللهِ لأوليائِهِ المتَّقين.

وكمْ نحنُ بحاجةٍ إلى التوكُّلِ لا إلى التواكُل.

نحتاجُ إلى شجاعةٍ دونَ تهوُّرٍ، وشجاعةُ القلبِ مرتبطةٌ بتصوُّرِ عظمةِ اللهِ وقُدْرته، وإلى إيمانٍ لا مجردَ أمانٍ، وإلى إعدادٍ لا مجردَ جَعْجَعة، وإلى صدقٍ

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

في المواقفِ لا مجردَ مزايدةٍ وتسويفٍ وادِّعاء.

لقدِ انتصرَ المؤمنون الذين قيلَ لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

وكذلكَ ينتصرُ المؤمنونَ منْ بعدهمْ إذا ساروا على خطاهم.



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.



فهرس خطب الجزء التاسع



فهرس خطب الجزء العاشر

